Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York
LIBRARY

PURCHASED FROM
THE
WILLIAM C. SCHERMERHORN
MEMORIAL FUND

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

— ١٥ —

اخوان الصفا

درس - عرض - تحليل

تاليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م

منشورات مكتبة منيمنه - بيروت - المعرض

— ١٥ —

اخوان الصفا

درس - عرض - تحليل

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م

منشورات مكتبة منيمنه - بيروت - المعرض

Alhermakan

الطبعة الاولى ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م
الطبعة الثانية ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م

893.7991
Ik435

جميع الحقوق محفوظة

بيروت
ربيع الثاني ١٣٧٢
كانون الثاني ١٩٥٣

27615

الكلمة الثانية

ان المشكلة الاساسية في دراسة اخوان الصفا تتناول صلة اخوان الصفا بالحركة السياسية في مطلع القرن الهجري الرابع :

ما صلة اخوان الصفا بالاسماعيلية ؟

ما غاية اخوان الصفا السياسية ؟

اما صلة اخوان الصفا بالاسماعيلية – أو صلة الاسماعيلية باخوان الصفا ، على الاصح – فهي معروفة ، ولكن تحديدها لا يزال الى اليوم صعباً[1] . والسبب في ذلك ان البحوث التي تتناول « العهد الفاطمي » لا تزال قليلة جداً ، على الرغم من المجموعة القيمة التي نشرتها الجمعية الاسماعيلية وجمعية البحوث الاسلامية في بومباي .

ان هذه المجموعة تتألف اما من سرد خارجي لتاريخ الحركة واما من بحوث مذهبية . والدعوة الفاطمية لم تُبحث بعدُ بحثاً فلسفياً لأنها دعوة باطنية لا يجوز التصريح بجميع ما تنطوي عليه لجميع الناس . ان ثمت الفاظاً مختلفة مثل « الناطق – آدم – امام – الدور – القميص – دور الستر » وهي رموز معرفة عند الاسماعيلية وفي رسائل اخوان الصفا معاً . ثم ان عدداً كبيراً من البحوث الفلسفية موجودة عند اخوان الصفا وعند الاسماعيلية ، كترتيب العالم وفيضه والعقل والنفس الكلية. فالشبه اذن موجود ، وهو شديد . ولكن من اخذ عن الثاني ؟ هل كان اخوان الصفا اسماعيلية ام هل اتبع الاسماعيلية رأي اخوان الصفا ؟

يبدو لنا[2] ان الدعاة الاسماعيليين الاولين لم يعرفوا رسائل اخوان الصفا، وان اول من استفاد من مادة تلك الرسائل شيئاً انما هو الداعي اليمني الثالث حاتم بن ابراهيم (ت ٥٩٦ هـ - ١١٩٩ م) . على ان ثمت قولا ينسب تأليف رسائل اخوان

---

(1) The Alleged Founder of Ismailism, by W. Ivanow, Bombay 1946, p. 146 f.

(2) Rawdat u't–Taslîm, commonly called Tasawwurat, ed. & transl. into English by W. Ivanow (No A-4), Leiden 1950, page p. 146 f. and note2.Cf. The Alleged Founder of Ismailism 147.

الصفا الى احمد بن عبد الله ، جد عبيدالله المهدي[1] . فاذا كان عبيدالله المهدي قد توفي سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥م) ، فجده احمد بن عبد الله ، الذي نسبت اليه هذه الرسائل ، يجب ان يكون من احياء القرن الثالث .

ولكن قبولنا بذلك ينتج اضطراباً كبيراً في حل قضية تأليف اخوان الصفا ، ان رسائل اخوان الصفا تذكر ان هنالك رسالة جامعة (١ : ٣٢ الخ) هي الغاية من الرسائل كلها. هذه الرسالة التي لم تطبع في النسخة التي بايدي الناس ولم تجعل من الرسائل التي كان تفرق ، كانت اذن معروفة بلا ريب قبل انتهاء القرن الثالث ، بينما هنالك رواية تنسب تأليف الرسالة الجامعة الى الحكيم المجريطي[1] المتوفى في آخر القرن الرابع للهجرة ومطلع القرن الحادي عشر للميلاد. ولكن هذا غير ثابت[2] أيضاً . وهكذا نجد ان الذي لا يزال صحيحاً ان مؤلفي رسائل اخوان الصفا ومؤلف الرسالة الجامعة معهم لا يزالون مجهولين .

وما يقال عن قضية تأليف رسائل اخوان الصفا لا يزال يصدق على الغاية السياسية » من هذه الرسائل كلها. لقد كان للجماعة غايات سياسية بلا ريب ، ولكننا لا نعرف تلك الغايات من رسائلهم معرفة صريحة. فالذي لا ريب فيه انهم ارادوا ان ينشئوا جماعة مفكرة متصافية تعيش منعزلة عن « المجتمع الكبير » . ولعل ذلك كان يقرب في خيالهم من الحياة الداخلية التي يحياها الاسماعيليون اليوم .

ان للاسماعيليين « دولة دينية » لها رئيسها ونظامها المالي والاداري ، واتجاهها الاجتماعي والثقافي بينما هي تحيا حياة عامة في المجتمع الكبير الذي تعيش فيه حيث كانت من الارض . ان الاسماعيليين ، الذين يعيشون في سورية وفي غربي الهند وفي جنوبي بلاد العرب وفي شرقي افريقية، سوريين وهنديين ويمنيين وبريطانيين ، يدينون بالولاء الديني والمالي للامام الاسماعيلي .

---

(1) Studies in Early Persian Ismailism, by W. Ivanon, Leiden 1948, P. 47.

١ — مسلمة بن احمد المجريطي من اهل قرطبة في الاندلس .

٢ — راجع ، الرسالة الجامعة ، المقدمة (للدكتور جميل صليبا)، ص ٣ وما بعدها ، وخصوصاً ٩ وما بعدها .

من اجل ذلك كله لا يزال التحقيق العلمي في شأن اخوان الصفا انفسهم حيث كان منذ بدأ، ولهذا يجب ان يتجه اهتمامنا الى آراء اخوان الصفا أنفسهم على ما بسطوه في رسائلهم . اما النتائج المجدية فيجب ان تُنتج من المقارنات الدقيقة الوافية بين رسائل اخوان الصفا وبين الكتب الاسماعيلية . وهنا نستطيع ان نقول : ان اخوان الصفا رأوا ان الاعتقادات وحدها لا تؤدي الى السعادة الدنيوية ولا الى الفوز في الاخرة[١] . اما العبادات الشرعية فليس عظيمة الاهمية ايضاً ، وخصوصاً عند المتقدمين في السن والرتبة منهم . ولهذا اضافوا الى « صلب عقيدتهم معارف طبيعية وما ورائية[٢] خاصة » وجعلوا الاحاطة بها شرطاً اساسياً للسعادة الحقيقية . فالعلم اذن عند اخوان الصفا جزء اساسي من الدين . ويبدو لي بوضوح تام ان الاسماعيليين ، والدروز الى حد ما ، قد تبنّوا ذلك في نظامهم المذهبي . واذا كنا نحن اليوم لا نري العامة من الاسماعيلية والدروز — وبعض الخاصة منهم ايضاً — يقدرون ذلك قدره ولا يعرفون من تلك العلوم كثيراً او قليلاً ، فليس معنى ذلك ان هذا الاتجاه غير موجود في صلب المذهب الفاطمي وبالتالي في صلب المذهب الاسماعيلي والمذهب الدرزي .

ع . ف

١٢ ربيع الاول ١٣٧٢
٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٢

---

١ — الاخرة عند اخوان الصفا رمز للزمن الذي تنجو فيه النفس من سجن الجسد وتعيش مفارقة له بعد موته .

٢ — نسبة الى ما وراء الطبيعة .

الكلمة الاولى

بين يدي اخوان الصفا

هناك في التاريخ الاوروبي بحثان معقدان لا يهجم عليهما كل مؤرخ الا حذراً متباطئاً: تاريخ البابوية في العصور الوسطى لتداخل السياسة بالدين وتشعب الموضوع نفسه وتنازع الاحزاب المختلفة في المؤسسة الواحدة ، ثم تاريخ البلقان في العصر الحديث لكثرة القوميات وتصادم العوامل والعناصر الداخلية والخارجية في ذلك المكان الضيق في الجنوب الشرقي من اوروبة .

وكذلك نجد في « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ناحيتين قلما أمن الباحث في مسالكهما ، وقلما كتب الكاتبون عنهما : علم الكلام، لضياع اكثر اصوله وتضارب آراء اصحابه ، وتمازج بحوثه بالدين والفلسفة والاجتماع . ثم هنالك اخوان الصفا ، لأن رسائل اخوان الصفا جمعت شيئاً من كل شيء من الفلسفة القديمة وتأثرت بشيء من كل شيء من الفلسفة والاديان والمذاهب في العصور الوسطي . ومع ان اخوان الصفا قد ارادوا ان يبوبوا الفلسفة ، وقدبوبوا آراءهم فعلاً في واحدة وخمسين رسالة، فانهم كثيراً ما يذكرون اشياء متفقة في اماكن مختلفة ، بل لعل ذلك هو الغالب عليهم ، لأن «الجماعة» كتبوا باسلوب رمزي ، ولانهم ارادوا فعلاً الا يصل القارىء العادي الى معتقدهم بيسر وسهولة .

ولقد طالعت كل ما وصلت اليه يدي مما كتب عن اخوان الصفا فرأيت فيه كله شيئين جديرين بالملاحظة :

أ ـ الاشارات الخارجية :

كان ابو حيان التوحيدي[1] اول من ذكر شيئاً عاما عن اخوان الصفا حينماسئل عن بعض رجالهم. ثم جاء القفطي[2] فنقل ما قاله ابو حيان مختصراً. وعن ابي حيان

١ — المقابسات — انظر مطلع هذه الدراسة .
٢ — اخبار الحكماء — « تحت » اخوان الصفا .

والقفطي اخذ كثير من المتاخرين ، ولكن تفننوا في الاستنتاج وحمّلوا الروايات فوق ما يجوز لها ان تحمل. وبما لا شك فيه ان قراءة امثال هذه المقالات «الاجتهادية» لا تصور اخوان الصفا صورة صحيحة ، ولا هي تتفق فيما بينها على ما تذكره . فهي من اجل ذلك لا تشفي غليلا .

ب ـ فحوى الرسائل :

على ان هنالك جماعة ادعوا قراءة الرسائل ، ولكنهم ـ كما يظهر من مقالاتهم ـ تصفحوا بعض اوراق منها كيفما اتفق لهم كما فعل الدكتور طه حسين مثلا ، او قرأوها مع شيء يسير من العناية كما فعل احمد زكي باشا ، او انتزعوا منها بعض الموضوعات كما فعل السيد اديب عباسي .

١ ـ يؤلف الدكتور طه حسين طبقة وحده ، لأن المقال الذي كتبه حضرته ثم ألصقه الناشر بالجزء الاول من الرسائل تيمناً باسمه، يمكن ان يكون مقدمة لاخوان الصفا ، كما يمكن ان يكون مقدمة للزوميات المعري او لكتاب كليلة ودمنة، مع شيء من التحوير تقتضيه طبيعة المسرح. ان مقال الدكتور طه حسين كلام عام في العصر والاثر الفلسفي «لمثل هذه الجماعات». فبعد ان يسوّد حضرته اربع عشرة صفحة كاملة، كلها « لعل... وربما... ولسنا نقول شيئاً جديداً ...»، وبعد ان تكلم حضرته على اللغة والتاريخ والجغرافية، وعن العرب والفرس والروم والقبط والبربر والاسبانيين ايضاً ، وبعد ان قال حفظه الله : « فليس شعر المتنبي وابي العلاء كشعر البحتري وابي تمام او كشعر ابي نواس ومسلم او كشعر الفرزدق وجرير ، وليس نثر الصابي وابن العميد كنثر الجاحظ او كنثر ابن المقفع » ... (كل هذا ذكره الدكتور طه حسين، واذكر انت ـ رعاك الله ـ انه كان يتكلم عن رسائل اخوان الصفا)، وبعد هذا التأويل والدوران ـ والتعبير ، ألهمك الله الصبر ، للدكتور طه حسين نفسه ، يصف به اسلوب اخوان الصفا ـ يقول : « وجملة القول ان هذه الرسائل كنز لم يُقدر بعد لأنه لم يعرف بعد ! » .

والعجيب ان الدكتور طه حسين كتب اربع عشرة صفحة في شيء لم يعرف بعد ، الا انني كنت دائماً اتساءل عن الشيء الذي منعه من ان يدرس الرسائل التي

طبعت فيعرفها هو .

ولعل من الخير ان نعلم ان ناشر رسائل اخوان الصفا قصد تقديم مقدمة الدكتور طه حسين استاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية على بحث احمد زكي باشا ، على ضئالة مقدمة الاول ونفاسة بحث الثاني ، للدعاية لا للقيمة الذاتية .

٢ – ومما يجب ان نعجب له ان الكنز الذي زعم الدكتور طه حسين انه لم يعرف بعد ، قد عرفه احمد زكي باشا قبل ذلك باربعين عاما ، وكتب فيه بحثا فائضا قيما ، ولكنه تناول في الاكثر ، اشخاص اخوان الصفا وجماعتهم ، وعرض لشيء يسير من فحوى الرسائل فقط .

ومن الذين فعلوا ما فعله احمد زكي ، عبد اللطيف الطيباوي ، فقد كتب رسالة عن «جماعة اخوان الصفا» بحث فيها عن رجال الجماعة وعن طريق تأليف رسائلهم ، وعُني بالكشف عن اتجاههم الفلسفي والمذهبي . ولكن يظهر ان الطيباوى كان « يقلب صفحات الرسائل » فقط ، كما يذكر هو (راجع ص ٣٢ من رسالته)، الا انه على كل حال كان يقرأ بعض المقاطع قراءة مفصلة . وفي كلام الطيباوي على الاسلوب لمعرفة عدد المؤلفين ضعف كثير ، ولا غرو فالرسالة مشحونة بالاخطاء اللغوية والنحوية مما ليس باخطاء مطبعية على الاطلاق . ثم ان كلامه عن اتجاههم السياسي كان عرضة للنقد اذ كان ينقصه الالمام بالفلسفة اليونانية (راجع مثلا ص ٤٠ – ٤٨) . ان الدراسات الفلسفية تختلف من الدراسات الادبية ، كما تختلف دراسة الفلك من دراسة اللغة .

ويجب ان نضيف الى هذا الباب جميع ما كتبه المستشرقون امثال ديتريصي وده بور وكارا ده فو وغولدتسيهر وغيرهم ، ثم ما تفرق في دوائر المعارف المختلفة والكتب العامة فى تاريخ الفلسفة . ولقد كان ديتريصي اشد المستشرقين عناية واعمقهم مطالعة لرسائل اخوان الصفا ، ولكن بحوثه في فلسفة اخوان الصفا لم تتم .

٣ – وكانت مجلة الرسالة المصرية قد نشرت فصولا قصاراً للسيد اديب عباسي تناول فيها بعض نواحي الفلسفة عند اخوان الصفا[١] . ولقد ارتكب الكاتب خطأ كبيراً

---

١ — راجع السنة الثانية من الرسالة ، الاعداد ٢٦، ٣٥، ٤٠

حينما اعتمد على المستشرقين فاخطأ حيث اخطأوا. ولا ريب في انه كان يقرأ مقاطع منفردة ثم يكتب مقالات قصاراً. ولقد كانت قراءته فوق ذلك كله يسيرة سطحية، فقد زعم مثلا ان جماعة اخوان الصفا قامت سنة ٣٧٣هـ (الرسالة ٢: ٣٣١ س)، مع ان هذا التاريخ ليس سوى تاريخ السنة التي سئل فيها ابو حيان التوحيدي عن اخوان الصفا، وذلك بعد ان اشتهر امرهم وبعد ان كتبوا شيئا من رسائلهم.

ومن اخطاء السيد اديب عباسي التي تدل على هون قراءته للرسائل قوله جازما (الرسالة ٢: ٥٧٥): «ما تقدم لا يدع مجالا للشك في تشيع اخوان الصفا وايمانهم بالامام المنتظر»، مع ان اخوان الصفا أنفسهم يعلنون ان الايمان بالامام المنتظر من الآراء الفاسدة التي لا تليق بهم ولا باخوانهم (٣: ٨٦ و ٤: ٥٨).

*

من اجل هذا كله عزمت على ان اجعل دراستي هذه مبنية على «رسائل اخوان الصفا» فقط، لا اخلط بها كلاما آخر، ولا ابدي رأيا شخصيا الا بقدر، ولا اعمد الى الموازنة والمعارضة الا في المرة بعد المرة، حتى تكون هذه الدراسة «عرضا تحليليا لما جاء في رسائل الجماعة».

ولقد لفت نظري في اثناء الدراسة الاولى ان «الجماعة»، مع حرصهم على التبويب، يذكرون اشياء متماثلة في اماكن مختلفة فجمعت المتفرق ما امكن في اماكن واحدة. ولما عدت الى انشاء هذه الدراسة تبين لي تفاصيل جديدة، واحببت ان لو اعود فاكتب الدراسة كلها من جديد. ولكن الجرأة والجلد خانا ني، فان عمل البطاقات لمواد هذه الدراسة اقتضاني عاما كاملا، بعد قراءات متفرقة كثيرة. اما الانشاء والاعداد للطبع فما زلت اعمل فيهما منذ سبعة اشهر او تزيد، حتى مللت البحث وعزمت على تقديم هذه الدراسة للطبع على الشكل الذي يراه القارىء. وساحاول حينما يتاح لي اعادة الطبع، ان شاء الله، ان اضم بعض الآراء الثانوية المتفرقة، وان اوسع بعض الفصول، وان ازيد الاستشهاد. وربما غيرت بعض الترتيب ايضا، واسبغت على الاسلوب ديباجة ألين واحلى.

*

وكذلك يجدر بنا ان نلاحظ ان طبعة رسائل اخوان الصفا كثيرة الاخطاء المطبعية بالتصحيف (تبديل اماكن الحروف) وبالتنقيط . ثم ان المعنى في كثير من المواضع لا يستقيم ، اذ قد سقط منها كلمة او اكثر من كلمة . وهناك كلمات يظهر انها ليست في مواضعها ، او يظهر انها زائدة ولم تكن في الاصل . ومما يزيد مشاكل دارس « الرسائل » ان لغة اصحابها ركيكة احياناً ، فلا يدري الدارس بعدئذ أيردّ غموضَ المعنى الى ضعف اللغة او ينسبه الى خطأ مطبعي ؟

ع . ف

٢٥ صفر ١٣٦٤
٩ شباط ١٩٤٥

المصادر والمرجع

رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا ، اربعة اجزاء ، عني بتصحيحها خير الدين الزركلي ، نشرتها المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨ م .

الحيوان والانسان ، وهي خاتمة وزبدة رسائل اخوان الصفا ، مطبعة الترقي ، مصر ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م .

الرسالة الجامعة المنسوبة للحكيم المجريطي ، جزءان ، عني بنشرها وتحقيقها جميل صليبا ، نشرها المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

رسالة جامعة الجامعة والزبدة من رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء عليهم السلام ، مخطوط نقل عن نسخة محفوظة لدي الاستاذ عارف تامر من بلدة سلمية مكتوبة بخط الامير حسن بن الامير عمر من بلدة القدموس — سورية سنة ١٢٣٩ هـ .

المقابسات لابي حيّان التوحيدي .

إخبار العلماء باخبار الحكماء لجمال الدين القفطي ، ليبيسك ١٣٢٠هـ — ١٩٠٣م.

مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الادبية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٠٠ .

De Boer (T. J), History of Philosophy in Islam, London 1933

تاريخ الفلسفة في الاسلام ، تأليف ت. ي. ده بور ، نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م.

O'Leary (De Lacy), Arabic Thought and its Place in History, London 1939

Brockelmann (Carl), Geschichte der arabischen Literatur, 5 Baende, Leiden 1937 f.

Encyclopaedia of Islam.

Encyclopaedia of of Religion and Ethics.

جماعة اخوان الصفا ، لعبد اللطيف الطيباوي ، بيروت ١٩٣١ .

Awa (Adel) L'esprit critique des « Frères de la Pureté » ,BEYROUTH 1948.

تمهيد

جماعة اخوان الصفا ورسائلهم

ميزاتهم الفكرية وخصائصهم الادبية

١ - جماعتهم

لعل الاشارة التاريخيـــة الوحيدة المتعلقة باخوان الصفا ما ذكره ابو حيان التوحيدي حينما قال[١] : سألني وزير صمصام الدولة في حدود سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣م).. عن زيد بن رفاعة ... ومذهبه » . فقال يومذاك ابو حيان - وكان يعرف زيد بن رفاعة ويعرف اصحابه على ما يبدو -: « لا ينسب الى شيء ولا يعرف له حال... اذ تكلم في كل شيء ... وقـد اقام بالبصرة زماناً طويلا ، وصادق بها جماعة[٢] لاصناف العلم وانواع الصناعة ، منهم ابو سليمان محمد بن معشر البُستي - ويعرف بالمقدسي - وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني ، والعَوفي وغيرهم ، وصحبهم وخدمهم . وكانت هذه العصابة قـد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله . وذلك انهم قالوا ان الشريعة قـــد دنسّت بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلهـــا وتطهيرها الا بالفلسفة ، لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية... « وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة علميها وعمليهـــا وسموها « رسائل اخوان الصفا » وكتموا فيها اسماءهم وبثوها في الوراقين ووهبوها للناس ».

---

١ — المقابسات ، ص ٤٥ .

٢ — ينقص هنا كما يبدو كلمة او اكثر من كلمة لكي يستقيم التركيب نحو «محبين» وما اشبه.

ثم ان جميع ما وصلنا عن اخوان الصفا من الاشارات والتعليقات لا يخرج في جوهره عما ذكره ابو حيان . وبعد ان قلّبت النظر في المصادر والمراجع انقلبت الى رسائلهم ، وحاولت ان استخرج منها جميع ما يتعلق بهم مما قدرت على استخراجه .

اصلهم :

يزعم اخوان الصفا ان « جماعتهم » ترجع الى ايام الرسول . قالوا (راجع ٤ : ٨٥ و ٤ : ٣٠٧) — مع اضطراب في السياق :

«ومن قبله ما انال أحق الناس بما قاسى أولاهم بالامر من بعده ، ثم من بعد غيبة صاحب الشريعة قتل من بعده من أجلّة اصحابه المساعدين له في اقامة الناموس معه مثل صدّيقه وفاروقة وذي النورين ، وما تواتر له على اهله واقاربه من المصائب ، فصار ذلك سبباً لاختفاء اخوان الصفا وانقطاع دولة خلان الوفا الى ان يأذن الله بقيام اولهم وثانيهم وثالثهم في الاوقات التي ينبغي لهم القيام فيها ... »

فاخوان الصفا اذن يزعمون انهم من نسل المسلمين الاولين ، وانهم انما كشفوا عن انفسهم — او أرادوا ان يكشفوا عن انفسهم — في القرن الهجري الرابع (العاشر الميلادي) .

مكانهم وزمانهم :

يتلخص من الاشارات التاريخية ان « جماعة اخوان الصفا » نشأوا في العراق ، ولعلهم نشأوا في البصرة . الا ان ذلك كله من باب الظن لا من باب اليقين . واما الزمن الذي نشأوا فيه فلا يمكن تحديده البتة . اننا قد عرفنا شيئاً من امرهم في القرن الهجري الرابع ، ولكن من الممكن ان يكونوا قد نشأوا قبل ذلك بزمن طويل . وجدير بالذكر ان بعض الدارسين احب ان يستخرج تاريخ نشأة جماعة اخوان الصفا من رسائلهم بالاستناد الى اشعار مشهورة وردت فيها كأبيات لابن الرومي (ت ٢٨٣هـ ، ٨٩٩ م) وابيات لابي الفتح البستي (ت نحو ٤٠٠هـ، ١٠٠٩م). الا ان ذلك قد يدل على تاريخ كتابة الرسائل ، ولكن لا صلة له البتة بتاريخ نشأة الجماعة . اضف الى ذلك كله ان هذه الرسائل ليست « وحدة تأليفية » وان كانت

« وحدة فكرية »، ولا سيما اذا علمنا أنهم ألفوا رسائلهم ليقرأها الذين لا يستطيعون حضور مجالسهم (٤ : ٢٢١) .

اسمهم :

وكذلك دار نفر من الدارسين حول اشتقاق اسم « الجماعة » واقترحوا نظريات غريبة . ومع العلم بان التركيب الاضافي « اخوان الصفا » قد ورد اكثر من مرة في الشعر الجاهلي ، فان « جماعة اخوان الصفا » اختاروا اسمهم بلا ريب من باب الحمامة المطوقة في كتاب كليلة ودمنة (١) اذ يقولون : « واعلم يا اخي ، ايدك الله وايانا بروح منه ، انه ينبغي لك ان تتيقن بانك لا تقدر ان تنجو وحدك مما وقعت فيه من محنة هذه الدنيا ... لانك محتاج في نجاتك وتخلصك ... الى معاونة اخوان لك نصحاء ... فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة وكيف نجت من الشبكة ، لتعلم حقيقة ما قلنا » .

ثم هم يذكرون بصراحة ان اسمهم مأخوذ من صفوة الاخوة (٤ : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٢٩ الخ) .

صفتهم

يصف اخوان الصفا انفسهم في مواضع مختلفة من رسائلهم ، فهم اخوان اصدقاء اصفياء وادّون (او متوددون واوداء) محبون علماء اخيار فضلاء ، وكرام (او كرماء) حريصون متعاونون ، واحسن الناس معاملة (٢) وقد يفسرون احياناً هذه الصفات ، فترامم اذا ارادوا دعوة احد الى انفسهم خاطبوه بقولهم (٤ : ١٨٧) : فهلمّ بنا ايها الاخ ... ان نقتدي بسنة الشريعة ونجتمع مع اخوان لك فضلاء واصدقاء كرام ، ونتعاون على ذلك بمحض النصيحة في الضمير وصدق المعاملة في السر والاعلان والف المحبة في القلوب ... »

واخوان الصفا يؤكدون لمن يدعونه اليهم انهم يريدونه — في الدرجة الاولى —

(١) رسائل ١ : ٦٢ — ٦٣ راجع الرسالة الجامعة ١ : ١٢٨

(٢) راجع ١ : ١١٣ ، ٢ : ١٩ ، ٣ : ٢١ ، ٩٢ ، ٤ : ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢١٨ ، ٢٤١

للصداقة الخالصة وللحياة المثلى فيقولون له : « ... فهلم الى صحبة اخوان لك فضلاء واصدقاء كرام ، علومهم حكمية وآدابهم نبوية وسيرتهم ملكية ولذاتهم روحانية وهممهم آلهية . واترك صحبة اخوان الشياطين الذين لا يريدونك الا لجر منفعة الاجساد او لدفع المضرة عنها . وكن يا اخي من المؤمنين الذين بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

فالصداقة الخالصة اذن ابرز صفات ، اخوان الصفا، حتى ذكروا « ان صداقتهم قرابة رحم » (٤ : ١١١) ، وحتى ان احدهم ليضحي بنفسه في سبيل اخوانه (راجع ٤ : ٨٧ - ٩١ ، ٩٣) .

غايتهم :

ولا ريب في ان لاخوان الصفا من ذلك غايات معينة ، ولكنهم لا يصرحون بشيء منها . الا انهم كثيراً ما يذكرون اغراضاً نبيلة خالصة مثلى ، ويطوون غرضهم الحقيقي او يشيرون اليه من طرف خفي ، فهم يحثونك مثلاً (٤ : ٢٣٦) « على ان تجتهد ... فلعل نفسك تتنبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتحيا بروح المعارف العقلية ... » ثم يقولون لك ان صناعتهم معرفة الخير والشر (٣ : ٢١٩) وان غرضهم صلاح الدين والدنيا (٤ : ٤١٨ ، ٤١٩) ، والاقتداء بالحكماء (٣ : ٣٣٨ - ٣٣٩) وبالفيثاغوريين على الاخص (١) وانما مذهبهم النظر في جميع العلوم الطبيعية والرياضية والالهية (٢) ، وانهم لا يعادون علماً من العلوم ولا مذهباً من المذاهب (٤ : ٢١٦) . ولذلك يريدون ان يعرف اخوانهم (المنضمون اليهم) جميع العلوم (٤ : ٣٩٦)

على انهم عند كل مناسبة وفي كل رسالة ينبهونه على ان وراء ما يذكرون غرضاً غامضاً ، وان كل ما ذكروه لك انما هو رموز واشارات ، وان الافصاح عن مراميهم متعذر : « فتأمل هذا الكلام فانه من الاسرار العجيبة والرموز

---

(١) رسائله ٣ : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، الرسالة الجامعة ٢ : ٣ ، ٢٣ — ٢٤ ، راجع ١ : ٢٩

(٢) راجع ٢ : ١٥ ، ٤ : ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٣٠ الخ .

الدقيقة ، وفيه غرض غامض ... وينبغي لك ان تراجع نفسك النائمة الساهية ، فانتبه من غفلتك وانعم النظر في جميع ما قلناه وافهم جميع ما بيناه من الاشارات والرموزات . ولا تظن بنا ظن السوء لان افشاء سر الربوبية كفر » (٣ : ١٣٢)

مذهبهم :

يرى نفر من الدارسين ان اخوان الصفا كانوا « شيعة » ثم يزيدون فيقولون: كانوا شيعة باطنية او اسماعيلية؟ وربما وازنوا بينهم وبين القرامطة. على ان الدراسة الدقيقة لرسائلهم تنجلي عن فكرة غريبة جداً - بالاضافة الينا. لقد كان اخوان الصفا « اصحاب مذهب فلسفي روحاني »، ولم يكن لهم صلة بالدين — اذا قسنا الدين بالمقاييس التي نتداولها — . ومع ان جماعة اخوان الصفا لم يكونوا قط يهوداً ولا نصاري ولا صابئة ولا مجوساً ... فانهم ايضاً لم يكونوا شيعة كالشريف الرضي ، ولا من اهل السنة كأبي حامد الغزالي ، ولا مسلمين كالامام الشيخ محمد عبده .

وأرى ان جميع الدارسين قد خدعوا باسماء وردت في رسائل اخوان الصفا نحو: محمد وعلي والحسين وكربلاء وآل البيت ونبينا والقرآن ، فاعتقدوا ان اخوان الصفا « متدينون بالاسلام » وانهم فوق ذلك « متمذهبون بالمذهب الشيعي » . ولكن ما دام اخوان الصفا يؤكدون في كل مناسبة انهم كثيرو الاستعمال للرموز وان آدم مثلا والجنة والنار والصراط والميزان كلها رموز ، فما المانع من ان تكون هذه الكلمات (محمد وعلي والقرآن) رموزاً ايضاً ؟ اجل ، انها بلا شك رموز فقط ، فاخوان الصفا لا يفهمون من « اهل بيت نبينا » ما يفهمه المسلمون من السنة والشيعة معاً . اما « الله » عندهم فمخالف لجميع ما تعتقده الديانات التاريخية المعروفة.

فاذا كان ذلك كذلك فلماذا « اعتمد اخوان الصفا هذا السياق الديني الاسلامي في رسائلهم ؟ »

لذلك اسباب ، منها انهم ارادوا ان يتخذوا الدين « تقيّة » كيلا يرموا بالكفر والالحاد . ومنها ان كل دعاية الى مذهب جديد تحتاج الى تظاهر بالمذهب السائد :

بالمذهب الذي يريد اصحاب الدعوة الجديدة انتزاع اتباعهم منه ، حتى لو كان ذلك مخالفا لمبدأهم ، الى حين . ومنها ان الشعب لا يفهم الآراء الجديدة الا اذا اتته باسماء قديمة عرفها وألفها فانتسجت في تربيته التاريخية . ان التركيب الوصفي « القوى الفاعلة » غريب جداً على الجمهور ، ولكن « الملائكة » كلمة مألوفة عنده ولها في نفسه قدسها واحترامها ، وان كان لا يفقه لها معنى . من اجل ذلك نفهم لماذا كان اخوان الصفا يسمون « القوى الفاعلة » ملائكة (٢ : ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٣٠ الخ) . اما اختيارهم الاسلام وتفضيله على سائر الاديان فليس لانهم كانوا « مسلمين » في كل شيء ، بل لأن الاسلام جاء « بشريعة » كانت على نقصها في رأيهم اتمّ من سائر الشرائع التاريخية المعروفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية وما اليها .

عقيدتهم الدينية :

ليس لاخوان الصفا عقيدة دينية بالمعنى المألوف بيننا ، حتى ان تعريف « الدين » عندهم مخالف لما جرت به عادة رجال الاديان كلهم . ان اخوان الصفا لا يعادون علماً ولا مذهبا (٤ : ٢١٦) اذ يعتقدون ان في كل مذهب (ديني) شيئا جميلا يمكن ان يأخذوه فيجعلوه جزءاً من عقيدتهم . وكذلك هناك في كل مذهب اموراً باطلة رديئة — فيما يقولون — يجب على العاقل ان يتجنبها . فاذا اخذ المرء بظاهر عقيدتهم في اول الامر كان « متميزاً » من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والذين اشركوا ... (٤ : ١٢٩) . وهنالك اعتقادات رديئة مؤلمة لنفوس معتقديها معذبة لهم « كرأي من رأى واعتقد ان للعالم صانعين احدهما خيّر فاضل والآخر شرير رذل (٤ : ٥٥ ، ٣٤٣) . ومن تلك المذاهب الرديئة ايضا مذهب الدهرية الذين انكروا الصانع الحكيم لهذا العالم وزعموا ان العالم قديم (٤ : ٤٢٥ — ٤٢٦) .

« وايضا من الآراء الفاسدة والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها رأي من يرى ان بارئه والهه روح القدس الذي قتله اليهود وصلبت ناسوته ، وذهب لاهوته لما رأى ما نزل بناسوته من العذاب فتركه مخذولا (٤ : ٥٧) » .

فيتضح مما تقدم ان « جماعة اخوان الصفاء » لم يكونوا مجوسا ولا صابئة ولا

يهوداً ولا نصارى ولا مانوية ولا دهرية ، فهل كانوا مسلمين ؟

لقد « كان » اخوان الصفا مسلمين ، لانهم نشأوا نشأة اسلامية ثم بنوا فلسفتهم على اساس اسلامي ، واعتقدوا ان الاسلام خير الاديان وان محمداً خير الرسل . ويجب ان نعتقد وراء كل شك ان « عمدة العقيدة » عند اخوان الصفا اسلامية ، ولكن تفاصيل عقيدتهم تجعلهم مختلفين من المسلمين اختلافا اساسيا . ويكفي ان نشير هنا فقط الى اعتقادهم ان « الشريعة المحمدية » ناقصة ، والى قولهم ان من يعرف الله حق معرفته غير محتاج الى الرسل (٤ : ٢١) ، والى اعتقادهم ان العبادة الحقيقية يجب ان تكون تسبيحا وتقديسا فقط لا فروضا ، والى اعتقادهم ان الشرائع من وضع البشر لا بوحي من الله ، الى غير ذلك مما ستعرفه في موضعه في فصل الالهيات .

وظن بعض الدارسين ان « جماعة اخوان الصفا » كانوا من الشيعة الامامية ، وزعم بعضهم الآخر انهم كانوا من الشيعة الاسماعيلية . ولكن اذا علمت ان اخوان الصفا هاجموا عقيدة « الامامة »، وهي الركن الاساسي في مذهب الشيعة ، ادركت انهم لم يكونوا شيعة قط ، فقد عدوا في الآراء الفاسدة « من يعتقد ان امامه مختف من خوف مخالفيه » (٣ : ٨٦) . ثم هم يفصلون ذلك فيقولون (٤ : ٥٨) : « .. وهكذا ايضاً حكم من يرى ويعتقد ان الامام الفاضل الهادي مختف لا يظهر من خوف مخالفيه . واعلم ان صاحب هذا الرأي يبقى طول عمره منتظراً لخروج امامه متمنياً لمجيئه مستعجلا لظهوره ، ثم يفنى عمره ويموت بحسرة وغصة لا يرى امامه ... ثم اعلم ان امثال هذه الآراء الفاسدة ... كثيرة ». فجماعة اخوان الصفا اذن لا يمكن ان يكونوا شيعة ما داموا يهدمون «عقيدة الامامة» على هذا الوجه .

وعرفت انا ثلاثة نفر اهتموا برسائل اخوان الصفا لعظم ما فيها من الشبه بالمذهب الدرزي . فمنهم من اكد انهم كانوا دروزاً ، ومنهم من كان اكثر اعتدالا فقال انهم « نُذُر » لمذهب التوحيد الذي اشتهر خطأ بالمذهب الدرزي . فاذا علمنا ان « بدء تأليف رسائل اخوان الصفا » يجب ان يقع في اوائل القرن الهجري الرابع ، مع قيام الدولة الفاطمية في المغرب (٢٩٦ = ٩٠٩)، ثم ان «الجماعة» كانوا معروفين

بمذهبهم وبرسائلهم قبل اختفاء الحاكم بامرالله (٤١١ هـ = ١٠٢١ م) بنحو جيل من الدهر او يزيد ، وان كثيراً مما يمكن ان نصل اليه من حقائق المذهب الدرزي مطابقة اشد المطابقة لبعض ما ورد في رسائل اخوان الصفا ، لم تخف علينا الصلة الوثيقة بين الدروز وبين اخوان الصفا . ومع العلم اليقين بان اخوان الصفا لم يكونوا دروزاً ، فان المذهب الدرزي أيضاً قد بني في كثير من أسسه على عقيدة اخوان الصفا .

حقيقة امرهم :

والجلي البيّن من مراجعة الرسائل بانعام نظر ان اخوان الصفا اصحاب «مذهب فلسفي اخلاقي». ولقد كان مذهبهم النظر في جميع العلوم (٤:٤١٣، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣٠) والاشتراك في العلم والمال (٤:١١٦ - ١١٧) والحياة في « مدينة روحانية » (٢ : ١٩ ، ٤ : ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٤١ الخ) على الصداقة والنصيحة وحسن المعاملة . ومذهبهم « هو النظر في جميع الموجودات والبحث عن مبادئها وعن علة وجدانها وعن مراتب نظامهـــا والكشف عن كيفية ارتباط معلولاتها (١ : ١١٠) » . ثم « ان عبادة الله ليس كلها صلاة وصوما ، بل عمـــارة الدين والدنيا (٢ : ١٠٦) . والعبادة الشرعية من الصوم والصلاة والحج ليست مقصودة عندهم لذاتها بل هي اشارات الى غايات قصوى (٢ : ١٢١) . والناجي الحقيقي في الآخرة من كان جامعاً لفضائل الامم والاديان كلها (٢ : ٣٦١) ، والنجاة لا تكون بالعبادة والاخلاق فقط بل بالاحاطة بالعلوم والمعارف ايضاً (٢ : ١٥٦ - ١٥٧ وغيرها) .

وهكذا نرى ان اخوان الصفا جماعة من المتفلسفة الاخلاقيين الذين يرون ان الدين الحقيقي انما هو الصداقة الصحيحة والمعاملة الحسنة والاحاطة بالعلوم وتنزيه النفس واتباع العقل .

هل كان لهم مذهب سياسي ؟

وكان مما لفت نظر الباحثين ان اخوان الصفا كانوا يسترون وراء مذهبهم

الفلسفي دعوة سياسية. ولما ظن اولئك الباحثون ان « الاخوان » كانوا من الشيعة ظنوا انهم يريدون السعي لقلب الدولة العباسية . فما مبلغ ذلك من الصواب ؟

تكلم اخوان الصفا على اعمار الدول وتقلبها فقالوا (١ : ١٣٠ - ١٣١): «ان كل دولة لها وقت منه تبتدىء وغاية اليها ترتقي وحد اليه تنتهي ، فاذا بلغت الى اقصى غاياتها ومنتهى نهاياتها تسارع اليها الانحطاط والنقصان وبدا في اهلها الشؤم والخذلان ، واستأنف في الآخرين من القوة والنشاط (١) والظهور والانبساط... وكلما تناهى احدهما في الزيادة ظهرت قوته وكثرت افعاله في العالم ، وخفيت قوة ضده وقلت افعاله . فهكذا حكم الزمان في دولة اهل الخير ودولة اهل الشر ، تارة تكون الدولة والقوة وظهور الافعال في العالم لاهل الخير ، وتارة تكون ...لاهل الشر ... وقد نرى انه قد تناهت دولة اهل الشر وظهرت قوتهم وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان ، وليس بعد الزيادة الا الانحطاط والنقصان . واعلم ، يا اخي ، ان دولة اهل الخير يبدأ اولها من قوم علماء حكماء خيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد ويعقدون بينهم عهداً وميثاقا الا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا ، بل يكونون كرجل واحد في جميع امورهم وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة لا يبتغون سوى وجه الله... فهل لك فى ان ترغب في صحبة اخوان لك نصحاء ... هذه صفتهم ... »

قد يكون في ذلك اشارة - او امنية على الاصح لزوال الدولة العباسية ، ولكن ليس ثمة ذكر صريح لذلك . على ان اخوان الصفا لما ذكروا دولة اهل الخير ووصفوها بصفتهم هم تبين انهم هم انفسهم اهل هذه الدولة وتعين ان دولة اهل الشر انما كانت الامة صاحبة الدين السائد يومذاك - المسلمين !! فهذا المقطع الذي مر بك من قبل لا يشير - فيما ارى - الى ابعد من انتصار دعوتهم الدينية ، لا الى زوال الدولة العباسية .

على ان هنالك اشارة (٤ : ٣٣٧-٣٣٨) الى انهم ارادوا ان يراسلوا رجلا ذا

---

(١) كذا في الاصل — يقصد بالآخرين خصوم الدولة القائمة او اضدادهم .

مكانة لينصبوه على رأس دولة اهل الخير المقبلة لانهم كانوا يعتقدون ، انه لا بد من كائن قريب وحادث عجيب فيه صلاح الدين والدنيا، وهو تجديد ملك في المملكة وانتقال الدولة من امة الى امة » . ولكن يظهر انهم لم يكونوا واثقين من ذلك الرجل الذي وقع عليه اختيارهم . ولا نستطيع نحن ان نجزم باكثر مما ظننا .

٢ - سبيل دعوتهم

يتضح من قراءة الرسائل ان الذين اسسوا « جماعة اخوان الصفا » كانوا افراداً قليلين جداً ، الا انهم جعلوا يدعون الناس « الى الاقتداء بهم والرغبة في صحبتهم » (١ : ١٣١، ٣ : ٢٩٧ ، ٤ : ١٨٧)، ثم اخذوا يدعونهم الى مجالسهم (٣ : ٤١٩، ٤ : ٢٣س، ١٧٩، ٢١٧) . وبمثل ذلك اخذوا يبثون مذهبهم تلميحا وتلويحا او يدعون اليه (٤ : ٨٥ س ، ٩٩ ع الخ).

اما طريقة الدعوة الى مذهبهم فكانت بارعة جداً : بدأوا دعوتهم بان استوثقوا من شخص واحد وايقنوا ان فيه استعداداً لقبول الدعوة فحاوروه وضموه اليهم . ثم اتفقوا كلهم على شخص آخر... ولما كثروا قليلاً انبثوا يضمون اليهم « الاخوان » واحداً واحداً (٤ : ٨٢ - ٨٤). وكانوا اذا توسموا في شخص استعداداً لقبول الدعوة تحينوا الفرصة المناسبة لدعوته ، كأن يقع في ازمة نفسية او تحول فكري او تعطش عقلي ، او ان يتورط يوما ما في انتقاد حال من احوال المذهب فيطبق الداعية ذلك النقد على مذهبه هو (٤ : ٢٠٠ — ٢٠٣) . وهم يستعملون في ذلك كله الرفق واللين ولا يقصدون رجلا الا « على خلوة وفراغ من مجلسه وطيبة (كذا) من نفسه » فيتودد الداعي اليه ويبلغه احترام الاخوان له وشوقهم اليه ، ثم يبدأ بدعوته (٤ : ٢٣٦) . ولاخوان الصفا اساليب مختلفة في مخاطبة اهل الطبقات ودعوتهم ، فخطاب المتفلسفين (٤ : ٢٢٥ - ٢٢٨) غير خطاب الشاكّين المتحيرين ، (٤ : ٢٢٩ — ٢٣٥) وغير مخاطبة العمال والكتاب - موظفي الدولة - (٤ : ٢٣٥ — ٢٣٦) وغير مخاطبة الملوك والسلاطين (٤ : ٢٣٧) وغير مخاطبة اهل العلم الماديين الغافلين عن امر النفس (٤ : ٢٣٨ - ٢٤٢) .

وكان اخوان الصفا يختارون رسلهم ودعاتهم من طبقات مختلفة ، فيرسلون كل رسول للدعوة بين اهل طبقته (٤ : ٢١٤، ٢٣٦) .

اما العثور على اشخاص يتقبلون الدعوة ويكونون مؤتمنين ذوي قيمة في «الجماعة» فكان مسألة معقدة، فلذلك كان الاخوان ينصحون الرسل (الدعاة) بقولهم (٤:١٠٧ وما بعدها) : «وينبغي لاخواننا ، ايدهم الله حيث كانوا في البلاد، اذا اراد احدهم ان يتخذ صديقا مجدداً او اخا مستأنفا ان يعتبر احواله ويتعرف اخباره ويجرب اخلاقه ويسأل عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوة ام لا .. فينبغي لك اذا اردت ان تتخذ صديقا او اخا ان تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والارضين الطيبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد ابناء الدنيا امر التزويج وشرى المماليك والامتعة التي يشترونها. واعلم ان الخطب في اتخاذ الاخوان اجل واعظم خطراً من هذه كلها .. فانظر من تصحب وتعاشر ، ولا تغترّ بظاهر الامور من غير معرفة بواطنها ... »

ويفضل اخوان الصفا ادخال الاحداث في جماعتهم (٤:٣٣٨) لانهم يرون ان « المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة ... لا ينصلحون ، وان صلحوا... فلا يفلحون (٤:١١٤) ». ولذلك يأمر اخوان الصفا كل داعية لهم بقولهم (٤:١١٤ - ١١٥) : عليك بالشباب السالمي الصدور... المبتدئين بالنظر في العلوم المريدين طريق الحق ... غير متعصبين على المذاهب... واعلم ان الله تعالى ما بعث نبيا الا وهو شاب ، ولا اعطى الحكمة احداً الا وهو شاب ... واعلم ان كل نبي بعثه الله فاول من كذبه مشايخ قومه المتعاطون الفلسفة والنظر (في العلوم) والجدل ... »

ولعلهم يلقبون الذين يدعونهم الى مذهبهم « بالاخ الفاضل » (٤.٢٤٣) .

وكانوا يقيمون للداخلين الجدد حفلة ، قالوا (٤:٣٣٨) : « وقد عزمنا في صباح ليلتنا هذه على ادخال بعض احداثنا في دعوتنا واسماعه سر ملائكتنا ... »

ومع ميلي الى ان هذه الجملة تكشف لنا عن طريقة ادخال الاحداث في جماعة اخوان الصفا ، فان فيها ما يثير شكوكي لانهم دسوا هذه الجملة في مقاطع تتناول

عمل الطلاسم والعزائم ومجالس السحر (٤ : ٣٣٧ - ٣٤٠) . الا انني احسب ذلك دهاء منهم وتعمية على القارىء العادي .

فاذا انضم الحَدَث اليهم اطلقوا عليه ، بادي ذي بدء، اسم «متشيع» وخاطبوه بخطبة (اذا كان حاضراً في مكان جماعتهم) او برسالة (اذا كان بعيداً عنهم) ، فيقولون : « قد جمع الله بيننا وبينك ايها الاخ البار الرحيم في اسباب شتى وخصال عدة مما يؤكد المودة بين الاخوان ويجمع شمل الاصدقاء في جميع صلاح الدين والدنيا ... ومما يجمعنا واياك محبة نبينا علية السلام واهل بيت نبيه الطاهرين وولاية امير المؤمنين علي بن ابي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم اجمعين . ومما يجمعنا واياك الاخلاق الجميلة والافعال الحميدة وحرية النفس وصفاء جوهرها ... (٤ : ٢٤٢) » .

ان هذا المتشيع قد «مال» الى اخوان الصفا ، ولكنه لم يصبح في عدادهم بعد، لان « الجماعة » اذا اتخذوا في عدادهم اخا جديداً لم يبثوا اليه أسرارهم وآراءهم الا قليلا وفي مراحل متطاولة . يدلك على هذا كله قولهم (٤:١٩٧) : « ان شيعتنا واخواننا المتفرقين في البلاد ، وسائر من ينسب الينا (انما) هم في احوال مختلفة ، ومراتبهم على منازل ثلاث : فطائفة منهم خواص وعقلاء متدينون اخيار فضلاء ، وطائفة منهم اغبياء اشرار اردياء ، وطائفة بين ذلك متوسطة ... »

ولاخوان الصفاء اسلوب بارع للاحتفاظ باشياعهم وتثبيتهم على مذهبهم . انهم يعتقدون ان صلاح امر الدنيا ضروري جداً لتفهم المذاهب الروحية ، فاذا كان المستجيب اليهم فقيراً او مكدوداً او مظلوماً بذلوا له من المال ما يخفف عنه اعباء الحياة ، ومن المعونة ما يرفع عنه كل ظلم (راجع ٤: ٢١٤-٢١٦) مما يدل على صدق قولهم حينما ذكروا ان بعض المستجيبين لهم كانوا من ابناء الملوك والامراء والوزراء والعمال (الولاة على جمع الضرائب) والكتاب (الموظفين في الدولة) ، وحينما ذكروا ايضاً ان من مذهبهم الاشتراك في المال ... (٤ : ٢١٤) .

ويظهر بجلاء ان دعوة اخوان الصفاء انتشرت في بلاد كثيرة وفي طبقات مختلفة ، مما يدل عليه قولهم: «... انه ينبغي لاخواننا حيث كانوا من البلاد ... او ان لنا

اخوانا ... متفرقين في البلاد ... (٤: ١٥٠، ١٢٨، ١٩٧، ١٩٤، ٢٣٥ الخ) ».

٣ — مجالسهم ومراتبهم

وكان لاخوان الصفا « مجالس » يعقدونها في اوقات معينة للبحث والمحاورة، وكان لهذه المجالس نظم وقواعد، قالوا (٤: ١٠٥): « ينبغي لاخواننا ايدهم الله حيث كانوا من البلاد ان يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه في اوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم، يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون فيه اسرارهم. وينبغي ان تكون مذاكرتهم اكثرها في علم النفس، والحس والمحسوس، والعقل والمعقول، والنظر والبحث عن اسرار الكتب الالهية والتنزيلات النبوية ومعاني ما تضمنتها موضوعات الشريعة. وينبغي ايضاً ان يتذاكروا العلوم والرياضيات الاربعة اعني العدد والهندسة والتنجيم والتأليف (تأليف الانغام؟). واما اكثر عنايتهم وقصدهم فينبغي ان يكون البحث عن العلوم الالهية التي هي الغرض الاقصى ». وكان اجتماعهم بلا ريب سراً: لهم مجلس يجتمعون فيه من الخلوات ويتذاكرون العلوم ويتحاورون في الاسرار ويبحثون عن خفيات الامور (٤: ١٣٧) ».

ويلوح لي من حث اخوان الصفا في بعض رسائلهم (١: ١٧٤ — ١٨٠) على النظر في الموسيقى والتفطن لقوانينها واهميتها، ان مجالسهم لم تكن للبحث العلمي فقط، بل كان بعضها — ربما في مجالسهم لخواص اخوانهم — للهو المثقف من سماع الالحان والشرب القليل المفرح (٣: ٣٣).

وهكذا كان لجماعة اخوان الصفا « مدينة (دولة) روحانية » ليس لها حدود جغرافية ولا تخوم تنتهي عند بلاد معينة، بل كان لها « صبغة روحية فلسفية » تجمع بين الاخوان حيث كانوا من البلاد المختلفة، وتشد صلة بعضهم ببعض على بعد الدار احياناً واختلاف السن واللسان. ولا شك في ان هذه الدولة كانت للرجال فقط

دون النساء (١) .

*

اما المراتب في نظام « جماعة اخون » فكانت ايضا متفاوتة . لقد بنوا هذه المراتب على استعداد نفوس « الاخوان » لقبول المعارف وتهذب النفس . ولقد رأوا بشيء كبير من الحق ان تدرّج القوى العقلية وقوى النفس يساير السن . ولذلك جعلوا الاخوان اربعة طبقات (٤ : ١١٩ — ١٢٠) :

(١) الاخوان الابرار الرحماء — وهم الذين اتموا خمس عشرة سنه من العمر، فتنبهت فيهم « القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة »، وهم يتميزون بصفاء جوهر النفس وجودة القبول (للعلوم والصنائع) وسرعة التصور . اما مرتبتهم فتقابل ارباب ذوي الصنايع في المدينة (الدولة) .

(٢) الاخوان الاخيار الفضلاء — وهم الذين بلغوا ثلاثين سنة ، وقد تنبهت فيهم « القوه الحكمية الواردة على القوة العاقلة » . وميزتهم مراعاة الاخوان وسخاء النفس واعطاء الفيض والشفقة والرحمة والتحنن على الاخوان . اما مرتبتهم (في الجماعة) فمرتبة الرؤساء ذوي السياسات .

(٣) الاخوان الفضلاء الكرام — وهم الذين بلغوا اشدهم وبلغوا اربعين سنة ، فتنبهت فيهم القوة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد باربعين سنة ... وهي تقابل مرتبة الملوك ذوي السلطان والامر والنهي والنصر والقيـــام بدفع العناد والخلاف ... بالرفق واللطف والمداراة في اصلاحه » .

(٤) لم ينعت اخوان الصفا هذه الطبقة ، ولكنها طبقة الاخوان الذين بلغوا خمسين سنة ، والوصول اليها هو المقصود من جميـــع رياضات النفس ، وفيها تتنبه « القوة الملكية الواردة بعد سن الخمسين من مولد الجسد . وفي هـذه المرتبة تبلغ النفس من القوة منزلة تشاهد فيـه الحق عيانا وتتصل بملكوت السموات وتدرك

(١) راجع الكلام على المرأة في باب الاجتماع .

حقائق القيامة والبعث والحساب ومجاورة الرحمن » .

ومع اعتقاد اخوان الصفا ، ان العبادة الشرعية من صلاة وصوم وحج ضرورية على ما مر بنا، فان اشد اهتمامهم يتناول الناحية الخلقية الفلسفية. ولقد وضعوا لانفسهم دستوراً – على لسان بعض ملوك الهند ينصح ولده – ليس فيها ذكر للطاعة الشرعية بل كلها خصال خلقية فلسفية اجتماعية عددها عشرة، هي (٢: ١٧٨- ١٧٩) :

الاقرار بالتوحيد والابتهال الى الله بالدعاء ...

الاقرار برسله وتصديقهم والقبول منهم .

التصديق بالكتب المنزلة من عنده عليهم .

حفظ الناموس وسياسة الناس .

التواضع لله وترك الفخر .

ترك الظلم والجور ...

ترك مخالطة النساء والاصغاء اليهن ...

ترك شرب المسكر فانه عدو العقل

الكرم والسخاء وسماحة النفس والتفضل على سائر الناس ، صديق ام عدو .

صدق القول واداء الامانة الى البر والفاجر .

وهناك عشر خصال أخَر لا تخرج عن هذه في اساسها ، ثم عشر خصال غيرها لصلاح الملك (٣: ١٧٩ – ١٨٠) .

٤ – رسائلهم : تأليفها وخصائصها

لجماعة اخوان الصفا رسائل مختلفة (٢: ٧١س)، وكذلك لهم اربعة كتب مشهورة يقرأها الناس ولكن لا يفهمونها . من اجل ذلك تراهم ينصحون الناس بان يأتوا الى مجلسهم لقراءتها عليهم وفهمها (٤ ٢١٦-٢١٧) ويلوح لنا ان هذه الكتب هي غير الرسائل التي نعرفها نحن اليوم ، لان هذه كتبت ليقرأها الناس وحدهم . وكذلك لهم مراسلات بينهم وبين رسلهم (دعاتهم) او بينهم وبين بعض المستجيبين لدعوتهم . وكذلك لهم ردود على اسئلة وجهت اليهم . وقد نرى بعض هذه

المراسلات والردود في الرسائل التي بين ايدينا (٣:١٤٩ن، ٤:٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤٢ الخ)
على ان غايتنا من هذه الدراسة ان ندرس الكتاب المشهور بيننا « برسائل اخوان الصفا » .

اما السبب الذي من اجله كتب اخوان الصفا رسائلهم المشهورة فهو ان اقواما لم يكونوا يستطيعون - لبعدهم عن مركز الدعوة - ان يحضروا مجالس الاخوان، فكتب الاخوان لهم هذه الرسائل (٤:٢٢١س) اما غايتها العامة فظاهر في قولهم (٤:٤١٣) .

« واكثر اغراضنا في ما وضعناه من رسائلنا كلها توحيد الله عز اسمه وتنزيهه عما نسبه اليه الجاهلون عن معرفته الحائدون عن محجته ..» وهم يقصدون بالجاهلين « المشبهة والاشعرية » الذين يصفون الله بصفات البشر والذين ينسبون الى الدين اعمالا من الخرافات .. ولكي يصلوا هم الى غايتهم من تنزيه الله (عن هذه الصفات الانسانية) لجاوا الى انواع العلوم والمعارف يستعرضونها في رسائلهم ، حتى ظن قوم ان غايتهم بسط العلوم . فرد اخوان الصفا ذلك بقولهم (٤:٤١٣ع): «ولعل كثيراً ممن يقف على رسائلنا هذه يظن ان مرادنا في وضعها هو تعليم علم النجوم . ولعمري ان ذلك احد اغراضنا فيها لاننا نحب لاخواننا ، ايدهم الله ، ان يقفوا على جميع العلوم ويتعلموها ولا يجهلوها ، اذ كان مذهبهم هو النظر في جميع العلوم واستقراؤها كلها والاحاطة بمعرفة ظواهرها وبواطنها » .

اما تنزيه الله فلا يمكن الا بعد ان يحيط الانسان بالعلوم والمعارف حسب حاجته وطاقته ، ولذلك قالوا (٤:٤١٨) :«... انا نحب لاخواننا ... ما يكون به صلاح شأنهم واستقامة امورهم في دينهم ودنياهم . لذلك .. بسطنا لهم هذا الكتاب واوردنا فيه معرفة مبادىء الاعمال والصنائع العلمية والعملية .. ولم نقتصر على علم واحد وصناعة واحدة لاننا علمنا اختلاف طبائع الناس وجواهرهم وما يشتاق كل واحد منهم اليه .. » على انهم جمعوا في هذه الرسائل ايضا غرائب العلوم وطرائف الآداب وتهذيب النفس واصلاح الاخلاق (١:١٩، ٤:٣١، ٣٢٠ الخ).
فالغاية الاساسية اذن هي بسط جميع العلوم والمعارف والصنائع قدر الطاقة لاعتقاد

«الاخوان» ان الانسان لا ينجو بالعبادة والاخلاق فقط بل بالعلم ايضا ، وبالعلم وحده على الاصح . ولما كانت رسائلهم مشتملة على هذه العلوم التي تبلغ بالانسان مرتبة تنزيه الله وتساعده على النجاة في الاخرة وجب الا نستغرب اذا علمنا انهم كانوا يسمونها « قرآنا » (٤:١٢١س، ١٨٠، ٢٢٥ الخ)

تأليفها :

وما دام اخوان الصفا قد كتموا اسماءهم فلا سبيل الى البحث عمن الف الرسائل . ولكن « النقد الداخلي » يدل على ان رسائلهم ليست وحدة تأليفية لا من حيث الزمن ولا من حيث الاشخاص . فالرسائل لم تظهر مرة واحدة مجموعة، بل كانت تكتب « رسائل مفردة » وتوزع على « المتشيعين ». ونلاحظ ان كلامهم على مدى اتساع دعوتهم لم يردقط في الاقسام الاولى بل في القسم الاخير ، مما يدل على ان « الاخوان » بدأوا بالتأليف منذ شعروا بالحاجة الى نشر الدعوة – لا منذ تألفت جماعتهم – وكذلك يبدو من حديث ابي حيان ان «قسما» من الرسائل كان معروفا مشهوراً قبل ٣٧٣هـ . وكذلك يبدو من بعض الاشعار – التي يجب ان تدرس بالتفصيل – ان التأليف استمر الى ما بعد عام ٤٠٠ للهجرة . ثم ان مهاجمتهم للاشعرية والمشبهة تدل على ان التأليف استمر كذلك في القرن الخامس الهجري كله. ويبدو لي خاصة ان هنالك اقساما زيدت على الاصل في زمن اكثر تأخراً .

ومع ان اتجاه الرسائل واحد ، فان المؤلف على ما اعتقد ليس واحداً ، بل كان هنالك جماعة يشتغلون في التأليف ولكن على اساس واحد . اما موانع القول بالمؤلف الواحد فهي :

(أ) الاحاطة بكثير من العلوم وبدقائقها – من السهل على انسان واحد ان يكتب في موضوعات مختلفة ، ولكن من الصعب عليه ان يثبت التفاصيل الدقيقة، وخصوصا اذا كانت تلك الموضوعات متنافرة كالجغرافية والموسيقي والالهيات والسحر والمنطق وعلم الحيوان . ثم اننا لو قبلنا ان يكون « الجماعة » قد استعانوا بالكتب المؤلفة في هذه الموضوعات لاستحال ايضاً ان يكون الكاتب واحداً، فان النقل من

هذه الكتب يحتاج ايضاً الى انواع من البراعة يصعب ان توجد في انسان واحد .

ب) صيغة المتكلم - يتكلم مؤلفو رسائل اخوان الصفا بصيغة جماعة المتكلمين نحو (٣٠٢) : « اعلم ايها الاخ ايدك الله وايانا بروح منه ، انّا لما فرغنا من الرسائل الرياضية بجملتها حسب ما وعدنا في صدر هذا الكتاب ، واستوفينا الكلام في ذلك حسب ما يليق بنا ، فعلينا ان نشتغل ... الخ » مما نراه في كل رسالة . وهنالك قرائن أخر تدل على ان المادة المجموعة في رسائل اخوان الصفا انما هي « مجهود اجماعي » لا مجهود فردي .

بقي هنالك امر واحد : هل كان هنالك فرد واحد ينشىء الرسائل بعد ان يتقرر ما يجب ان يدخل فيها من المواد ، ام هل كان ثمة منشئون متعددون؟ اغلب الظن ان المنشئين كانوا متعددين وان كانت الادلة على ذلك متعذرة لاسباب عدة .

ج) تكرار المعلومات والامثال ... - وعندي فوق ذلك ان الذين كانوا يعدون « مواد » الرسائل كانوا متعددين ، ذلك لان هنالك تكراراً كثيراً في الامثـــال والقصص والمواعظ مما يدل على ان بعض مؤلفي الرسائل لم يكونوا يشعرون ان هذه كلها قد تكررت في مناسبات مختلفة .

عدد الرسائل :

يذكر اخوان الصفا في الجزء الاول من رسائلهم ان عدد هذه الرسائل اثنتان وخمسون رسالة[١] . اما في الاجزاء الثلاثة الباقيـة فيذكرون ان الرسائل واحدة وخمسون رسالة[٢] .

على ان انعام النظر في هذه الصفحات يفضي بنا الى قول « الجماعة » (١ : ٢٨٣ - ٢٨٤) : واما كيفية الخروج من الجهالات المتراكمة فقد بيناها في احدى وخمسين

---

١ - رسائل ١ : ١ ، ١٩ ، ٤٨ ؛ راجع ٢٨٣ .

٢ - رسائل ٢ : ١٣ ، ٣ : ٤٨ ، ٨٩ س ٤ : ١٢٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٦ س ، راجع الرسالة الجامعة ٢ : ٣٩٣ . -- جاء في ٣ : ٤٨ قولهم : ... الى عمل هذه الرسائل التي هي احدى عشر وخمسين (كذا) رسالة » . على ان اقحام « عشر » وذكر « خمسين » بدل « خمسون » كما يقتضي الاعراب يدل على اضطراب في الجملة .

رسالة عملناها في فنون العلوم وغرائب الحكم وطرائف الآداب ... » او قولهم (١٢٦:٤) : وقد اخبرنا عن مذهبهم وعرفناكم اخلاقهم وبينا آراءهم واوضحنا اسرارهم في احدى وخمسين رسالة عملناها في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم » (راجع ٨٩:٣ س ٢٢١:٤ الخ) .

وهنالك غير هذه الرسائل الاحدى والخمسين « فهرست رسائل اخوان الصفا (١:١-٢٢) » وفيه تعداد الرسائل واشارة الى ما تتضمن كل واحدة منها على غاية من الوجازة . ويظهر ان هذا الفهرست قد وضع قبل البدء بكتابة الرسائل (راجع : ٣٢٠ الخ) .

وتلي الرسائل الاحدى والخمسين الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل كلها ، والمشتملة على حقائقها باسرها ... ولكن ببراهين ... لا يقف على كنهها ولا يحيط بحقائقها ولا يحصلها ولا شيئاً منها الا من ارتاض بما تقدمها (من الرسائل) . اذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات والمداخل (٩١:١) . ولا ريب في ان هذه الرسالة هي نهاية المراد وبها يكون الفوز في الدنيا والآخرة (٢٢:١) » .

ويظهر ان سبب تأليف هذه الرسالة الجامعة كان مزدوجاً . اما السبب الاول فهو ما احتج به اخوان الصفا انفسهم حينما قالوا (٢٩٠:٤) : « فليس تكاد تجتمع رسائلنا كلها عند رجل واحد الا من سهل الله تعالى له ذلك ، فعملنا تلك الرسالة (الجامعة) لتنوب عن اخواتها . ولكن لا ريب عندي في ان السبب الثاني هو الاصح ، وذلك ان اخوان الصفا ضمنوا هذه الرسالة اموراً ضنّوا بها على قراء الرسائل الاحدى والخمسين ، وصرحوا فيها ايضاً باشياء لا قِبَلَ الا لخاصة الخاصة من اخوانهم بقبولها ، وذلك ظاهر من قولهم ايضاً (٢٩٠:٤) : « غير ان الاصوب والاجود عندنا الا تقرأ الرسالة الجامعة الا بعد قراءة رسائلنا الاحدى والخمسين . فانه اذا قرأها بعد قراءة هذه كثر نفعه وانفتح عليه ما انغلق من رسائلنا . وان وجدها وفاتته الرسائل (الاحدى والخمسين) او بعضها لم يخل من فوائدها » .

وهذه « الرسالة الجامعة » التي لم تضم الى الرسائل الاحدى والخمسين ولم تطبع معها تبحث على ما يظهر في الالهيات (٤ : ٣٧٢ ن) « في البراهين على سبب اختلاف

قوى النفس (٣ : ٣٧٢) وفي العبادة الفلسفية خاصة (٤ : ٣٠١) . وقد تسمى هذه الرسالة ايضا « الفصل الجامع » (٤ : ٢٩١) .

اسلوب الرسائل :

كتبت رسائل اخوان الصفا باسلوب بسيط قريب من الافهام على ازدحامه بالكلمات الفنية والتعابير الفلسفية ، وتوخى اصحابه الوضوح والاختصار كما قالوا في انتقاد اسلوب من قبلهم وتبرير اسلوبهم هم (١ : ٤٨) : « واما اولئك الحكماء (اليونانيون) الذين يتكلمون في علم النفس قبل نزول القرآن والانجيل ، فانهم لما بحثوا في علم النفس واستخرجوا معرفة جوهرها بنتائج عقولهم دعاهم ذلك الى تصنيف الكتب الفلسفية ... ولكن لما طولوا الخطب فيها ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن فهم معانيها ولا عرف اغراض مؤلفيها ، انغلق على الناظرين في تلك الكتب فهم معانيها وثقلت على الباحثين اغراض مصنفيها . ونحن قد اخذنا لب معانيها واقصى اغراض واضعيها واوردناها باوجز مايمكن من الاختصار ...)

ولو انني احببت ان ابسط خصائص اسلوبهم المعنوية واللفظية لاحتجت الى ضعفي هذه الدراسات ، ولكنني ذاكر على كل حال ما لا بد من ذكره .

أ . تنوع المخاطبة — يسوق اخوان الصفا آراءهم على درجات مختلفة من التعمق والتبسط بحسب الاشخاص الذين سيقرأون هذه الرسائل من حيث المقدرة العقلية ، ومن حيث اتجاههم الفلسفي ، كأن يكونوا شاكين او علماء او دهرية او متفلسفة . ولذلك قالوا (٤ : ٢٨٢ — ٢٨٣) : « واما نحن فقد بذلنا مجهودنا في هداية الضالين وارشاد التائهين وتنبيه الغافلين ، وخاطبنا كل قوم وصنف منهم بما هو اصلح ان نخاطبهم به في رسائلنا ... وبما خاطبنا به المتفلسفين الشاكين » (راجع ايضاً ٤ : ٢٢٥ — ٢٤٣) .

ب . الرمز والتأويل — ولما ادرك اخوان الصفا ان الناس طبقات خاطبوهم « بالرمز » حتى يفهم عنهم من يفهم بقدر ما يستطيع ان يفهم . ولقد طوى اخوان الصفا جميع معانيهم تقريباً تحت رموز واشارات لا تدل عندهم على ما تدل عليه عادة عند العامة . وهم ينصحونك دائماً ان تتفطن لاشاراتهم اللطيفة واسرارهم الخفية »

وقد كان ذلك عادة لهم ((٤ : ١٨٠ و ٣ : ٢٢٧ الخ)

ولكن مما يلفت النظر انهم احياناً لا يرمزون ، كما وقع في الرسالة الثامنة من القسم الرابع (٤ : ٢٨٥ – ٢٩٠) فانهم لم يرمزوا فيها . واغلب الظن انهم يتوجهون بهذه الرسالة التي تتناول الكلام على « الروحانيين والجن وابليس » الى العامة . وظاهر هذه الرسالة يخالف بلا ريب عقيدة اخوان الصفا .

وكذلك يتأول اخوان الصفا كل ما ورد في الكتب المقدسة ولا يأخذون شيئاً على ظاهره ابداً . فالملائكة ومحمد وعلي والجنة والنار وابليس والمسيح والصراط والحساب والميزان كلها رموز . وكذلك آدم والطوفان ، والبعث والنفخ في الصور (راجع ٤ : ٤٧و٧٧ الخ) .

ج . الامثال والقصص والكتابة عن طريق الرمز تقتضي ان يضرب الكاتب الامثال ويورد القصص والحكايات حتى يقرب مقاصده الى الافهام من غير ان يصرح . وهذا كثير في رسائلهم . ثم ان هناك رسالة كاملة هي الرسالة الثانية والعشرين التي تبحث في الحيوانات (٢ : ١٥٢ – ٣١٧) ، وهي تحتاج الى دراسة خاصة مستفيضة لانها في رأيي تنطوي على جميع فلسفة اخوان الصفا ، ولكن عن طريق ضرب الامثال وقص الحكايات .

واخوان الصفا في هذه الرسالة وفي جميع رسائلهم متأثرون بكتاب كليلة ودمنة ، وبباب الحمامة المطوقة وباب البوم والغربان على الاخص .

د . المقدمات والاستطراد – وما داموا يكتبون لجميع الطبقات – واكثر الطبقات من العامة – فهم مضطرون الى تقديم المقدمات بين يدي البحوث . وهذا النوع من الكتابة يقتضي الاستطراد ، وذلك ان يخرج الباحث عن سياق بحثه اذا ذكر اشياء خارجة في اساسها على الموضوع المقصود .

هـ . تعانق الرسائل – يذكر اخوان الصفا في آخر كل رسالة الموضوع الذي تناولوه في الرسالة السابقة ، على ما نعرف في اكثر ابواب كليلة ودمنة .

و . التشويق الى متابعة القراءة - وربما ذكر اخوان الصفا في احدى الرسائل

موضوعاً هاماً ثم قالوا : ... يه في الرسالة الفلانية ، او كما سيأتي في الرسالة الموسومة بكذا ، مما يحمل القارىء العادي بلا ريب على الفضول لمعرفة ما مر او ما سيأتي ، بصرف النظر عن اهمية الموضوع المطلقة .

ز. الاقتباس والتضمين – ويرصع اخوان الصفا رسائلهم بالامثال والحكم وبالاشعار العربية في الاكثر والفارسية في الاقل ، وربما كان بعض هذه الاشعار لهم . وهم كثيرو الاستشهاد بما ورد في الكتب المقدسة . اما القرآن الكريم فلا تكاد رسالة من رسائلهم تخلو من بضع آيات منه اقتباساً في الاكثر وتضميناً في الاقل . ويلفت النظر ان لهم قصيدة اكثروا من تضمين الايات فيها وخصوصاً آيات سورة القمر (١) (٤ : ١٩١ – ١٩٥) .

ح . الالفاظ والتراكيب والصناعة – اذا استثنينا الالفاظ الفنية والتراكيب الفلسفية وجدنا الفاظ رسائل اخوان الصفا فصيحة وتراكيبها سهلة يشوبها شيء من الضعف والركاكة . الا ان لغتها احسن من لغة الفارابي ولكن اقل متانة وجمالا من لغة ابن سينا والغزالي ، ولا يمكن ان تقاس بلغة ابن خلدون .

واما الصناعة اللفظية والمعنوية فمفقودة ايضاً في رسائل اخوان الصفا .

٥ – آرؤهم

يعلن اخوان الصفا ان ما في رسائلهم من المذاهب والآراء ليس لهم . اما مذهبهم في صفوة الصداقة وحسن المعاملة فقالوا عنه (٤ : ١٧٩ – ١٨٠) : « واعلم ان هذا الامر الذي ندبْنا اليه اخواننا وحثثنا عليه اصدقاءنا ليس هو برأي مستحدث ولا مذهب محدث ، بل هو رأي قديم قد سبق اليه الحكماء والفلاسفة والفضلاء ... والانبياء ... والائمة المهديون ... » اما تماصيل الآراء فقد أثبتوا منها في رسائلهم « ما وصل اليهم من العلوم » (٤ : ٤١٨) . ثم انهم رفضوا ان ينسبوا الى انفسهم ما استنبطوه هم انفسهم ، فقالوا (٤ : ٤١٨-٤١٩) : « ... هذه المقدمات التي أوردناها والعلوم التي ذكرناها نحن والمستخرجين لها من ذواتنا انما اخذناها من كتب الحكماء المتقدمين ... واما ما كان من العلوم الحقيقية والاسرار الناموسية

---

(١) السورة ٥٤

من خلفاء الانبياء ...» ويعترف اخوان الصفا بان ثمت اشياء عرفوها فلم يثبتوها ، ثم يقولون (٤ : ٤١٩) : « وكثير من العلوم لم ننبه اليها ولم نصل اليها ولا خطر باوهامنا معرفة كنهها وفوق كل ذي علم عليم » .

مصادر آرائهم :

ذكر اخوان الصفا ان علومهم ماخوذة من اربعة كتب ، هي — على طريق الرمز — (٤ : ١٠٦) :

(أ) الكتب المصنفه على ألسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيين والطبيعين .

(ب) الكتب المنزلة التي جاء بها الأنبياء ... مثل التوراة والفرقان وغيرهما من صحف الانبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة ...

(ج) « الكتب الطبيعية » وهي صور اشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الافلاك واصناف البروج ... وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات واصناف المصنوعات على ايدي البشر . كل هذه صور وكتابات دالات على معان لطيفة واسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون معاني باطنها .

(د) « الكتب الالهية » التي لا يمسها الا المطهرون ...

اما المصدران الاولان فمعروفان : كتب الفلاسفة ثم كتب الانبياء . واما المصدران الآخران فرموز عنهما فقط ، « ملاحظة عالم الطبيعة المادي » ثم « التأمل في عظمة العالم والاستلهام ممـــا في العالم من الامور التي يعيا على العقل حَدّها والاحاطة بها »

تقسيم العلوم عندهم :

اتبع اخوان الصفا في تقسيم العـــلوم التقسيم الذي كان سائداً في ايامهم ، اذ جعلوا العلوم كلها اربعة اقسام (١ : ٢٣ وما بعدها ، ٤٩ ، راجع ١٧٤ الخ) :

أ) الرياضيات (الحساب — الهندسة — الفلك — الموسيقى) .

ب) المنطقيات .

ح) الطبيعيات (ويدخل فيها قوى النفس وحواسّ الانسان)

د) الالهيات (ويدخل فيها ماهية « النفس » وخلودها) .

ويجب ان نلاحظ ان اخوان الصفا لم يتبعوا هذا التقسيم في كتابة رسائلهم، بل اتبعوا تقسيما آخر، مع انهم ابقوا الاقسام اربعة (١:١ وما بعدها) :

(أ) الرسائل الرياضية التعليمية (العدد - الهندسة - النجوم - الموسيقى - الجغرافية - النسب العددية، اي الصلات الروحية بين الاعداد - الصنائع العلمية النظرية، اي انواع العلوم المختلفة كالنبات والحيوان والالهيات الخ - الصنائع العملية والمهنية كالصيد والحراثة والبناء والكتابة الخ - بيان اختلاف الاخلاق - المنطق باقسامه) .

(ب) الرسائل الجسمانية الطبيعية (سمع الكيان، اي المادة والصورة والزمان والمكان والحركة - صورة العالم - الكون والفساد - الآثار العلوية، اي احوال الجو - تكوين المعادن - ماهية الطبيعة، اي اثر الطبيعة في النبات والحيوان والمعادن ... - اجناس النبات - اجناس الحيوان - تركيب جسد الانسان ... - الحواس والمحسوسات - اثر الافلاك في الجنين - الانسان عالم صغير - ترقي النفوس في اجسادها - طاقة الانسان للمعارف - ماهية الموت والحياة - اللذات والآلام - علل اختلاف اللغات) .

(ج) الرسائل النفسانية العقلية (المبادىء العقلية على رأي الفيثاغوريين - المبادىء العقليه على رأي اخوان الصفا - العالم انسان كبير - العقل والمعقول - العالم، مبدأه وترتيبه وغايته ... - ماهية العشق الالهي - البعث والحساب والمعراج - الحركة - العلل والمعلولات - الحدود والرسوم) .

(د) الرسائل الناموسية الالهية والشرعية الدينية (الآراء والمذاهب - الطريق الى الله - اعتقاد اخوان الصفا - عشرة اخوان الصفاء - الايمان وخصال المؤمنين - الناموس الالهي والوضع الشرعي - والدعوة الى الله - الجن والملائكة الخ - انواع السياسات - صورة للعالم - السحر والعزائم) .

٦ - مجمل آرائهم

اذا احببنا ان نفهم آراء اخوان الصفا وجب علينا ان نترك عند البحث تقسيمهم، وان نأخذ بتقسيم اقرب الى المنطق والى العقلية الحديثة . ثم يجب ان ننظر الى جميع ما في رسائل اخوان الصفاء على انه « وحدة » ، وانه - سواء أكان لهم ام لم يكن - يعبر عن آرائهم هم .

اتجاههم العام :

يتجه اخوان الصفا في فلسفتهم اتجاهاً روحانيا لأن غايتهم انما هي الحياة التي وراء الحياة الدنيا ، والتي هي في عرفهم الحياة الحقيقية للنفس العاقلة الخالدة . ثم انهم في فلسفتهم « متخيرون » لا يتمسكون بدين واحد ولا بفلسفة واحدة ، بل يأخذون من كل دين او علم او فلسفة او مذهب ما يعتقدون انه جميل مفيد . « فالجماعة » كما رأينا من قبل لا يعادون علما ولا مذهبا ، ثم هم يرون ان النفس تبلغ اقصى غاياتها اذا ترقت . في المراتب العالية بالنظر في العلوم الالهية والسلوك في المذاهب الروحانية الربانيه والتعبد في الامور الشريفة من الحكمة على المذهب السقراطي والتصوف والتزهد والترهب على المنهج المسيحي والتعلق بالدين الحنيفي ... (٣ : ٢٨) » . اما الانسان « العالم الخبير الفاضل الذكي المستبصر » عندهم فانما هو « الفارسي النسبة العربي الدين الحنفي المذهب العراقي الآداب العبراني المخبر المسيحي المنهج الشامي النسك اليوناني العلوم الهندي البصيرة الصوفي السيرة الملكي الاخلاق الرباني الرأي الالهي المعارف الصمداني ... (٣١٦:٢) » .

الفصل الاول

المنطق وسبل المعرفة خاصة

المنطق هو الاساس الذي يجب ان يقوم عليه كل بحث فلسفي وكل تفكير (صحيح)، ولذلك يجب ان يتقدم على كل دراسة لمظاهر الوجود الطبيعي والماورائي[١] والنفسي والاجتماعي. الا ان اخوان الصفا اخروا المنطق الى ما بعد الفراغ من الكلام على العلوم الرياضية (العدد والهندسة والفلك والموسيقى)، وذلك لأن فلسفتهم تقوم في اساسها على «الرياضيات وفلسفة العدد» اتباعا للمذهب الفيثاغوري. اما نحن فنرى ان نبدأ حيث يجب البدء: بالمنطق.

ويتبع المنطق «سبل المعرفة» او طريق المعرفة، وذلك ما عرف في تاريخ الفلسفة الحديثة باسم «نظرية المعرفة». ومدار هذه النظرية: كيف نعرف وكيف نثق بما نعرف؟

المنطق:

الانسان عند اخوان الصفا اشرف المخلوقات لأنه «ناطق». الا ان هذا «النطق» او «المنطق» نوعان: لفظي وفكري. فالمنطق اللفظي هو هذه الكلمات التي يسمعها بعضنا من بعض، وهي اصوات والفاظ مؤلفة من حروف ودالة على معان مختلفة.

اما المنطق الفكري او الفلسفي ايضا فهو «امر روحاني معقول، وهو تصوّر النفس لمعاني الاشياء في ذاتها ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جوهرها وتمييزها لها في

---

١ — الماورائي نسبة الى ما وراء الطبيعة.

فطرتها ... ٩٠١ — ٣١١) ».

وبعد ان يجمل اخوان الصفا « ايساغوجي (المدخل الى المنطق) » (١ : ٣٠٩ — ٣٢١) ، وهو يتضمن في الاكثر الالفاظ الدالة على المعاني العامة نحو الشخص ، وهو ما يدل على موجود مفرد كقولك : هـــذا الرجل ، هذه الدابة ... هذا الحجر ... ثم النوع وهو كل لفظة يشار بها الى كثرة مختلفة الصور تعمها كلها صورة اخرى كقولك : الحيوان ، النبات ، الثمار ...

ثم يتكلمون على الصفات وهي ثلاث : فصول ذاتية جوهرية كحرارة النار ، فانه اذا بطلت الحرارة بطلت النار . ثم الصفات الخاصة التي تزول ولكن ببطء ، وزوالها لا يزيل الموصوف كبياض الثلج ورائحة الورد (فالوردة قد تخسر رائحتها ولكنها تظل وردة) . وبعدئذ تأتي الصفات العارضة او الصفات الخاصة السريعة الزوال وتسمى ايضا « عرَضا » مثل حمرة الخجل والقيام والقعود والمرض والنوم ..

والاشياء كلها في المنطق جواهر (فصول) واعراض (صفات) .

ثم يعرض اخوان الصفا لاقسام المنطق وهي « قاطيغورياس » (اي الالفاظ العشر او المقولات العشر) ثم العبارة فالقياس فتحليل القياس (البرهان) مما نعرفه من دراسة المنطق الارسطوطاليسي[٢] .

والمنطق ميزان الفلسفة ... واداة الفيلسوف التي يتحرز بهـــا من الخطأ ما امكن (١ : ٣٤٢) .

نظرية المعرفة :

يخالف اخوان الصفا افلاطون (٣ : ٣٩٣) في قوله ان النفس تعرف الاشيـاء « بالتذكر » ، وذلك انها اذ رأيت شيئا ما في عالمنا نحن تذكرت انها رأت صورته المثلى في الملأ الاعلى قبل هبوطها الى الارض واتصالها بالجسد[٣] . بل هم يعتقدون ان الانسان اذا ولد كان لا يعرف شيئا البتة ، وهم في ذلك متأثرون برأي القرآن الكريم

---

(١) ان الضمير « ها » في ذاتها ، جوهرها ، فطرتها يرجع ايضا الى النفس .

(٢) راجع الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب للدكتور عمر فروخ ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٣) مثله ص ٥١ وما بعدها .

الذي استشهدوا هم به عند قوله تعالى: « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا »[1] (٣٩٢:٣) . وعلى هذا لا يمكن للنفس ان « تعرف الا بتوسط الجسد » (٢٥:٣ س ٢٦ ، راجع ٣٧٦ الخ) .

اما طرق المعرفة عند اخوان الصفا فيظهر انها متعددة ، ولكنهم هم يجعلونها ثلاثا حيث يقولون (٣٥٦:١ ، ٣٣٤:٢ ، ٣٨٤:٤) : اعلم ان علم الانسان بالمعلومات يكون من ثلاث طرق :

أ) احدها طريق الحواس الخمس ، الذي هو اول الطرق ويكوّن (؟) جمهور علم الانسان ، وتكون معرفته بها (اي بالحواس الخمس) من اول الصبا . ويشترك الناس كلهم فيها ، وتشاركهم الحيوانات .

ب) والثاني طريق العقل الذي ينفصل به الانسان دون سائر الحيوانات ، ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ .

ج) والثالث طريق البرهان الذي يتفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس ، وتكون معرفتهم به بعد النظر في الرياضيات والهندسية والعلوم المنطقية » .

ويظهر ان ثمت طريقين خرين للمعرفة عند اخوان الصفا :

د) احدهما الحدس او قبول النفس ما يفيض عليها (من لدن الله) من العلوم والمعارف والاخلاق الجميلة ... مثل (ما يتفق) لنفوس الانبياء » (٧:٣) وذلك علم اولياء الله ايضا (٣٢٢:٣) على ما نرى في بسط نظرية الفيض .

ه) وثانيهما تعليم الله للناس — وذلك ان الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون (٣٩٢:٣ س) .

اما سبب اختلاف طرق المعرفة فراجع الى اختلاف « ماهية المعروفات » ، فمعرفة الاشياء المادية المحسوسة تكون عن طريق الحواس الخمس . واما ما كان « اشرف من النفس واعلى » فيعرف من طريق البرهان (٣٥١:٢) .

ولكل حاسة نوع من المحسوسات تدركه ، فالطعوم تدرك بالذائقة ، والروائح

---

١ — سورة النحل (١٦) : ٧٨ .

بالشم... ولا يتسنى لحاسة ان تدرك محسوسات ليست خاصة بها ، فالطعم والرائحة لا يدركان بالبصر ولا بالسمع . ثم ان بعض الحواس اشرف من بعض ، فاخوان الصفا يعتقدون ان حاسة النظر اشد أمنا في « المعرفة » من حاسة السمع ، ومع ذلك فقد يدخل الخطأ على حاسة النظر نفسها (٣ ٣٨١ - ٣٨٢) .

ثم هناك امور مجردة او نسبية لا تعرف عادة بالحواس بل بالبداهة ، او باوائل العقول السليمة او ببداية العقول . فالمشهور ان « الكل اكبر من الجزء ... والاربعة اكثر من الواحد ... والشيء لا يكون علة نفسه ، بل ان كل مصنوع يقتضي صانعا ... » . فهذه الامور نعرفها بداهة (يعني لا نقيسها بحواسنا مرة بعد مرة) ، ويستوي في معرفتها الصغير والكبير والعالم والجاهل ، الا من دخلت على عقله آفة كالجنون مثلا (١ : ٣٥٣ ، ٣ : ٣٩٣ - ٣٩٦ ، ٤٢٩) .

واخوان الصفا مصيبون في اعتقادهم ان هذه الامور المشهورة بانها معروفة باوائل العقول ترجع في حقيقتها الى ادراك الحواس لها ، وقد عارضوا بذلك افلاطون واصحاب المذهب الاسكندراني[١] حينما قالوا : « ثم اعلم ان كثيراً من العقلاء يظنون ان الاشياء التي تُعلم باوائل العقول مركوزة ، (يعنون ان المعرفة طبيعية في النفس) ... ويسمون العلم تذكراً ، ويحتجون بقول افلاطون : التعليم تذكر ، وليس الامر كما ظنوا ... والدليل على صحة ما قلنا ان كل ما لا تدركه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيله الاوهام ، وما لا تتخيله الاوهام لا تتصوره العقول ... وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات ، فانها مأخوذة اوائلها من الحواس ... والدليل على ذلك ان العقلاء متفاوتو المرتبة في ادراك المعقولات ، وذلك راجع الى تفاوتهم في جودة الحواس وفي حسن تأملهم للموجودات واسباب أخر شتى ... (٣ : ٣٩٣ - ٣٩٤) .

---

١ - المذهب الاسكندراني هو المذهب المعروف خطأ بالافلاطونية الجديدة او الافلاطونية الحديثة . راجع الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب (ص ٧٦)

الفصل الثاني

علم مبادىء الوجود

يتناول علم ما وراء الطبيعة عند ارسطو ، «مبادىء الوجود» من الصورة والمادة والزمان والمكان والعلل ، وكل ما يتعلق بالمعرفة الذاتيـة الموضوعية الايجابية لمظاهر الوجود . وهذا ما سنقصر عليه هذا الفصل . اما « الالميات » وهي مجموع الموضوعات التي ألحقها الاسكندرانيون والمتكلمون بعلم ما وراء الطبيعة (كالبحث في صفات الله وفي القضاء والقدر وفي القيامة والثواب والعقاب في الاخرة) فسنتركها الى مكانها الصحيح .

ان بحوث « علم مبادىء الوجود » عند اخوان الصفا قليلة جداً ، واكثرها تعاريف او استعراض لآراء الفلاسفة المتقـدمين ، وسبب ذلك ان اتجاههم ديني ، وهذا النوع من البحوث لا يعارض الدين ، ولكنـه ايضا لا ينصره . ومع ذلك فنحن مثبتون آراء « الاخوان » موجزة فيما يلي :

المكان :

والمكان عندهم « كل موضع تمكن فيـــه المتمكن ، وهي نهايات الاجسام (٣٦١:٣) » ، استنتجوا ذلك من التعاريف المختلفة عند الجمهور وعند العلماء (٩:٢) . ويظهر انهم خلصوا الى القول الصواب وهو ان المكان هو السطوح المحيطة بجسم ما . ان « مكان » الحجر الغارق في الماء سطوح الماء المحيطة به والملامسة له . والمكان عندهم « جوهر » اي انه شيء موجود بذاته قابل لان يحوي الاجسام .

---

١ — راجع الفارابيان (الطبعة الثانية — ، ص وما بعدها ، ثم الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ، ص ٦١ وما بعدها .

نفي الخلاء :

يرد اخوان الصفا على من يزعم ان في قلب العالم او في خارجه خلاء ، لأن الزاعم يعني ان « الخلاء » هو المكان الذي لا يمكن ان يوجد فيه جسم ما وقد نقض اخوان الصفا هذا الزعم من طريقين : اولهما ان « المكان » معناه ما يقبل حلول الاجسام فيه ، فاذا اعتبرنا مكانا لا يقبل حلول الاجسام فقد نقضنا تعريف المكان . وثاني الطريقين ان الخلاء لو كان « موجوداً » لكان محتاجا الى مكان يوجد فيه ، ولكان هذا المكان ايضا محتاجا الى مكان آخر وهلمجرا[1] . فالخلاء اذن غير موجود اصلاً ، لا في داخل العالم ولا في خارجه (١:٣٥٨،٢:٢٣ - ٣٢٥،٣:٣٧٤).

الزمان :

وكذلك الزمان عندهم هو عدد حركات الفلك وتكرار الليل والنهار (٣:٣٦١) . ولقد اصابوا حينما جعلوا الزمان « صورة تحصل في نفس الذي يتأمل تكرار الليل والنهار على الدوام (٢:٥١) » ، الا انهم يخلطون بين الزمان « الذي هو صورة ذهنية مطلقة تمكننا من ان نتخيل تعاقب العلل والمعلولات ، وبين قياس الزمن « الذي هو السنون والشهور والايام ... » بالاضافة الى ما تشعر به حواسنا . ولذلك لما اعتبروا لزمان اما ماضياً قد مر او مستقبلا لم يأت بعد ، اصابوا فقالوا : « فبهذا الاعتبار ليس للزمان وجود اصلا ، اي وجود ذاتي . الا انهم لما اعتبروا الزمان هو اللحظة التي يكون المرء فيها ابداً — بصرف النظر عن مرورها من المستقبل الى الماضي — جعلوا الزمن موجوداً . وهم لم يستطيعوا ان يتخيلوا الزمان الا مقروناً بحركة الجسم (راجع ٢:١٣) .

الهيولى والصورة :

والغالب على اخوان الصفا انهم ارسطوطاليسيو النزعة في النظر الى الهيولى (المادة) والصورة . فالهيولى عندهم جوهر بسيط قابل للصورة ، يعنون انه يقبل الصور المختلفة (٢:٤ ، ٣:١٨٦ ، ٣٦٠) . فاذا اخذنا « الحديد » مثلا على انه درجة

١ — هذا رأي الفيلسوف اليوناني زينون الايلي (ت ٤٣٠ ق م) ، راجع الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب

من الهيولى ، فاننا نرى تلك الهيولى الواحدة التي هي الحديد تقبل صوراً مختلفة ، اذ يصنع منها سكين وسيف وفأس وسرير . فالهيولى هـنا واحدة ولكن الصور مختلفة .

وجميع المصنوعات تتركب من هيولى من صورة (٢ : ٤) . ويلفت النظر ان كل صورة قد تكون هيولى لصورة ارقى منها ، فالقطن الذي هو صورة في نفسه يمكن ان يكون هيولى تتحقق فيه صورة خيوط الغزل ، وخيوط الغزل التي هي صورة في نفسها يمكن ان تكون هيولى لقطعة النسيج ، وقطعة النسيج يمكن ان تكون هيولى للقميص (٢ : ٥ ، ٣ : ٢٣٠) .

والصورة بلا ريب اهم — في عالم الوجود — من الهيولى ، لانها هي التي تدل على ماهية الاشياء . اننا اذا قلنا : سيف ، فأس ، سرير ، سكين ، فاننا لا نعني المادة التي صنعت منها هذه الاشياء المختلفة ، بل نعني صورة هـذه الاشياء ، سواء أصنعت من الحديد ام النحاس ام الخشب ، كالسرير مثلا (٢ : ٤ ، ٣ : ٣٦٠) .

اما « الهيولى الاولى » المجردة من جميع الصور الممكنة فهي صورة بسيطة لا يدركها الحس (٢ : ٤ س) ، ولكن يمكن ان نتخيلها فقط كما قال ارسطو . هذا الهيولى الاولى او الهيولى الكل هي صورة الوجود حسب (٢ : ٥ س) غير متكيفة بصورة ما .

وهنالك نوع من الصور يدعى الصور المفارقة ، وهي الصور المدركة بالفعل والتي لا يمكن ان تتلبس بالمادة ابداً كالعقل والنفس (١٥ : ٣٢٦) . ان صورة السرير صورة غير مفارقة لانها يمكن ان تكون في الحديد او الخشب او النحاس ، واما صورة العقل فصورة مفارقة لا يمكن ان تتجسم في مادة ما .

ويخرج اخوان الصفا عن رأي ارسطو الى رأي افلاطون حينما يقولون (٢ : ٢٣٢) : ان هذه الصور والاشكال والهياكل والصفات التي تراهـا في عالم الاجسام وجواهر الاجرام هي مثالات واشباه واصباغ لتلك الصور التي في عالم الارواح ... ومناسبة هـذه الى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التي على وجوه الالواح وسطوح الحيطان الى هذه الصور والاشكال التي عليها هذه الحيوانات من

اللحم والدم والعظام والجلود . (ذلك لان تلك التي في عالم الارواح محركات ، وهذه متحركات ، والتي دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات فاسدات ، وتلك ناطقات معقولات روحانيات غير مرئيات باقيات) .

واخوان الصفا — كسائر الفلاسفة القدماء والمتأخرين — يعتقدون ان الكون والفساد (تقلب الصور المختلفة على المادة الواحدة) خاص بالاجسام الموجودة دون (أي تحت) فلك القمر . اما الاجرام التي فوق فلك القمر فلا يجري عليها كون ولا فساد ، ولا تتغير ولا هي تبلى أو تزول .

الحركة :

والحركة انواع (٣:٣٠٦ ، ١٠٠٢) فالنمو والتغير والتضاؤل كلها حركات ، ولكن يهمنا من كلها نوع واحد هو « النقلة » من مكان الى آخر . يرى اخوان الصفا ان الحركة اما ان تكون « على الاستقامة » (وهي في الحقيقة حركات متعددة ولكنها متتالية بسرعة في اتجاه واحد) ، واما ان تكون دورية (أي في دائرة) . واخوان الصفا يعتقدون ان الحركة الدورية مستمرة غير متقطعة ، وهي بلا ريب أشرف لانها دائمة ، ولأن حركة الافلاك السماوية كلها دورية .

العلل والاسباب .

يبدو لنا ان اخوان الصفا أيضاً لا يفرقون بين العلة والسبب ، وان كان الغالب عليهم استعمال لفظ « العلة » في رسائلهم . اما العلة فهي « سبب لكون شيء ايجاداً » ، واما المعلول فهو الذي لوجوده سبب مع الاسباب » (راجع ٣:٣٢٦ — ٣٢٧ ، ٣٦٠) . والموجودات عندهم — كلها علل ومعلولات (٣:٢٢٢) .

ثم هم يرون ان الجواب عن « العلل » من اصعب الاجوبة ، او هو أصعبها على الاطلاق . ذلك لان العلل كثيرة دقيقة غامضة ، فمن كان يتعاطى معرفة حقائق الاشياء والاخبار عن عللها وأسبابها كان محتاجاً الى اطلاع واسع (٣:٣٢٥، ٣٢٧) .

والعلل اربعة انواع : فاعلية وهيولانية وصورية وتمامية . ان السرير مثلا لا يمكن ان يصنع الا اذا تجمع لصنعه اربع علل : الفاعل (الذي هو هنا النجار او

الحداد) والهيولي (التي هي هنا الخشب او الحديد) والصورة (وهي الشكل المتعارف للسرير) والتمام (الذي هو حصول الفائدة منه. فاذا كان في صنع السرير نقص اساسي – او عيب – يجعله غير صالح للنوم عليه براحة لم يكن ذلك المصنوع سريراً) . ثم ان غياب علة ما من هذه العلل تجعل « كون » السرير مستحيلا (راجع ٣:٢٣٣ ، ٣٢٧) . ولا ريب في ان البحث عن العلة التامية – التي هي الغرض الاقصى من وجود الاشياء – مطلب عويص صعب ، ولا سيما اذا كان يتعلق بوجود هذا العالم الذي نعيش فيه، او وجود النفس مثلا (راجع ٤:٨-٩). ويرى « الاخوان » ان العلة يجب ان تظل ملازمة للمعلول (١:٣٥٤) ، – فاذا بطلت بطل المعلول – اذا احترق الخشب مثلا انعدم السرير !

وهنالك « مظاهر » توجد دائماً – في الحس – معاً ، حتى ليظنّ غير العلماء ان بعض هذه المظاهر علل لبعض ، كالنار والدخان ، فان الناس قد تعودوا ألا يروا دخاناً الا مع النار حتى ظنوا ان النار علة الدخان . وليس الامر كذلك ، بل النار والدخان معلولان من علة واحدة (١:٣٥٤) .

ومع ان المفروض ان العلة توجد دائماً قبل المعلول ، فانه قد يكون ثمت علل متلازمة توجد في الحس معاً كطول النار ومسامتة الشمس : حينما تكون الشمس عمودية في بلدة ما فالنهار يكون في تلك البلدة طويلا جداً ، وبالتالي اذا كان النهار في تلك البلدة طويلاً تكون فيها مسامتة بالضرورة . وفي هـــذه الحال لا يدري اخوان الصفا اي الامرين علة للاخر (١:٣٥٤) .

وكذلك ثمة علل عرضية كالقتـــل الذي هو احياناً علة للموت ، ولكن الموت قد يحدث بغير القتل ، فعلى هـــذا يكون القتل علة عرضية لا ذاتية (١:٣٥٤ – ٣٥٥) .

بقي العلل المتسلسلة الدورية ، كأن يقول احدنا ان علة كثرة المطر كثرة الغيوم ، وعلة الغيوم البخار المتصاعد من البحار، وعلة وجود البحار انصباب الانهار والسيول . وعلة السيول كثرة المطر . فينتج – في ظاهر الامر – ان كثرة المطر

علة لكثرة المطر ، وهذا تعليل فاسد . ولذلك ينصحنا اخوان الصفا ان نبحث عن العلل الاربع دائماً ، لا ان نكتفي بالعلة الظاهرة لعيوننا والتي قد لا تكون علة على الحقيقة ، فان الغيم قد يكون متراكماً ثم لاينزل مطراً ابداً (١ : ٣٥٣) .

ويجب ألا نترك الكلام على العلل قبل ان نثبت رأي اخوان الصفا القائل بان الباري (الله) جلت أسماؤه هو علة الموجودات كلها ... (٣ : ١٨٥ الخ) .

الفصل الثالث

الرياضيات ونظرية العدد

الفلك والتنجيم

ليست الغاية ان نستعرض هنا جميع ما في رسائل اخوان الصفا من حقائق العلوم الرياضية ، لان معنى ذلك استعراض علمي الحساب والهندسة بتفاصيلها ، وبسط علم الفلك وفن التنجيم وقواعد الموسيقى باوسع ما عرفته العصور القديمة والوسطى من التشعب . ولكننا نرمي الى اجمال غايتهم من البحث في هذا النوع من العلوم .

اما الموسيقى خاصة فسنتركها للفصل التالي : فصل العلوم الطبيعيـــة ، لانها بالطبيعيات أليق وألصق .

العلوم العددية :

تأثر اخوان الصفا في نظرية العـــدد بالفيثاغوريين الذين يستشهدون على جميع الموجودات التي في العالم ، من الجواهر والاغراض والبسائط والمجردات والمفردات والمركبات او (عند) البحث عن مبادئها وعن كمية انواعها واجناسها... وخواصها وعن ترتيبها ونظامها على ما هي عليـه الآن وعن كيفية حدوثها ونشوئها ... ، بمثالات عددية وبراهين هندسية (١ : ٢٣)

والعلوم الرياضية عند « الاخوان » اربعة : الارثماطيقي (الحساب) والجومطريا (الهندسة) والاسطرونوميا (الفلك) والموسيقى (١ : ٢٣ ، ٢٤) .

هناك بحثان لن اتكلم عليهما ، اولهما قواعـــد الرياضيات من الجمع والتفريق (الطرح) والضرب ، والاعداد المزدوجة والمفردة والجذور والكسور وما الى ذلك

مما يدخل في عـــلم الحساب المتداول والمعروف . وثانيهما تطبيق العدد على امور روحانية . على انني ساهمل هنا ناحية واحدة من هذه الامور الروحانية ــ الناحية الخرافية . اما الناحية الثانيـة ــ الفيض وترتيب الموجودات حسب مراتب الاعداد ــ فساتركها الى حين الكلام على الالهيات .

نظرية العدد :

الاعداد قسمان : عادّ (وهو الواحد) ، ومعدودات (وهي سائر الاعداد). فلقد اعتبر اخوان الصفا ان كل عدد (ما عدا الواحد) ينشأ من زيادة واحد على العدد الذي يتقدمه ، فالخمسة مثلاً هي اربعة مضافاً اليها واحـد ، والاربعة ثلاثة مضافا اليها واحد ، والثلاثة اثنان مضافاً اليهما واحد ، والاثنان واحـد مكرر مرتين . اما « الواحد » فلا يجري عليه هـذا القانون . ثم انهم اعتبروا كل عدد : ستة ، خمسة ، اربعة الخ « وحدة » قائمة بنفسها ، كما انهم اعتبروا السدس والخمس والربع والثلث « وحدات » مستقلة ايضاً. فالثلث مثلاً ليس سوى جزء من ثلاثة ، والنصف جزء من اثنين. اما « الواحد » فلا يمكن ان يكون له جزء البتة لأنه اصل للاعداد جميعاً : منشأها صعوداً نحو : اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة الخ ؛ او هبوطاً نحو نصف ، ثلث ، ربـع ، خمس ، سدس الخ .

ولكن لما شعر اخوان الصفا ان مثل هذا التحديد قد يكون فيه تناقض قالوا: ان « الواحد » وحدة حقيقية لا جزء لها ولا يطرح منها شيء ولا هي تنقسم . اما ما كان « اكثر من الواحد » (سبعة ، خمسون ، مائة ، الف) فهو وحدة مجازية . ولهذا كانت الاعداد تبدأ من الاثنين ، لأن الواحد عادّ وليس معدوداً ، وبالتالي ليس عدداً قابلا للطرح والقسمة (١ : ٢٥ ، ٢٤) .

والاعداد (الصحيحة والكسور) متناهية من طرف واحـد غير متناهية من الطرف الآخر : تبدأ الاعداد من « الواحد» صعوداً الى ما لا نهاية؛ وكذلك تتخذ الكسور مبدأها من « الواحد » ثم تهبط الى ما لا نهاية (١ : ٣٠ ــ ٣١) .

ونلاحظ ان اخوان الصفا اهتموا كثيراً بجذور الاعداد وبالمربعات المجذورة

وغير المجذورة نحو ٣×٣=٩ ، فالتسعة مربع (لانه حاصل ضرب عددين) ومجذور (لانه حصل من ضرب عددين متماثلين ، او حصل على الاصح عن ضرب العدد في نفسه) . واما ٣×٢=٦ فهو مربع ايضاً ولكنه غير مجذور .

لقد استخرج اخوان الصفا للجذور والمجذورات قواعد كثيرة (١:٣٣-٤٦). وكذلك اهتموا بالنسبة العددية ، فالنسبة الطبيعية مثلا هي « نسبة الضعف » وهي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ الخ ، فالخمسة خمسة اضعاف الواحد ... والثلاثة ثلاثة اضعاف الواحد ... الخ ، وتسمى هذه النسبة ايضاً نسبة المثل . اما « نسبة المثل والزائد » فهي ان تضيف الى الاعداد : ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ الخ الاعداد ٣، ٤، ٥، ٦، ٧ على التوالي فيخرج معك ٥، ٧، ٩، ١١، ١٣ الخ الخ ... (راجع ١:٣١ وما بعدها ، ثم ١:١٨١ وما بعدها) .

وهنالك ايضاً « عدد الزوج » الذي يبتدىء من الاثنين نحو ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٢ ، الخ . ثم « عدد الافراد » الذي هو عدد الزوج مضافاً اليه واحد ، نحو ٣، ٥، ٧، ٩، ١١، ١٣ الخ . وهو ما يسمى في علم الحساب الحديث « بالسلسلة الحسابية ». اما ما يسمى « بالسلسلة الهندسية » فيطلق عليه اخوان الصفا « زوج الزوج » نحو ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢ الخ وهو يحصل بأن تضرب العدد الاول باثنين : ثم تضرب كل حاصل جديد باثنين الى ما لا نهاية (راجع ١:٣٦) .

وعدد زوج الزوج او السلسلة الهندسية غير « النسبة الهندسية » ، وهي سلسلة محدودة تكون نسبة العدد الاول فيهـــا الى الثاني كنسبة الثاني الى الثالث نحو: ٤، ٦، ٩ . فالاربعة ثلثا الستة ، ثم ان الستة ثلثا التسعة (١:١٨٤) . واخوان الصفا يذكرون من امثال هذه النسب انواعاً مختلفة متعددة ، تحتاج الى ذهب رياضي بالاستعداد الفطري وبالتثقيف العلمي حتى يحسن عرضهـــا للقارىء . اما انا فلست هنالك .

الهندسة :

وكذلك لن اتكلم هنـــا على انواع الخطوط والسطوح والاجسام الهندسية

(١ : ٥١ — ٦٨) المعروفة في كتبنا الحديثة .

الهندسة علم المساحة والابعاد ، وهي عند اخوان الصفا نوعان : الهندسة الحسية ، والهندسة العقلية . فالحسية هي معرفة المقادير وما يعرض فيها من المعاني اذا اضيف بعضها الى بعض ، وهي ما يُرى بالبصر ويدرك باللمس . واما الهندسة العقلية فهي التي تبحث في الخطوط والسطوح والاجسام مجردة من المادة ، او هي النظر في الابعاد الثلاثة ، في الطول والعرض والعمق خلواً من الاجسام الطبيعية (١ : ٦٣ ، ٦٤) .

وكما ان الواحد « في العدد » هو اصل الاعداد كلها فكذلك النقطة « في الهندسة » هي اصل الاشكال جميعها . « فالنقطة » اذا تحركت ظهر من جراء حركتها خط . فاذا تحرك ذاك الخط حركة مخالفة لحركة النقطة حدث السطح . فاذا تحرك هذا السطح في اتجاه جديد حدث الجسم .

وأحب من القارىء ان يتفطن الى تعريف اخوان الصفا للاشكال الهندسية ويذكر انهم يؤكدون تحرك كل شكل في جهة مخالفة لحركة الشكل الذي نشأ منه ، حتى ينشأ منه شكل جديد . قالوا هم : واعلم يا اخي انك اذا توهمت حركة هذه النقطة على سمت (في اتجاه) واحد حدث في فكرك خط وهمي مستقيم . واذا توهمت حركة هذا الخط في غير الجهة التي تحركت فيها النقطة حدث في فكرك سطح وهمي . واذا توهمت حركة هذا السطح في غير الجهة التي تحرك فيها الخط والنقطة (تنبه لقولهم : « الخط والنقطة » معاً !) حدث في وهمك جسم وهمي له ستة سطوح مربعات قائمة الزوايا ، وهو المكعب ... (١ : ٦٤) » .

اما الغاية من تعلم الهندسة فهي رياضة العقل لتفهم الفلسفة عموماً والالهيات على الاخص . فالنظر في الهندسة الحسية يعين على الحذق في الصنائع العملية (كالبناء والتجارة وعمل الآلات والادوات) . واما النظر في الهندسة العقلية فانه يؤدي الى الحذق في الصنائع العلمية كلها (١ : ٤٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥) .

ويلحق بالهندسة « مجموعات » الاشكال الهندسية ، فقد جمع اخوان الصفا سبعة اشكال ابسطها الشكل الذي يتألف من تسع منازل رتبت فيها الارقام من

١ — ٩ على نظام معين خرج المجموع في كل عمود طولا وعرضاً وتوتيراً خمسة عشر . اما الاشكال الباقية فتتألف من ست عشرة منزلة وخمس وعشرين منزلة وست وثلاثين منزلة وتسع واربعين منزلة واربع وستين منزلة واحدى وثمانين منزلة على التوالي .

٦	٧	٢
١	٥	٩
٨	٣	٤

وما دام اخوان الصفا يبنون نظريتهم على النسب الحسابية والهندسية فان انتقالهم الى الكلام على الهندسة مباشرة امر منتظر .

*

يقصد اخوان الصفا «بالعالم» ما قصده الفلاسفة المتقدمون من انه «السموات السبع والارضون وما بينهما من الخلائق اجمعين» (٢ : ٢٠). وليس في الوجود الا العالم، وليس وراء هذا العالم لا خلاء ولا ملاء، كما مر معنا من قبل.

صورة العالم :

العالم باسره جسم كريّ الشكل تقوم الارض في وسطه. وحول الارض تسعة افلاك محيط بعضها ببعض كطبقات البصلة . اما الافلاك فهي مدارات الكواكب او السموات ايضاً (حسب التعريف الديني) ، وهي مرتبة هكذا :

ادنى الافلاك واقربها الينا فلك القمر ، وهو السماء الاولى . ثم من ورائه فلك عطارد وهو السماء الثانية. ومن ورائه فلك الزهرة وهو السماء الثالثة ، ثم من ورائه فلك الشمس وهو السماء الرابعة (وهكذا نلاحظ ان الشمس عند اخوان الصفا هي احد الكواكب التي تدور حول الارض) . ومن وراء ذلك المريخ ففلك المشتري ففلك زحل وهو السماء السابعة . ثم فلك الكواكب الثابتة ، ففلك المحيط (وهو اقصى الافلاك واوسعها) (٢ : ٢٠ — ٢٥ راجع ٣ : ٢٠٨ — ٢١٠) .

والفلك المحيط دائم الدوران كالدولاب ، يدور من المشرق الى المغرب فوق الارض ومن المغرب الى المشرق تحت الارض في كل يوم وليلة دورة واحدة ، وهو يدير سائر الافلاك معه (١ : ٧٤ — ٧٥)

العالم انسان كبير والانسان عالم صغير

يسيطر على العالم باسره قانون واحد : ان كل ما في العالم من المظاهر المختلفة تؤم نحو غاية واحدة ، وكلها يؤثر بعضها في بعض . ولذلك شبه الاقدمون العالم بجسم انسان واحد . وعنهم اخذ اخوان الصفا فقالوا (١) :

« واعلم ، يا اخي ، بان جسم العالم باسره بمنزلة جسم انسان واحد ، وان جميع افلاكه وطبقات سمواته وكواكب افلاكه واركان طبائعه ومولداتها من جملة جسمه بمنزلة اعضاء بدن انسان واحد ومفاصل جسده . فان نفسه تدير افلاكه وتحرك كواكبها (باذن الباري جل وعز) كما تحرك نفسُ انسان واحد اعضاء جسده ومفاصل بدنه ... وان العالم مقسوم بنصفين كما ان جسد الانسان شقان . وان في الفلك اثني عشر برجا لمسير كواكبه منها ستة شمالية وستة جنوبية كما ان في الجسد اثني عشر ثقبا ستة منها في الجانب الايمن وستة منهـــا في الجانب الايسر لمجاري حواسه وسريان قوى نفسه ... الخ » .

على ان هذه الفكرة نفسها واردة في الرسالة الجامعة باختصار ووضوح ، قالت الرسالة الجامعة (٢) :

« ... العالم انسان كبير ذو نفس وروح ، حي عالم طائع لباريه (اذ) خلقه ربه جل ثناؤه — يوم خلقه — تامّاً كاملا ، وان الخلق كلهم داخلون فيه باجمعهم ، وهو جملتهم . وليس خارج العالم شيء آخر ..

« ولما كان الانسان عالما صغيراً مختصراً من العالم الذي هو انسان كبير .. نريد ان نذكر ... بنية العالم بأسره وانه انسان كبير مماثل لصورة الانسان الذي هو عالم صغير ليعاينه المتأمل له بعين البصيرة ... وهو الصورة التي صُوّر عليها عالم الانسان . وهذا الشخص هو المتحدة به النفس الكلية ، والعقل متحد بها ، وامر الله سبحانه محيط بها إحاطة القدرة المبلغة لأدونها بمشيئته الى اعلاها المتصرفة فيها كما يشاء . فالعقل وجهه المقبل بالطاعة المشرق بانوار التأييد . والنفس الكلية صدره

---

١ — رسائل اخوان الصفا ٢ : ١٢٣ .

٢ — ٢ : ٢٠٤ وما بعدها .

الصادرة عنه بامره ونهيه القابلة من جوده وفيضه. فالافلاك التسعة جوفه، والكواكب السبعة جواهره، والبروج الاثنا عشر حواسه، والقوى النفسية السارية فيها روحه انفاسه. واجناس مواليده غرائب ما في جسمه من فنون اشكاله وعجائب اوصاله. وعالم الكون والفساد يداه الباسطة والقابضة. والشمس والقمر عيناه ذات الانوار الساطعة. ومركز الارض والطبيعة رجلاه. وامر الله محيط به، سابح في فلك القدرة وافق المشيئة. والله مطلع عليه ومحيط به ...

« فهذا قول يدل على ان العالم انسان كبير وان الانسان عالم صغير مختصر منه مستخرج من جملته، ومؤد عنه مادته وقابل من افادته. وقد بيّنا في رسالة الانسان عالم صغير مطابقة جواهر الانسان وبنية جسده لما في العالم الكبير من الموجودات باسرها ... وكان الغرض المقصود اليه من هذه الرسالة - أعني رسالة العالم انسان صغير - معرفة الموجودات الجنسية والنوعية والشخصية من جنس جنس وانها كمثل قبيلة لها شعوب، ولشعوبها بطون، ولبطونها افخاذ وعشائر واقارب ... »

علم الفلك :

نجوم السماء كثيرة، ولكن المدرك منها بالرصد ألف وتسعة وعشرون كوكباً منها السبعة السيارة، وهي : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر. ولكل واحد من هذه الكواكب فلك يختص به. اما سائر الكواكب (النجوم الثابتة) ففي فلك واحد هو الفلك الثامن المحيط، بفلك الكواكب السيارة كلها (١ : ٧٣ ، ٢ : ٢٧).

وكما ان ابعاد الكواكب متفاوتة فان احجامها ايضاً متفاوتة. وقد أثبت اخوان الصفا النسب التي كانت معروفة في ايامهم : فحجم الشمس مائة وستون مرة قدر حجم الارض. والمشتري مثل الارض خمس وتسعون مرة. واما النجوم الثوابت فكلها اكبر من الارض ولكنها كلها اصغر من الشمس (١ : ٢٦ - ٢٨).

أ) اختلاف حركة الكواكب - اخذ اخوان الصفا بمذهب بطليموس وقالوا (٢ : ٢٩ - ٣٣) بان حركة الكواكب مختلفة معقدة، بعضها يسير من الشرق

الى الغرب وبعضها يظهر كأنه يتراجع من الغرب الى الشرق ... والذي أدّى ببطليموس الى الوقوع في هذا الخطأ امران : احدهما افتراضه ان الشمس والكواكب تدور حول الارض ، بينما الارض ثابتة . وثانيهما وضعه الارض في مركز النظام الشمسي وجعله الشمس في وسط الافلاك (الخامسة اذا بدأنا العدد من الارض صعوداً والخامسة اذا بدأ العدد من زحل هبوطاً) . وهذا النظام معقد اصلحه العرب فيما بعد ، وليس هنا موضع بسطه وتعليله وتبيان خطأه .

ب) القمر خاصة — والقمر عند اخوان الصفا ليس سياراً تابعاً للارض ، بل هو كوكب سيار كالارض نفسها وكالشمس وكزحل والمشتري وعطارد. وكذلك اعتقدوا ان القمر له وجهان احدهما ممتلىء دائماً نوراً (مضيء بذاته) والآخر مظلم ابداً . وعلى هذا تتشكل اوجه القمر من استمرار اقباله على الارض بوجهه المظلم. وهو يدور في كل شهر مرتين (٢ : ٢٤ ، ٢٤٩).

ج) الكسوف والخسوف — والكسوف عندهم ، يحدث من اعتراض القمر بين الشمس والارض . وكذلك الخسوف، فانه يحدث من اعتراض الارض بين الشمس والقمر (٢:٣٨- ٣٩) على ما نعرف نحن اليوم. ولكن بينما تجد بحثهم علمياً في هذا المكان ، تراهم في مكان آخر (٣ : ٣٤٢) ينسبون «الكسوف للنيرين » (الشمس والقمر) دون سائر الكواكب ويجعلونه آية « لتزول الشكوك عن قلوب المرتابين الذين يظنون انهما آلهين اثنين . فانهما لو كانا آلهين لما انكسفا ! »

وهذا يدل على ان اخوان الصفا كان يجهلون ان سائر الكواكب يظهر منها كسوف الشمس وتخسف اقمارها ، كما نعرف على سطح ارضنا تماماً او ما يقرب منه .

(د) اصوات النجوم — قال اخوان الصفا (٣:١٠٤) : « ولما كانت الافلاك دائرات والنجوم متحركات وجب ان يكون لها اصوات ونغمات». ثم ذكروا (٣:١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٣٤ س) ان الفيلسوف اليوناني فيثاغوراس سمع اصوات النجوم وألف عليها الالحان .

اما ما ذُكر عن فيثاغوراس فوجهه ان حركة النجوم يجب ان تحدث صوتا (لأنها

جسم يتحرك في جو) ، ولكن بما اننا قد ولدنا ونحن نسمع هذا الصوت فاننا قد ألفناه الى درجة اصبحنا معها لا نشعر بوجوده . ولكن اذا اتفق ان وقفت النجوم «فجأة» عن الدوران ، فاننا نفقد حينئذ صوتا لذيذاً كان من قبل يملأ آذاننا. ويضرب فيثاغوراس مثلا على ذلك الطحان الذي الفَ صوت الطاحون حتى انه ينام هادئاً ملء عينيه ، بينما الطاحون تدور وتحدث صوتا قد يزعجنا نحن ... فاذا اتفق ان توقف البغل (فجأة) عن الدوران وانقطع صوت الطاحون هب الطحان من نومه لأنه فقد الصوت الذي كان يملأ اذنيه من قبل[1] .

التنجيم :

يهتم اخوان الصفا بالتنجيم كثيراً فهنالك رسائل تامة تتعلق بالتنجيم، عدا الاماكن المتفرقة في بعض رسائل أخر :

أ) تأثير الكواكب في البشر ودلالتها على المستقبل — وهم يعتقدون ان للنجوم « روحانيات » تؤثر في جميع الاجسام التي هي «دون فلك القمر (عالمنا)»، وتدل ايضاً على الحوادث المقبلة (٣:٣٤٢ ، ٣٤٠ ، ٣٦٤ وما بعدها كلها) . وقد اثبتوا لذلك احكاماً في رسائلهم (٤:٣٦—٣٨ الخ) . وليس هنا مكان تفصيل ذلك .

ب) تأثير الكواكب في الجنين خاصة — ويرى اخوان الصفا ان الجنين يكون « منذ سقوط النطفة في الرحم الى الولادة » تحت تأثير الكواكب ، ويشرحون ذلك كما يلي : (٢ : ٣٥٣ وما بعدها ، راجع ٣:٢٥٠ وما بعدها ، ٤ : ٤١٣ — ٤١٦ الخ) :

اول ما تسقط النطفة في الرحم يكون التدبير لزحل (٢:٣٥٧) لان فلكه اقصى الافلاك عن الارض واقربها الى عرش الرحمن . ففلك زحل اذن قريب من معدن النفس القدسية والارواح الخيرة ومن منزل الملائكة . فاذا تم الشهر الاول انتقل التدبير الى المشتري في الشهر الثاني ، وفي الشهر الثالث يصبح التدبير للمريخ . فاذا كمل الشهر الثالث انتقل الجنين الى تدبير « الشمس رئيسة الكواكب وملكة

---

(١) راجع مجلة الامالي ، المجلد الثاني (٢٥ ايلول ١٩٣٩) ص ٦٥ ، والفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ، ص ٢٢ .

الفلك وقلب العالم فتنفخ في الجنين روح الحياة ، وتسري النفس الحيوانية فيه (٢: ٣٥٧-٣٥٩) . وفي الشهر الخامس ينتقل التدبير الى «الزُهَرة — وهي صاحبة النقش والتصاوير — فتستقيم خِلقة الجنين وتظهر اعضاؤه. وتكون سرة الجنين متصلة بسرة امه تمتص منها الغذاء الى يوم الولادة . واذا كان الجنين ذكراً كان وجهه مما يلي ظهر امه ، وان كان انثى فعكس ذلك (٢: ٣٥٩). «وعند دخول الشهر السادس يصير التدبير لعطارد .. فيتحرك عندئذ الجنين في الرحم ويتنفس ويستيقظ وينام. ثم يدخل الشهر السابع ويصير التدبير للقمر فيربو الجنين وتشتد اعضاؤه .. ويحس بضيق مكانه ويطلب التنقل والخروج. ولكن ربما بقي الى الشهر الثامن ...(٢: ٣٦٠).

ومع ان كلامهم على ذلك طويل فان الكثير منه فاسد، ولكن ليس هذا مكان تفنيده .

الارض خاصة :

ان الارض التي نحن عليها هي كرة واحدة بجميع ما عليها من الجبال والبحار والبراري والعمران والخراب . وهي واقفة في مركز العالم في وسط الهواء بجميع ما عليها.. مع ما فيها من الارتفاع والانخفاض (٢: ٢٢، ٤٩، ١١٠، ١١١، ٣: ٣١٠). فالارض عندهم اذن ثابتة في مركز النظام الشمسي (٣: ٤٠١)، والشمس والافلاك كلها تدور حولها (٢: ٣٢ الخ) .

ويذكر اخوان الصفا ان نفراً من الحكماء قالوا بارجحنان الارض (ميلانها على محورها). ولكنهم مع الاسف ردوا هذا الرأي الصواب (٣: ٣٠٩-٣١٠).

وحجم الارض صغير جداً ، قالوا : « واعلم ان الارض بجميع ما عليها من الجبال والبحار بالنسبة الى سعة الافلاك ما هي الا كالنقطة في الدائرة (١: ١١٧) ». ولقد اثبت اخوان الصفا مقدار قطر الارض ومقدار محيطها (٢: ٢٦) .

ويلفت النظر انهم اثبتوا اختلاف طول النهار بين جنوب خط الاستواء وشماله، فذكروا ان « في ناحية الشمال ... برداً مفرطاً جداً لانه ستة اشهر يكون الشتاء

هنالك ليلا كله ... وفي مقابل هذا الموضع في ناحية الجنوب ... يكون نهاراً كله ستة اشهر صيفا ... (١:١١٦-١١٧) ».

الجغرافية : صورة الارض

لا فائدة من استعراض آراء (الاخوان) في الجغرافية (١:١١١-١٣٧) لانهم يعتمدون فيها على غيرهم ، مما كان مشهوراً يومذاك .

الفصل الرابع

الفلسفة الطبيعية

عالم الطبيعة المادي

لاخوان الصفا في العلوم الطبيعية ، وخصوصا فى علم الحياة ، ملاحظات قيمة صائبة، وهي من الناحية التاريخيةومن الناحية العلمية اثمن ما تركوه لنا في رسائلهم، بل لعلها مع ما يشبهها عند سائر فلاسفة العرب اثمن ما ورثناه عن العصور الوسطى. وبينما كان كلامهم على الرياضيات والالهيـــات ممزوجا بما نعده نحن اليوم في الخرافات ، فان اكثر كلامهم في الطبيعيات كان « علما » .

الطبيعة ، ماهيتها

« الطبيعة هي قوة النفس الكلية الفلكية ، وهي سارية في جميع الاجسام التي دون فلك القمر (عالمنا = الارض) ... (٢:١١٢، ١٠٥) ، والطبيعة هي التي تحرك الاجسام التي في عالمنا وتدبرها وتهبها افعالهـــا (٢:٢١٢) . ومجموع هذه الاجسام يسمى الجسم الكلي (٢ : ٢٣٥) .

الاركان الاربعة

قال اخوان الصفا مع قدماء الطبيعيين ومع ارسطو بالعنـــاصر الاربعة او الاركان الاربعة ، وهي النـــار والهواء والماء والتراب ، واعتقدوا ان جميع ما في العـــالم مؤلف من هذه العناصر بنسب مختلفـة . وكذلك قالوا – مع القدماء – بان بعض هذه العناصر اشرف من بعض: فالنار اشرف العناصر ، ويليها

في الشرف الهواء ثم الماء ثم التراب . وكذلك اخطأوا ايضا حينما قالوا مع ثاليس وآله [١] ان النار اذا لُطفت صارت هواء ، والهواء اذا غلظ صار ماء ، والماء اذا جمد صار ارضا (ترابا) ... وانها جميعها تستحيل ايضا صعوداً ، فاذا تحللت الارض (التراب) ولُطفت صارت ماء ... الخ (٢ : ٦، ٥٠، ٣ : ١٣٥-١٣٦). ومع ان العناصر الاربعة اصل لجميع الموجودات من ذي حياة كالنبات والبهيم والانسان او غير ذي حياة كالمعادن والحجارة الكريمة ... فانها هي نفسها لا حياة فيها ولا يحكم عليها بموت او حياة (٣ : ١٣٧-١٣٨).

وقد رفض اخوان الصفا ، مع الاسف ، المذهب الذري الذي قال به ديمقراطس (ت ٣٧٠ق.م)، ورفضوا ايضاً القول بالجزء الذي لايتجزأ او الجوهر الفرد (٤ : ٧، ٨)

نظرية الزئبق والكبريت

وتختلط العناصر الاربعة في باطن الارض للمرة الاولى فينتج منها زئبقاً وكبريتا . ثم يتمازج الزئبق والكبريت مرة ثانية بنسب مختلفة فينتج منهما جميع المعادن كالذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد ... (٢ : ٩١، ١٠٣، ٣ : ١٩٤، ١٩٥، ٤٠٣).

البغض والمحبة — المغناطيس

وينسب اخوان الصفاء ، مع قدماء الفلاسفة ، للمعادن والجواهر شعوراً خفياً وحساً لطيفاً كما للنبات والحيوان ، وذلك انهم رأوا ان بعض المعادن توجد معا او تلتصق او يجذب بعضها بعضا (او تتماسك ذراتها كما قال اصحاب المذهب الذري من اليونانيين) ، فنسبوا ذلك الى عشق بين هذه المعادن وسموه شوقاً او محبة وبغضاً او عداوة . ثم انهم قالوا : هنالك طبيعة تألف طبيعة ، وطبيعة تناسب طبيعة ، وطبيعة تلصق بطبيعة او تأنس بها او تنافرها او تعزها او تحبها او تفسدها الخ .. على انهم جهلوا علة ذلك فقالوا : « ولا يعلم كنه عللها الا الله

---

١ — راجع الامالي ، المجلد الثالث ، العدد الاول (١٠ ايلول ١٩٤٠) والعدد الثالث (٢٥ تشرين الاول ١٩٤٠) ، والفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ص ١٣ .

(٢ : ٩٤ — ٩٥) ».

وكذلك عرفوا المغناطيس وقوة جذبه للحديد وللتين والشعر ، ولكنهم حاروا ايضا في تعليل فعله (٢ : ٩٥ ، ١٠٧) .

الكون والفساد

الكون والفساد هما تقلب الصور المختلفة على المادة الواحدة . فاذا صنع الفاخوري الطين ابريقا فقد « فسدت » صورة الطين و « كانت » صورة الابريق . وكذلك اذا جمد الماء فصار ثلجا فقد « فسدت » صورة الماء و « كانت » صورة الثلج . هذا الكون والفساد يجري فقط على الاجسام التي دون فلك القمر (٢ : ٤ ، ٥١ ، ٣ : ٢٢٠ الخ) .

الاجسام : الجواهر والاعراض

الاجسام الجزئية هي الاجسام الحادثة في عالمنا من ذوات الابعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق . كل جسم مؤلف من جوهر واحد وعرض او اعراض مختلفة او صفات . فالجوهر هو الشيء « القائم بنفسه القابل للصفات » والصفة ، عرض حالّ في الجوهر ليس جزءاً منه (٣ : ٣٦٠) . فالانسان جوهر بما فيه من « معنى الانسانية » ، ولكن الصحة والمرض والحمرة والاصفرار اعراض قد تعتريه وقد لا تعتريه ، فاذا اعترته فان جوهره لا يتأثر بها لا زيادة ولا نقصانا .

الحرارة

وادرك اخوان الصفا صلة الحرارة بالحركة وبالاشعاع . ان حركة القمر تجعل الهواء الذي في جوه حاراً جداً[1] . وكذلك يرون ان مسامتة الشمس (وجودها عمودية فوق بقعة ما) تزيد في الحرارة . حينئذ « يدوم اشراق الشمس ... ويتصل انعكاس شعاعاتها في الهواء فيحمى ويسخن اسخانا شديداً » . وكذلك تنتقل الحرارة بالملامسة (٢ : ٥٧ ، ٣٤٠) وهم يرون ان الاشعة اذا كانت على زوايا حادة[2] او قائمة

١ — المبدأ صحيح ، ولكن المثل فاسد لان القمر لا هواء في جوه .
٢ — كذلك قالوا !

كانت اكثر اسخانا لما تقع عليه مما لو كانت على زوايا منفرجة (٢:٥٨ وما بعدها).

الضوء والالوان :

ولقد اصاب اخوان الصفا مبادىء قوانين الضوء ، فذكروا ان النور ضروري لامكان الرؤية ، لأن الرؤية لا يمكن ان تحدث في الظلمة. وكذلك يجب ان يكون الجسم المرئي ملونا ، لأن الاجسام المشفة لا ترى ايضا . وبعد ان ذكروا شيئا من تشريح العين عرّفوا البصر بانه تغيير يحدث في الحدقة من انعكاس النور عن الاجسام الملونة الى العين ، وخطأوا من يزعم ان الابصار يكون بخروج شعاعين من الحدقتين الى الجسم المرئي. وكذلك زعموا ان الجسم كلما ابتعد زاد « في رأي العين » صغراً الى ان يغيب . ومحسوسات البشر كلها جسمانية ، لا يمكن ان تدرك الا اذا كانت حاضرة ، فاذا زالت من امام الرائي انسلخ شبحها من عينه (٣:٣٤٥-٣٤٦ ، ٣:١١٩ ، ١٣٣)

وتعليلهم لقوس قزح صحيح جداً ، انه يحدث حينما يكون « الهواء مشبعاً بالرطوبة ، ولا يكاد يحدث الا في طرفي النهار (صباحاً او مساء) وفي الجهة المقابلة لموضع الشمس... » وقد وصفوا شكل قوس قزح وحجمه وقياسه والوانه ، ثم رفضوا قول العامة من ان اختلاف بروز الوانه يدل على الحوادث المقبلة ، كأن يكون اشتداد الحمرة مثلاً دلالة على كثرة سفك الدماء في تلك السنة ، واشتداد الخضرة فيه دلالة على الخصب ، الخ (٢:٦٧ — ٦٨) .

ولهم كلام طويل على تعليل الالوان (٣:٣٧١ — ٣٧٢) .

الصوت وقوانينه :

وبحث الصوت في رسائل اخوان الصفا أوفى وادق من بحث الحرارة والضوء . قالوا في تعريف الصوت ووصفه : « انه قرع يحدث في الهواء من تصادم الاجرام. وذلك ان الهواء لشدة لطافته ... وسرعة حركة اجزائه يتخلل الاجسام كلها ، فاذا صدم جسم جسما آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كرويّ واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجّاج (صانع الزجاج) . وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه الى ان

يسكن ويضمحل ... (١:١٣٧ ، راجع ٣ : ١٠٥ ، ١٠٨ - ١٠٩) .

وقسموا الاصوات انواعاً يمثلها ما يلي (١:١٣٧ ، ٣:١٣ - ١١٤) :

أ) اصوات غير حيوانية (اصوات ما ليس له روح) :

١ - وتكون طبيعة كصوت الحجر والحديد والريح والرعد .

٢ - او تكون غير طبيعيـــة (صناعية) كصوت الطبل والزمر والاوتار ...

ب) اصوات حيوانية (اصوات ما فيه روح) :

١ - اصوات غير منطقية وهي اصوات الحيوانات غير الناطقة والتي لا يفهم الانسان معانيها ، كصوت الصراصر والخيل والطير ...

٢ - أصوات منطقية - وهي الاصوات التي تقوم على النطق ، وهي خاصة بالانسان :

آ - اصوات غيردالة «بذاتها» كالضحك والبكاء والصياح والسعال ، وبالجملة كل ما ليس له هجاء .

ب - اصوات دلة بذاتها ، وهي كلام الناس وافوالهم .

ولاحظ اخوان الصفا ايضاً ان الحيوان الاخرس كالحيات والديدان وما يجري هذا المجرى ، لا رئة لها ، وما لا رئة له لا صوت له ... ولاحظوا كذلك ان الاصوات الحادثة من الحيوان الذي لا رئة له مثل الزنابير والجنادب والصرصر والجدجد ، فانما تحدث من صدم الهواء لاجنحتها - او صدم الهواء بأجنحتها على الاصح (٣ : ١١٤) .

اما الصدى عندهم - كما هو عندنا - فراجع الى ان امواج الصوت تصطدم بحاجز ما ، ثم ترتد عنه فتحدث في ارتدادهـــا رَجعاً يشبه الصوت الاصلي ... (٣ : ١١١ الخ) .

وكذلك لهم في صوت الرعد بحث (١:١٠٩ - ١١٠) . فقـد رفضوا قول الحشوية بان صوت الرعد يحدث من ان « ملكاً » يسوق السحاب ، وان الملائكة

يكونون عن يمين السحاب وشماله يسبّحون بتسبيحه ويسكتون بسكوته. وكذلك رفضوا رأي علماء الفلك الذين قالوا بان الرعد صوت تصادم السحاب . وزعموا الصواب في ان « البخار الرطب » يتمدد في طبقة ما من الهواء فيضيق به مكانه فيحاول الانفلات فيمر في الهواء كله ويحدث صوتاً هو الرعد . اما (البخار اليابس) فيحدث الصواعق . ولا شك في ان الخطأ في ذلك كله راجع الى جهل الكهرباء واثرها ، يومذاك .

واما في الموسيقى فهم يعتقدون ان عظم الصوت تابع لعظم الآلة التي تحدثه . بعدئذ يثبتون قوانين هذه الاصوات الموسيقية بانواعها : الحادة منها والغليظة والسريعة والبطيئة والثقيلة والخفيفة والكبيرة والصغيرة . وكل صوت يمكن ان يكون ، بالاضافة الى غيره ، كبيراً أو صغيراً ، حاداً او غليظاً الخ (٣ : ١٤٣ — ١٤٨) . اما اصوات الاوتار خاصة فراجعة في تنوعها الى غلظ الوتر وطوله (١ : ١٤٩ ، راجع رسالة الموسيقي ايضاً ١ : ١٣٢ — ١٨٠) . واما اثر الالحان في السامعين فقد توسعوا فيه في اماكن مختلفة .

الكيمياء والصنعة :

يعرّف اخوان الصفا « علم الكيمياء » بانه العلم « الذي ينفي الفقر ويكشف الضر » (٤ : ٣٢٣، ٣٤٠) ، ويقصدون بذلك انه علم تحويل المعادن الخسيسة الى معادن شريفة . هنالك شجرة ... تنبت في جبال الشام ... اذا استخرج ماؤها والقي على الزئبق وطبخ مراراً عقده فضة بيضاء.. (٤ : ٤٤٤) ». وهم يشيرون ايضا الى تحويل بعض المعادن الى ذهب او فضة (٤ ٣٦٨، ٤٤٢). وفي الرسائل اماكن مختلفة تشير الى « تفاعل كيماوي » بين بعض المواد والمعادن والسوائل، منها اشياء بسيطة صحيحة . الا ان اكثر ما ذكروه من باب الخرافة والشعوذة (راجع ٤ : ٤٤٢ وما بعدها) .

الصحة والطب والعلاج

يعتقد اخوان الصفا ان الاسقام لا تدخل على الجسد ولا تزول الا « بموجب

حركة نجومية ومقادير سماوية » ومع ذلك فهم ينصحون بالاعتـــدال في الطعام والشراب والباءة والحركة لدوام الصحة ، ويسمون ذلك السياسة الطبية . ثم هم لا يغفلون ايضا اثر المناخ في الصحة (٤ : ٢٩٤-٢٩٥) .

و « انحراف المزاج » الذي لا نزال نستعمله نحن اليوم في كلامنا عن المرض الخفيف يرجع الى نظرية طبية كانت سائدة في عهد اخوان الصفا ، وذلك اعتقادهم ان الجسم مبني على الطبائع الاربع وهي البرودة والحرارة والدم والبلغم. ويكون الانسان صحيحا معافى ما دامت هذه الطبائع والاخلاط متكافئة ، فاذا تغلبت طبيعة على طبيعة او زاد خلط عن مقـــداره « انحرفت صحة » الانسان ومرض (٣ : ٣٦٤-٣٦٥ ، ٤ : ٣٥١) .

واساس تشخيص المرض عند اخوان الصفا ثلاثة امور (٤ : ٣٥١) :

أ - قول المريض، اي السؤال عن تاريخ المرض: السؤال عن السبب في تلك العلة و كيف كان المرض وما سببه واصله ، من بعض المأكولات او المشروبات او من هم ؟.. فاذا كان العليل عاقلا ساعد الطبيب على معرفة العلة .

ب - شهادة النبض .

ج - قارورة الماء : النظر في البول .

وفي رسائل اخوان الصفا شاهد بارع على «التحليل النفسي»، وذلك ان الانسان قد يقع في مرض (او اضطراب يشبه المرض على الاصح) من جرّاء ازمة نفسية . ومعالجة هذا النوع من المرض يكون بالتحليل النفسي ، اذ يترك المريض ليسرد احوال علته واسبابها كما يشعر هو بها كلها . اما الشفاء من مثل هذا الاضطراب فيشفى عادة بازالة اسباب هذه الازمة النفسية (٤ : ٣٥٢ وما بعدها) .

على ان العلاج الطبيعي يكون عندهم بتناول عقاقير معينـــة . ويتم الشفاء بان يجذب العضو المريض من العلاج ذلك الجزء الذي يضادّ العلة التي فيه .

الفصل الخامس

قوى النفس

الحس والتفكير

ان بحث « النفس » التي هي الناحية المفكرة في الانسان ، وعلى الاخص فيما يتعلق باصلها واتصالها بالجسد ثم في مفارقتها له وخلودها في نعيم او شقاء، انما هو من بحوث « الالهيات » . وسنتناول هذا البحث فيها هنالك .

ولكن لهذه النفس عينها « مظاهر طبيعية » تبتدىء في اعضاء معينة كالسمع بالاذن والنظر بالعين... وكالهضم والنمو والغضب... ثم ان لها ايضاً « مظهراً جامعاً » هو في الحقيقة نتيجة لعمل جميع هذه الاعضاء المعينة وللحواس على اختلاف انواعها. هذه المظاهر النفسية يسميها اخوان الصفا قوى النفس ، وهي موضوع هذا الفصل .

قوى النفس :

نظر اخوان الصفا الى الجسد على انه وحدة وانه ، بمجموع ما فيه من اعضاء وحواس وقوى ، يشبه مدينة « محكومة » ملكها النفس (٣ : ٣٢٠ - ٣٢٤ ، ٣ : ١٤). ولهذه النفس قوى طبيعية وافعال غريزية ، ولكنها تنقسم اقساماً ثلاثة كبرى (٣ : ٣٢٥) :

أ) النفس النباتية ، وهي ما كانت في الاصل موكلة بالنبات ، ولكن الحيوان (البهيم والانسان) يشترك مع النبات فيها . ولهذه النفس النباتية سبع قوى هي الجاذبة (للغذاء من الارض ..) والماسكة (لهذا الغذاء في اماكنه) والهاضمة والدافعة (بالغذاء الى اطراف الجسد المحتاجة اليه) والغاذية (التي تدفع الى كل

عضو ما يحتاج اليه) والمصورة (التي تحول الغذاء المدفوع الى شكل العضو الذي سيتناوله) والنامية (التي تعمل على زيادة اقطار الاعضاء واحجامها) . هذه القوى النباتية تأتي في ادنى مراتب قوى النفس كلها (٢ : ١٣٤ وما بعدها) .

ب) النفس الحيوانية . كان الاصح ان تسمى هذه النفس « النفس البهيمية » ما دام لفظ الحيوان يجب ان يتناول كل ذي حياة من نبات او بهيم او انسان . ولكن هكذا سماها اخوان الصفا ، فلنسمها نحن هنا كذلك .

المقصود بقوى النفس الحيوانية تلك القوى التي تخدم الجسم الحيواني كالحركة ، او تخدم شهوات الجسد كطلب الطعام الطيب والمهاد الوثير وكالاستفراغ ، او تتعلق باحوال النفس الفطرية من غضب ورضا وسرور وغم وضحك الخ ، مما سأترك الكلام عليه الى البحث في النفس الانسانية . ولكن يجب ان نعلم ان البهيم يحتاج الى نوعين من قوى النفس : قوى النفس النباتية التي تعينه على التغذي والنمو ، وقوى النفس الحيوانية التي تؤدي له حاجـــاته البهيمية من حركة ولذة وغضب ومرح الخ .

ج) النفس الانسانية ، وتسمى ايضاً النفس العاقلة ، او الناطقة لان النطق المبين اخص صفات الانسان . ان البهائم تحدث اصواتا تدل على الالم او الرضا ، وربما عبرت عن بعض رغباتها وملابسات الاحوال التي حولها كالقرد . ولكن الانسان وحده هو الذي يبين (يُفصح) عما يريد ، ويفكر ويشعر بظلال غير متناهية من المعاني .

وكما ان البهيم محتاج الى نوعي قوى النفس النباتي والحيواني ، فان الانسان محتـــاج الى جميع قوى النفس : النباتية والحيوانية (البهيمية) والانسانية ، وكلها موجودة فيه . الا اننا لا نسميه « انسانا » الا بالقوى العاقلة التي فيه .

١) القوى النباتية في الانسان — الانسان محتاج الى الغذاء والهضم والنمو . من اجل ذلك كان فيه قوى النفس النباتية كلها ونزعاتها وشهواتها وفضائلها ورذائلها . ومسكن هذه القوى (مركزها) الكبد (٢ : ٣٢٥) .

٢) القوى الحيوانية في الانسان — وكذلك تظهر في الانسان جميع الاعمال

التي تظهر في الحيوان (البهيم) كالحركة والشهوة والغضب... ولذلك كانت فيه « قوى النفس الحيوانية وحركاتها واخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها . ومسكن القوي القلب .. (٣:٣٢٥) .

٣) القوى الانسانية في الانسان — ثم ان في الانسان فوق ما تقدم « قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها، ومسكنها الدماغ..(٢:٣٢٥)».

ويخبرنا اخوان الصفا ان هذه الانواع من القوى ليست متحيزة في جسم الانسان — يعني منفصل بعضها عن بعض — بل هي متصلات بذات واحدة ، كاتصال ثلاثة اغصان من شجرة واحدة تتفرع من كل غصن عدة قضبان ، ومن كل قضيب عدة اوراق وثمار ... او كرجل يعمل ثلاثة صنائع تسمى بثلاثة اسماء فيقال : حداد ، نجار ، بناء ، اذا كان يحسن الثلاث كلها (٣:٣٢٥) .

القلب والدماغ

وقبل الذهاب في شعاب النفس الانسانية وحواسها يجب ان نحدد مقام القلب والدماغ كما حدده اخوان الصفا انفسهم .

في رسائل اخوان الصفا رأيان في ذلك : احدهما يجعل القلب صاحب المركز الاول في الجسد على ما كان سائداً في العالم القديم ، اذ كانوا يعتقدون « ان القلب في الجسد مصور على صورة الانسان ولذلك صار افضل الاعضاء التي في اجسام الحيوان»... وجعلوه مركز الحواس . وقد ذكروا في هذا الرأي ان الحواس وان كانت تمر اولاً على الدماغ ، الا ان الدماغ يؤديها الى القلب (٣:١١٥، ١١٨-) . وزادوا في الخبط هنا فذكروا ان الروح بخار رطب قد يصل من شخص الى شخص آخر بواسطة امتصاص الريق او استنشاق الهواء فيصل جزء من ذلك الروح الى القلب وجزء الى الدماغ وجزء الى الرئة الخ .. (٣:٢٦٤-٢٦٥)

على ان لهم رأيا آخر في رسائلهم هو - في كثير من إجماله وتفصيله — كل الصواب.

يعتقد اخوان الصفا بلا ريب ان بعض اعضاء الجسد اشرف من بعض : بعضها خادم مطلق ، وبعضها مخدوم مطلق ، وبعضها خادم لما فوقه ومخدوم بما تحته . اما

« الدماغ » عندهم فهو ملك الجسد ومنشا الحواس ومعدن الفكر وبيت الروية وخزانة الحفظ ومجلس محل العقل (٢:١٦٢) . وعلى ذلك يكون به الحس والشعور والعرفان والذهن والفكر والروية والمعارف اجمع (٣ : ٢٣س) .

واما « القلب » فهو خادم الدماغ ومعينه في افعاله ، وان كان هو امير الجسد ومدبر البدن ومنشأ العروق الضوارب وينبوع الحرارة الغريزية (٢ : ١٦٢).

الحواس الخمس في الانسان :

والنفس تدرك بالحواس : تبصر بالعينين وتسمع بالاذنين ...الخ (٢ : ٣٢٤-٣٤٩) . والحس انما هو تغيير مزاج تلك الحواس عند مباشرة المحسوسات لها . اما الاحساس فانما هو شعور القوى الحساسة بتغييرات الامزجة (٢ ٣٣٩،٣٤٩الخ)

اما الحواس فهي آلات جسدانية ،وهي خمس : العين والاذن واللسان والانف واليد (٢:٣٣٩-٣٤٩ الخ)

ولا اريد تفصيل الكلام على الحواس الخمس لأن ذلك يحملنا الى علم الطبيعات والتشريح . ولكن مما تجب الاشارة اليه ان اخوان الصفا ردوا مراكز الحواس الى الدماغ وعينوا — بما وصل اليه علمهم — مراكز هذه الحواس من اقسام الدماغ فقالوا : « ان القوة الباصرة مجراها العينين وهي مستبطنة الحدقتين في الرطوبة الجليدية ومركزها مقدم الدماغ : والقوة السامعة مجراها في الاذنين وهي مستبطنة الصماخين مما يلي البطن المؤخر من الدماغ . والقوة الشامّة مجراها في المنخرين وهي مستبطنة الحياشيم مما يلي البطن المقدم من الدماغ ... (٢ : ٣٣٩ و ٣ : ١٤) .

ويتبسط اخوان الصفا في الكلام على الشعور ويفسحون مجالا كبيراً « للشعور النسبي » ، فان حال الجسم مختلف دائماً فيما يتعلق بالحرارة والرطوبة والضعف والقوة واللين والخشونة . ثم ان الاختلاف بين جسم الانسان وبين الاجسام الاخرى التي يلاقيها هو الذي يبعث الشعور بها (٢ : ٣٤٠ وما بعدها) . فاذا دخل الانسان

الحمام وهو مقرور (بردان) وجد البيت الاول [١] حاراً ، واذا خرج من البيت الحار (الداخلي) وجد (البيت الاول) بارداً ، لأن مزاج (الجسد) قد تغير... (٢ : ٣٤١ - ٣٤٢) .

وللشعور بالمحسوسات شرائط خاصة ... ، مثال ذلك القوة الباصرة فانها تحتاج في ادراكها المبصرات الى ضوء ما والى بعد ما والى محاذاة ما . فمتى عدم شيء منها عاقها ذلك عن ادراك المبصرات على حقائقها .. » (٣ : ٣٨٠). ومثل ذلك ايضا سائر الحواس .

ولاخوان الصفا في الحواس آراء صائبة قيمة في تاريخ العلم يقضي الانصاف ان نذكرها هنا . هم يعرفون ان الصوت يحتاج الى وساطة الهواء حتى ينتشر . ثم ان انتشاره يكون بالتموج على شكل كروي ، « وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه الى ان يسكن ويضمحل . فمن كان حاضراً من الناس وسائر الحيوانات التي لها اذن بالقرب من ذلك المكان ، (صدمه) تموج ذلك الهواء الذى هناك ، فحست عند ذلك القوة السامعة بتلك الحركة والتغيير (٢ : ٣٤٤) » .

وقد مر معنا من قبل الكلام على حقيقة البصر وهو في اعلى مراتب الاصابة ، ومما سبق اخوان الصفا فيه الشرقيين والغربيين معا . ومثل ذلك في الاصابة كلامهم على خداع البصر .

ثم يخلصون الى نتيجة هي انه اذا كان البصر - وهو اشرف الحواس واقواها - يدخل عليه الوهم والخداع ، فلا ريب في ان سائر الحواس اكثر تعرضا لمثل هذا الوهم ولمثل هذا الخداع (٣ : ١١٧ و ٣٨١) .

الادراك بالعرض

هذا بحث من بحوث علم النفس الحديث يجوز لنا ان نسمية « الموارده » ، وذلك

---

(١) تبنى الحمامات الفنية - قديماً وحديثاً - على شكل متداخل ، فالانسان يدخل اولا الى باحة ينفذ منها الى غرفة ، ثم ينفذ منها الى غرفة ثانية ثم الى مكان الاستحمام . وربما كان عدد الغرف (او بيوت الحمام) اكثر عدداً .

ان محسوساً ما يرد على الحواس فيبعث في المخيلة صورة تتعلق من قرب او من بعد مباشرة او غير مباشرة بذلك المحسوس . يقول اخوان الصفا : « اعلم ان الانسان اذا رأى ثمرة من بعيد يعلم من وقته انها حلوة او مرة او طيبـــه الرائحة... او خشنة... وليس علمه بهذه الصفات كلها بطريق البصر ولكن بالقوة المفكرة وبرؤية (تلك الصفات في تلك الثمرة) وتجاربها وما جرت لها به العادة (كذا). وتعليلهم لذلك ان الخطأ في الادراك لم يأت من البصر – لأن البصر يدرك المحسوس بشكله الظاهر – ولكنه اتى من طريق القوة المفكرة التي توهمت في هذا المحسوس المزور جميع الصفات الموجودة في شبيهه الحقيقي (راجع ٢ : ٣٤٨) .

اللذة والالم والتعب والراحة

اذا كان جسم الحيوان في اعتدال (اي كان صحيحاً) فهو في لذة، فاذا انحرف مزاجه اصبح في الم . على ان الحيوان لا « يشعر » باللذة الا بعد ان يتقدمها ألم . واللذه هي الراحة ، وهي ثبات جسم الحيوان على الصحة والاعتدال . واما التعب فهو التردد بين الالم واللذة (٢:٣٤٩) . ولاخوان الصفا تعليل جميل للالم سيأتي ذكره عند الكلام عن علم الحياة : ان الالم هو الذي يدفع الحيوان الى الفرار من الهلاك لئلا ينقرض . ويرون ان اللذة والالم قد يكونان جسمانيين او روحانيين او انهما قد يوجدان معاً (٣ : ٦٨ ، ٨٣ ، ٨٥ ثم ٨١) .

العادة تضعف الادراك

ولا ريب في ان الادراك يأتي من اصطدام الحواس بالمحسوسات ، فاذا ألفت الحواس محسوساً ما ضعف تنبهها له . وقد قال اخوان الصفا (٢ : ١٦١) : « ان مشاهدة جريان الامور دائماً اذا صارت عادة قلّ تعجب النـــاس منها و (قل) الفكر فيها والاعتبار لها . ويعرض لهم (للناس) من ذلك سهو وغفلة ... » .

عملية التفكير

تبدأ عملية التفكير في الحواس ثم تنتقل الدماغ. قال اخوان الصفا (٢:٣٤٧) « ينتشر من مقدم الدماغ عصبات لطيفـــة تتصل باصول الحواس وتتفرق هناك

وتنسج في اجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت » . فاذا باشرت الحواس شيئاً من المحسوسات تغير مزاجها وحدث فيها تغيير . عندئذ ينتقل هذا التغيير الى القوة المتخيلة التي هي في مقدم الدماغ (٢ : ٣٢٨ ، راجع ٣٤١ ، ثم ٣ : ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٧٦) ، وينتقل معه طبعاً رسوم المحسوسات (٣ : ٢٩) . حينئذ تدفع القوة المتخيلة آثار هذه المحسوسات الى القوة المفكرة التي هي وسط الدماغ (٣ : ٢٩ راجع ٢ : ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٧٦) ، لتنظر فيها وترى في معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ، ثم تؤديها الى القوة الحافظة التي هي في مؤخرة الدماغ لتحفظها الى وقت التذكار (٢ : ٣٤٧ ، راجع ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣ : ٣٧٦) .

ويحتاج الانسان الى الاستغراق اذا اراد ان يفكر في امر غامض . ومعنى ذلك ان النفس تترك تأمل المحسوسات فتسكن جوارحها ويبطل ادراكها بها تقريباً ، حتى لو ان شخصاً مرّ بالذي يفكر على هذا الشكل وسلم عليه لما انتبه له . ويريد اخوان الصفا من ذلك ان يبرهنوا على ان جوهر النفس مخالف لجوهر البدن (٤ : ١٤٥) .

والناس متفاوتو الدرجات في قوة تخيلهم ؛ وذلك راجع « لاختلاف تركيب ادمغتهم واعتدال امزجتها كما ذكر في كتب الطب » (٣ : ٣٨٨) . وهم مختلفون ايضاً في قوتهم المفكرة (٣ : ٣٩٢) .

ومع اعتراف اخوان الصفا بان الانسان يستطيع ان يتخيل اشياء لها وجود واشياء ليس لها وجود ، كأن يتخيل مثلاً جملا على رأس نخلة او يتخيل نخلة نابتة على ظهر جمل ، فان مرد ذلك كله الى تلاعب مخيلته باشياء قد ادركتها فعلا بالحواس في ازمنة مختلفة او امكنة مختلفة (٣ : ٣٨٦ - ٣٨٧) .

الفصل السادس

علم الحياة

نشوء الحياة وتطورها

تتجلى عبقرية اخوان الصفا في علم الحياة كما تجلت في الطبيعيات او اكثر ، وذلك لأن علم الحياة اكثر تداخلاً في الدين واشد مساساً بالعقائد . واذا زعم زاعم ان اخوان الصفا لم يأتوا في ذلك بشيء جديد — وقد يكون هذا الزعم صحيحا الى حد ما — فردنا عليه يجري هذا المجرى : ان العبقرية ليست دائماً السبق الى الابتداع ، بل هي ايضاً في معرفة الخطأ من الصواب في الاشياء المعروفة . ان هذه الامور التي نسبت الى اليونان قد ظلت مطوية عن اوروبة قروناً عديدة ولم ينشأ ، في اوروبة كلها قبل القرن السابع عشر ، رجل بلغت فيه العبقرية مبلغ من يعرف قيمة هذه الامور ، ولا مبلغ من يجرؤ على اعلانها فيما لو عرفها . وسترى صحة آراء اخوان الصفا في علم الحياة حينما توازن بينها وبين الآراء التي عرفها العلماء المعاصرون .

النبات

لاخوان الصفا رسالة غرضهم منها « تعديد اجناس النبات وكيفية تكوينها ونشؤها واسباب اختلاف انواعها من الاشكال والالوان والطعوم والروائح ، واوراقها وازهارها وحبوبها وبذورها ونموها وعروقها وقضبانها واصولها (وما فيها) من المنافع (٢ : ١٢٨) » . واول ما يلفت نظرهم ان النبات — والحيوان ايضاً — لا يخرج عن صور جنسه او يتجاوز اشكال نوعه ، وذلك انه ما رؤيت ورقة زيتون

خرجت من شجرة جوز ولا حبة شعير خرجت من سنبلة حنطة (٢:١٣١) . ومع ان غذاء جميع الاشجار واحد ، فان كل شجرة تحول ذلك الغذاء الواحد الى ما يوافق مزاجها وينتج ورقها وزهرها وثمرها الخاص بها (٢:١٣٢) . ثم هم يذكرون كيفية تغذي النبات (٢:١٣٤) ويذكرون صفاته وانواعه ، ويتكلمون على صورة نبته وعلى نسبة ورقه الى ثمره ، فالرمان مثلا صغير الورق كبير الثمر ، والتين صغير الثمر كبير الورق . وهم يذكرون كذلك بيئات النبات في البراري ومجاري المياه او في البلاد الباردة او الدافئة ، ويتكلمون على فصوله كأن ينبت او يثمر في الخريف او الربيع ، ثم يذكرون اشكال ورقه وزهره وثمره ... ويتكلمون ايضا على النبات الطفيلي الذي يتعلق بغيره وينمو عليه (٢:١٣٥-١٤٣) . ويرى اخوان الصفا ان لاشكال النبات وتركيبها على ما هي عليه اسبابا وعللا (٢:١٤٦ - ١٥١) ، على ما نعرفه كله في علم النبات الحديث . ويرون ان صور النبات منكوسة الانتصاب الى اسفل ، لأن رؤوسها نحو مركز الارض ومؤخرها نحو محيط الافلاك (٢:١٥٥) .

الحيوان

وكذلك لاخوان الصفا رسالة في كيفية تكوين الحيوايات واصنافها (٢:١٥٢ وما بعدها) يذكرون فيها الحيوانات التامة الخلقة من ذوات الثدي ، اي التي تلد وترضع ، والحيوانات الناقصة الخلقة من الهوامّ والحشرات التي تتكون من العفونات ، ثم الحيوانات التي هي بين هذين النوعين كالطيور التي تبيض وتحضن البيض (٢ : ١٥٤) .

ويختلف الحيوان (البهيم) من النبات بانه جسم «متحرك حساس» يحس ويتحرك حركة مكانية (ينتقل من مكان الى آخر) . وهو فوق ذلك على مراتب مختلفة من قوة الحس ودقة التمييز وقبول التعليم (٢ : ١٥٧) . ويتكلم اخوان الصفا على اصناف الحيوان وصفاته في تكوينه ، فمنها ما له اربع ارجل ومنها ما له ست ارجل او اكثر . ومنها ما يطير بجناحين او اربعة . ومنها ما يتدحرج او يزحف

او ينساب او يدب . ومنهـــا ما له مخالب وقرون . ثم يتكلمون على اعضاء الحيوانات المختلفة وانواعها من وحوش وطيور وهوامّ ، وعلى كبار الحيوانات وصغارها في الجثة (٢ : ١٥٨ — ١٦٢) . ثم يتمون الكلام على اصواتهـــا وهيئة طيرانها واخلاقها وعاداتها (٢ : ١٦٣ — ١٧٣) ، مما نعرفه في علم الحيوان الحديث ، جمعه اخوان الصفا من كتب من قبلهم . ولعلهم زادوا عليه شيئاً من ملاحظاتهم الخاصة وتعليلاتهم التي توافق مذهبهم .

الانسان

يعرّف اخوان الصفا الانسان بقولهم (٢ : ٣١٩) : « ان اسم الانسان انما هو واقع على هذا الجسد الذي هو كالبيت المبني وعلى هذه النفس التي تسكن هذا الجسد ، وهما جميعاً جزءان له وهو جملتهما والمجموع منهما . ولكن احد الجزئين — الذي هو النفس — اشرف ... » .

ومع ان « الاخوان » يتكلمون على تشريح الجسد وتبيان اعضائه وتركيبها (٢ : ٣٢٠ وما بعدها) ، فان عمـــدة اهتمامهم به من ناحية حواسه وعقله ونفسه وتفكيره . وهم يوازنون بين تركيب الجسد ، جسد الانسان ، وافعاله وبين ترتيب المدينة (الحكومة) وما فيها من طبقات الحكام والناس (٢ ٣٢٢ وما بعدها) . فالانسان عندهم « عالم صغير » كالنظام الشمسي مثلا .

نشوء الحياة وتطور الحيوان[١]

في رسائل اخوان الصفا نظريتان لنشوء الحيـــاة ، احداهما سياسية مقصودة توسعهم فيها وترديدهـا في اماكن مختلفـة ، والثانيـة عارضة لا تمثل رأيهم في الحياة ، بل تمثل الرأي الديني وتتمثل في قولهم (٢ : ١٦٠) : « ... ان الحيوانات التامة الخلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كونت في بدء الخلق ذكراً وانثى من الطين تحت خط الاستواء ... » ومعنى ذلك ان الله تعالى خلق منذ بدء الخلق ذكراً وانثى من الابل ، وذكراً وانثى من الخيل ، وذكراً وانثى من الاسود والفيلة

١ — الحيوان كل ذي حياة من نبات او بهيم او انسان .

والنعام ... الخ .

ولذلك يقولون ان الله خلق آدم وحواء من الطين واسكنهما الجنة على ما يُعرف من الكتب المنزلة (٣ : ١٢٢ — ١٢٤) .

ما نظريتهم الخاصة في الخلق فهي نظرية التطور ، كقولهم (٢ : ١٤١ — ١٤٢) : « واعلم يا اخي — ايدك الله وايانا بروح منـــه — ان الباري جل ثناؤه لما ابدع الموجودات واخترع الكائنات جعل اصلها كلها من هيولى (مادة) واحدة ، وخالف بينها بالصور المختلفة ، وجعلها اجناساً وانواعاً مختلفة متفننة متباينة . ثم قوّى ما بين اطرافها وربط اوائلها واواخرها بما قبلها (وما بعدها[1]) رباطاً واحداً على ترتيب ونظام لما (في ذلك) من اتقان الحكمة واحكام الصنعة لتكون الموجودات كلها عالماً واحداً منتظماً نظاماً واحداً وترتيباً واحداً ، ولتدل على صانع أحَد » .

والمعادن عند اخوان الصفا اسبق في الوجود على كل ذي حياة من نبات او بهيم او انسان (٣ : ١٩) . والنبات متقدم الكون والوجود على الحيوان (البهيم) بالزمان ... والنبات مادة للحيوان وغذاء له (٢ : ١٥٤) . ثم ان حيوان الماء اسبق في الوجود على حيوان البر (٢ : ١٥٤ — ١٥٥) . وكذلك الحيوانات كلها متقدمة الوجود عـــلى الانسان بالزمان (٢ : ١٥٥) ، والانسان جاء بعدها كلها (٣ : ١٩ ، ٢٠) .

ولما حاول اخوان الصفا ان يتخيلوا ترتيب ذوات الحياة في سلم التطور اصابوا في الاتجاه . اما التفاصيل فاصابوا في بعضها واخطأوا في بعضها الآخر .

فمما اصابوا فيه انهم جعلوا كل مرتبة من مراتب الوجود الاربعة : المعادن والنبات والحيوان (البهائم) والانسان على درجات مختلفة من الرقي والكمال . ولقد جعلوا لكل مرتبة طرفين : طرفاً ادنى يتصل بالمرتبة التي هي دونه ، وطرفاً اعلى يتصل بالمرتبة التي هي فوقه . وكذلك جعلوا افراد المرتبة الواحـدة متفاوتي المنزلة فيما بينهم . واليـــك الآن قولهم هم مجملا موجزاً (٢ : ١٤٢ وما بعدها ، ٤ : ٣١٤ وما بعدها) :

---

١ — الزيادة مني ، لان سياق المعنى يقتضيها ، راجع ٢ : ١٤٢ .

« فمن اجل (بتشديد اللام — ؟) تلك الموجودات المختلفة الاجناس المتباينة الانواع المربوطة اوائلها باواخرها بما قبلها في الترتيب وانتظام المولّدات، الكائنات (بالضم — ؟) التي دون فلك القمر ، وهي اربعة اجناس : المعادن والنبات والحيوان والانسان . وذلك ان كل جنس منها تحته انواع كثيرة ، فمنها ما هو في ادون المراتب ومنها ما هو في اشرفها واعلاها، ومنها ما هو بين الطرفين . فادون المعادن مما يلي التراب الجص ... والطرف الاشرف الياقوت . والذهب الاحمر .

«وهكذا حكم النبات فانه انواع متباينة متفاوتة، ولكن منه ما هو في أدون الرتبة مما يلي رتبة المعادن،وهو خضراء الدِمن (والكمأة وانواع الفطر)، وخضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الارض والصخور والاحجار ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة كأنها نَبْتٌ زُرِعَ . ومن اجل ان (هذا النوع ليس له ثمرة ولا ورقة وانه يكون في التراب كما تكون المعادن صار من هذه الجهة يشبه المعدن ، ومن جهة اخرى يشبه النبات ... واما النخل فهو آخر المرتبة النباتية مما يلي الحيوانية ، وذلك ان النخل نبات حيواني لأن بعض احواله مباين لاحوال النبات، وان كان جسمه نباتا... والدليل على ذلك ان اشخاص الفحولة منه مباينة لاشخاص الاناث . ولاشخاص فحولته لقاح في اناثها كما يكون ذلك للحيوان[1] ...

« واما أدون الحيوان وأنقصه فهو الذي ليس له الا حاسة واحدة ، حاسة اللمس حَسْبُ، كالاصداف وما كان كاجناس الديدان، (وهذه) كلها تتكون في الطين او في الماء او في الخل او في لب الثمر ... او في اجسام الحيوانات الكبار الجثة ... وهذا النوع من الحيوانات اجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجسمه رقيق وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ويحس اللمس ، وليس له حاسة اخرى، لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر... وهو سريع التكون وسريع الهلاك والفساد والبلى[2] . ومنها ما هو أتم بنية واكمل خلقة كالدود المتكون على ورق

١ — لا ريب في ان اخوان الصفا يخطئون في عد النخل ارقى انواع النبات لما نعرفه من علم النبات الحديث .

٢ — يصف اخوان الصفا الحيوان (الحيوان النباتي) الموجود في المياه فقط والذي يعرف في العلم باسم « الاميبا » وهو حيوان ذو خلية واحدة ، وهو ادنى انواع الحيوان والنبات معاً .

الشجر والنبات ، ولها ذوق ولمس ... ثم منها ما هو اكمل ايضاً وهو كل حيوان له لمس وذوق وشم ... وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمواضع المظلمة ... ثم تأتي الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة ولها لمس وذوق وسمع وشم ، ولكن ليس لها بصر ... ثم يأتي ما هو أتم بنية واكمل صورة، وهو كل حيوان بدئه مؤلف من اعضاء مختلفة الاشكال كل عضو مركب من عدة قطعات من العظام ...

« ثم ان رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الانسانية هي ليست من وجه واحدولكن من عدة وجوه ...فمنها ما قارب رتبة الانسانية بصورة الجسدانية مثل القرد (٤ : ٣١٧) » .

السيلان : والذوبان والبقاء

وقريب من قول اخوان الصفا في التطور قولهم ان الدنيا هي « دار الفناء والتغيير والسيلان ساعة بساعة (٤ : ١١٣) » ، اي ان مظاهر العالم لا تستقرعلى حال واحدة ابداً ، وذلك رأي هيراكليطوس (ت : ٤٧٥ ق م) . وعلى هذا تذوب « الاشخاص » على الدوام ، اما « الصور » فباقية : ان زيداً وعمراً وبكراً وخالداً من الناس يفنون ويزولون من هذا العالم ليحل محلهم اشخاص آخرون. اما « صورة الانسان » فهي باقية خالدة (راجع ٤ : ١٤ ، ٤) .

الا ان هذا السيلان يجري على نظام طبيعي، مثال ذلك « حال النبات وتكوينه من التراب والماء والنار والهواء ورجوعه اليها في دوران كالدولاب ... يبدو وينشأ ويتم ويكمل حتى اذا بلغ الى اقصى غاياته ومنتهى نهاياته رجع عند البلى والفساد الى ما تكون منه ... وبيان ذلك ان النبات يمتص بعروقه لطائف الاركان ويصيرها ورقاً وحباً وثماراً يتناولها الحيوان ليتغذى ، ثم يستحيل ذلك في ابدان بعضها لحماً ودماً ، وبعضها ثقلا وسماداً ويرد الى اصول النبات ليتغذى ، منه مرة ثانية ويصير حباً وثماراً ثانياً ويتناوله الحيوان . . . كأن ذلك دولاب دائر (٤ : ٣١٢) » ومثل ذلك الانسان (راجع ٤ : ٣١٣) .

النشوء المرتجل

واخوان الصفا لا يؤمنون بالنشوء المرتجل ، اي بان « الحياة » تنشأ من الجماد ، فقد قالوا (٣ : ١١٠ – ٥١١٣): « اعلم انه لا يجوز في العقل ان يكون حيوان الا من مماسة اسباب او نكاح اجسام » – مع انهم يقرون بان « الحياة الاولى » قد نشأت من غير حياة سابقة عليها – الا انهم يجيزون ذلك في الحيوانات الدنيا ولكن يشترطون تمازج اكثر من طبيعة واحدة ويوجبون ان يتخلل الاجسام التي تنشأ منها الحياة ارتجالا هواء . « وكل مكان لا يدخله الهواء لا يوجد فيه حيوان ، وانما الهواء يجمع بين قوى الطبائع ويؤلف بينها ويحركها حركة الاختلاط والامتزاج ويكسبها النداوة والعفونة والتحليل والتركيب ، ويكون الحرارة فيلقح ذلك المكان ويقبل العفونة من الهواء ... فيحدث ... حيوان » .

ثم هم يستشهدون على ذلك بالرياح التي تلقح الاشجار (٣ : ٣١٣). على ان خطا اخوان الصفا نابع من انهم يعتقدون « ان في الهواء نفسه قوة الحياة لا انه واسطة لحمل اسباب الحياة من مكان الى مكان على ما نعرفه في العلم الحديث . ثم انهم معذورون اذا جهلوا ان ثمت مكروبات غير هوائية (غير محتاجة الى الهواء الطبيعي ، كمكروب التيتانوس) لأنها تستطيع ان تنتزع مركب الهواء (الاكسوجين) من المواد التي تنشأ هي فيها .

الفصل السابع

الالهيات

الله — الفيض — النفس — الحشر

«الالهيات» عمدت فلسفة اخوان الصفا، وهي الغاية من تفلسفهم كله. ورأي اخوان الصفا في هذا الباب ليس الرأي الديني، ولكنه الرأي الفلسفي، وهو اقرب الى رأي الطبيعيين منه الى رأي الالهيين. الا ان اكتشاف رأيهم يقتضي انعام نظر وجلداً، لانهم لا يكادون يقولون شيئاً في هذا الموضوع إلا رمزاً. على ان لاخوان الصفا اعتباراً للالهيات من حيث الوازع الاجتماعي، ولذلك لا يريدون ان يصرحوا بكل شيء لكل احد. اما اذا صرحوا لشخص ما بكل شيء فانهم لا يفعلون ذلك دفعة واحدة، بل حسب تطور استعداد ذلك الشخص. يجب ان نوقن ان اخوان الصفا في ذلك «جماعة وحدهم» يختلفون من كل مذهب فلسفي او ديني آخر حتى من الاسلام كله بجميع مذاهبه.

الله

اخوان الصفا من «المنزهة» الذين ينزهون الله، اي يجلونه عن التشبه بخلقه او التمثل بمخلوقاته. وهم اقرب الى المعتزلة منهم الى الاشعرية.

يرى «الاخوان» ان البشر مختلفون في تخيل الله، وهم في ذلك اربع طبقات (٤ : ٤٩ — ٥١، ٣ : ٨٧ — ٨٨).

(١) من الناس من يرى ان الله تعالى شخص من الاشخاص الفاضلة (ذو

صفات كثيرة ممدوحة) وافعال كثيرة متغايرة لا يشبه احداً من خلقه ... وهو منفرد من جميع خلقه في مكان دون مكان . وبعض هؤلاء يرون انه في السماء فوق رؤوس الخلائق جميعاً . وبعضهم يرى انه فوق العرش في السموات وانه مطلع على اهل السموات والارض ومطلع على كلامهم ويعلم ما في ضمائرهم ...

و « الاخوان » يقولون ان هذا الرأي جيد للعامة من النساء والصبيان والجهال ومن لا يعلم شيئاً من العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية والالهية ، لأن هذا الخيال يحملهم على ان يفعلوا الخير ويتجنبوا الشر ولأن فيه صلاحاً لهم ولمن يعاشرهم من الخاصّ والعام ، وليس يضر الله شيئاً مما اعتقدوه .

(ب) وهنالك طائفة اخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ترى بأن هذا الرأي باطل ، فالله ليس شخصاً بل هو صورة روحانية سارية في جميع الموجودات حيثما كان لا يحويه مكان ولا زمان ولا يناله حس ولا تغيير : وهو لا يخفى عليه من امر خلقه ذرة في الارض والسموات (بل) يعلمها ويراها ويشاهدها في حال وجودها ، وكان يعلمها قبل كونها وبعد فنائها (يعني يعلم مبادىء الاشياء وقوانينها) .

(ج) وثمت طبقة اخرى فوق هؤلاء ايضاً ترى ان الله ليس بذي صورة، لأن الصورة لا تقوم الا في مادة ، بل هو نور بسيط من الانوار الروحانية .

(د) وفوق هؤلاء كلهم من يرى ان الله ليس بشخص ولا صورة بل هو « هوية وحدانية » ذو قوة واحدة وافعال كثيرة وصنائع عجيبة لا يعرف احد من خلقه ما هو واين هو وكيف هو ، وهو الفائض منه وجود الموجودات ، وهو المظهر صورَ الكائنات ... بلا زمان ولا مكان ، بل قال : كن فكان . وهو موجود في كل شيء من غير المخالطة ومع كل شيء من غير الممازجة .. وهذا رأي اخوان الصفا .

الدليل الوجداني

والله معروف بالحس الوجداني (٤ : ٥١) : « اعلم ان الله تعالى جعل بواجب حكمته في جبلة النفوس معرفة هويته طبعاً من غير تعلم ولا اكتساب » ليكون

ذلك داعياً تلك النفوس الى معرفة ماهيته والى معرفة احكام جميع العلوم والمعارف الالهية والطبيعية والرياضية والعقلية والحسية . حتى اذا احكمت (النفوس) هذه العلوم عرفته عند ذلك حق معرفته وسكنت اليه واطمأنت ، وثبتت معه ونالت السعادة القصوى ... ». ذلك لأن « الامور الالهية ... اشياء لا تدركها الحواس ولا تتصورها الاوهام ، ولكن الدليل والبراهين الصادقة باعثة للعقول على الاقرار بها والقبول لها (٣: ٣٧٤). ويعلم ذلك بالعقل الغريزي (٤: ٨، ٣: ٢٢٩)، وذلك ان الناس كلهم العالم والجاهل والخير والشرير والمؤمن والكافر ، كلهم يفزعون عند الشدائد الى الله ويستغيثون به ويتضرعون اليه . حتى البهائم ايضاً في سني الجدب ترفع رؤوسها الى السماء تطلب الغيث (٣ : ٢٢٩) .

الذات والصفات

ويستعرض اخوان الصفا اختلاف الفقهاء في ذات الله وصفاته كالعلم والارادة والمشيئة (٤ : ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٢٥١ — ٢٥٥ وراجع ٣ : ٢٢٩) مما نعرف من احتجاجات علماء الكلام الاشعرية والمعتزلة . ولا حاجة الى تفصيل ذلك لانه ليس من اعتقاد « الاخوان » .

العالم : فيضه او خلقه

« العالم جميع الموجودات المتكونات التي يحويها الفلك (٣ : ٣٦١) » . وينكر اخوان الصفا ان يكون العالم قديماً ، اي بلا صانع حكيم ، ويحملون على القائلين بذلك ، اولئك الذين يزعمون ان الهيولي (المادة) هي اقدم ما في العالم وانها ازلية (٣: ٤٤ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٤ — ٣٣٥ و ٤ : ٦ — ٨ ، ١١ ١٢) .

وهم يعتقدون ان العالم محدث (اي موجود بعد وجود الله) ، وقد خلقه الله من العدم بعد ان لم يكن ، وصنعه وابدعه ابداعاً مطلقاً ، بمعنى انه اوجد الهيولى التي خلق منها هذا العالم ايضاً من العدم بعد ان لم تكن (راجع ٣: ٣٣٩ ، ٤٣٠). الا ان « للخلق » معنيين ، او هو في الحقيقة يفهم من طريقين : طريق العامة

وطريق الخاصة . ثم ان كثيراً من العقلاء ايضاً ، فضلا عن العامة ، يعتقدون ان خلق الله للعالم جرى على ما تجرى عليه مشاهداتهم ، اذ « يظنون ويتوهمون ان وجود العالم من الله تعالى كوجود الدار المبنية من البنّاء ، المستقلة بذاتها المستغنية عن البنّاء بعد بنائه . وليس الامر كما ظنوا وتوهموا لأن بناء الدار تركيب وتأليف من اشياء هي موجودة باعيانها قائمة بذواتها كالتراب والماء والحجارة ... والخشب وما شاكلها . وليس الابداع والاختراع تركيباً وتأليفاً بل احداث واختراع من العدم الى الوجود (٣ : ٣٣٠ ، راجع ٣١٨ — ٣١٩) .

على ان العامة لا يدرون كيفية ذلك وان كانوا يحرصون احياناً على ان يعرفوه ، الا انهم لا يستطيعون فهمه على حقيقته لانهم « جماعة اغبياء بله جهلاء ... من الاخوة (الاولاد) الصغار الضعفاء العقول « القليلي الفهم » . ولذلك يُكتفى اذا سألوا عن خلق العالم وكيفية خلقه ان يقال لهم : خلقه الله من لا شيء ، كما يقال للطفل ، اذا سأل عن الحلاوة ، ان أباه اشتراها او ان امه صنعتها من اشيـــاء لم يعرفها هو . وليس يفيده ان يعرف شيئاً مما وراء ذلك (راجع ٣ : ٤٤ — ٤٦) .

رأي اخوان الصفا : فيض العالم عن الله بالتدريج

واخوان الصفا لا يعتقدون ان العالم اوجد دفعة واحدة ، ولا انه اوجد ايجاداً فوضى . بل اوجد « على تدريج ونظام وترتيب ... على ممر الدهور والازمان ، وذلك ان الهيولى الكلي اعني الجسم المطلق (اي المادة الاولى التي ابدعها الله ثم خلق — صور — منها هذا العالم) قد اتى عليه دهر طويل الى ان تمخض وتمـــيز اللطيف منه من الكثيف ، والى ان قبل الاشكال الفلكية ... ثم تركب بعضها في جوف بعض ، والى ان استدارت اجرام الكواكب ... وركزت في مراكزها والى ان تميزت الاركان الاربعة وترتبت مراتبها وانتظمت نظامها (٣ : ٣٣١) » . اما كيفية حدوث ذلك فيسمى « الفيض » . — ونظرية الفيض على الحقيقـة هي رأي وسط بين « القول بالخلق على ما جاء في الاديان » وبين « القول بقـدم العالم على ما قال الفلاسفة الماديون والعقليون » .

وحتى نتخيل الفيض يجب اولاً ان نتخيل « الالوهية » كرة قطرها غير متناه، وانها كرة روحانية لا مادة فيها ولا صور مختلفات ولا متضادات . ولا بأس في ان نتخيلها — في سبيل تقريب فكرة الفيض من الاذهان فقط — نوراً شاملاً بهياً . في قلب هذه الكرة يحدث تطور وتتشكل عوالم روحانية ايضاً في دوائر متمركزة — كلها ذات مركز واحد — ولكن بعضها اصغر من بعض : الدائرة الخارجية القصوى اكبر الدوائر ، والدائرة الداخلية الدنيا اصغر الدوائر . وكلما كانت الدائرة ابعد عن المحيط الخارجي (او اقرب الى المركز) كانت اقل روحانية واقرب من المادة، وبالتالي ابعد عن الكمال لأنها ابعد عن مقام الالوهية — اذ الالوهية محيطة بكل شيء — ، وكانت اقل شرفاً واكثر نقصاً ، وكانت الصور التي فيها اكثر عدداً واشد تلبساً بالمادة .

وتحسن الاشارة هنا الى ان الفيض يحدث ضرورة — اي لا بد من حدوثه — ولم يكن بالامكان قط الا يحدث ، فان الله جواد كريم حكيم ، وليس فيض العالم عنه الا مظهراً محتوماً لجوده وكرمه وحكمته .

لنرجع قليلا الى نظرية العدد عند اخوان الصفا ولنذكر انهم جعلوا الواحد مبدأ للاعداد مع انه عندهم ليس عدداً ، وان جميع الاعداد من الواحد الى التسعة تنشأ منه : ينشأ العدد « اثنين » بتكرار الواحد مرتين ، ثم ينشأ كل عدد تال للاثنين باضافة « واحد » على العدد الذي سبقه . هكذا تخيل اخوان الصفا ايضاً فيض العالم عن الباري تعالى : قالوا (١ : ٢٨ — ٢٩) :

« اعلم يا اخي — ايدك الله وايانا بروح منه — ان الباري جل ثناؤه اول شيء اخترعه وابدعه من نور وحدانيته كان جوهراً بسيطاً يقال له العقل الفعال كما انشأ الاثنين من الواحد بالتكرار ». هذا « العقل الكلي » او الفعال هو اول فيض فاض من الباري ، واول موجود اوجده الباري (٣ : ٢٢٨ و ٣٢٢) . والعقل الكلي « جوهر بسيط روحاني فيه جميع صور الموجودات غير متراكمة ولا متزاحمة (ولكن منظمة مرتبة) كما تكون صور المصنوعات في نفس الصانع (كالنجار والحداد والمثال) قبل اخراجها ووضعها في الهيولى (٣ : ٢٢٩) — نلاحظ من

ذلك ان العقل الكلي واحد كما ان الله تعالى واحد . وبما ان الله تعالى لا يجوز ان يباشر الوجود بذاته فقد خلق — في رأي اخوان الصفا — العقل الكلي واودع فيه جميع صور الموجودات حتى يستطيع ذلك العقل ان يفيض هذه الصور على المادة من نفسه بعد تلقيها من الله تعالى . فالعقل اذن معلول عن الله مباشرة ، وفيه جميع صور المعلومات ، وهو في غاية التمام والكمال والفضائل (٣:١٩٧) . ثم ان الله تعالى اوجد النفس الكلية من نور العقل الكلي كما انشأ الثلاثة من الاثنين بزيادة الواحد (٣ = ٢ + ١). فالنفس الكلية اذن تفيض من العقل الكلي وتأتي تحته في المرتبة (٣ : ٨ ، ٢٣٠) وهي ادنى منه ، يؤثر هو فيها ولا تؤثر هي فيه . ولكنها بلا ريب تؤثر في ما تحتها وتتحكم فيه بالتحريك والتدوير له والشكل والتصاوير والنقوش ... فمن اجل هذا رُبطت النفس الكلية بالجسم الكلي المطلق — الذي يأتي بعدها في مرتبة الفيض — والذي هو جملة العالم من اعلى الفلك المحيط الى منتهى مركز الارض (لانهم كانوا يرون ان الارض هي مركز العالم) . والنفس الكلية سارية في جميع افلاك العالم واركانه ومولداته (الاجسام المؤلفة من العناصر الاربعة) ومدبرة لها ومحركة لها باذن الله ... (٣ : ٥٤) » .

ويأتي بعد ذلك « الهيولى الاولى » وهي في المرتبة الرابعة في درجات الفيض . هذه الهيولى الاولى صورة روحانية فاضت من النفس الكلية مباشرة (٣:٨،٢٣٠)، وهي جوهر بسيط لم يتلبس بعد بصورة ما ، ولكنّ فيه استعداداً لأن يأخذ كل صورة من صور المصنوعات الالهية الاولى كالرخام والماء والتراب والنبات الخ .. (راجع ٣ : ٣٦٠) . والهيولى ناقصة عاجزة في نفسها، ولذلك كان من الضروري ان تُقبل النفس الكلية عليها وتعنى باصلاحها (٣ : ١٨٨).

ثم يأتي في المرتبة الخامسة « الطبيعة » (٣ : ٨) ، وتسمى ايضاً باللفظ الفلسفي « قوى طبيعية » ، وهي قوة من قوى النفس الكلية منبثة منها في جميع الاجسام التي دون فلك القمر (في الارض وما يحيط بها مباشرة) وهي التي تفعل الحياة من حرارة ونمو ... في الاجسام كلها (راجع ٢ : ٥٥ و ١١٢) . ويقف هنا اثر العقل الفعال في الفيوضات التالية لانها كلها ناقصة لا تليق بعنايته (راجع ٣: ١٩٨).

وفي المرتبة السادسة من دركات الفيض يأتي الجسم (٣:٨)، او الجسم الكلي المطلق على الاصح، وهو ما اصبح له طول وعرض وعمق باطلاق، ولكن قبل ان تتألف منه العناصر الاربعة . والفرق بين الهيولى (المطلقة او الاولى) وبين الجسم الكلي (الذي يسمى ايضاً الهيولى الثانية (٣:١٨٩ ، ١٩٨) ، ان الهيولى لا ابعاد (طول وعرض وعمق) لها ، وهي لا تدرك الا بالوهم . اما الجسم الكلي فقد رقي درجة واصبح له ابعاد فقط) ...

وبعد الجسم الكلي يأتي (في المرتبة السابعة) « الفلك، وهو جسم شفاف كري محيط بالعالم (٣ : ٣٦١) .

ثم تأتي الاركان (او العناصر) الاربعة، وهي الماء والهواء والتراب والنار، في المرتبة الثامنة .

وأخيراً تأتي المولدات — اي الاجسام الجزئية — المؤلفة من العناصر الاربعة ، فتتكثر ذوات الاشياء ويصبح عندنا خشب وحديد وحجر ونبات ولحم الخ ...

هكذا كان يتخيل اخوان الصفا فيض العالم ووجود الاشياء فيه . ولكن هذه النظرية عرضة للنقد ، من ذلك :

(أ) كيف فاضت الهيولى — وهي مادة فوضى مظلمة — من الله وهو نور كله وصورة لا مادة فيها ابداً ؟

(ب) كيف امكن ان يفيض اشياء ناقصة مشوهة عن الله وهو كمال كله؟

(ج) اذا كان الله خيراً كله فكيف أمكن ان يكون في العالم شرور، والعالم قد فاض من الله ؟

ولكن يجب ان لا نحاول الاجابة على هذه الاسئلة ، لأن نظرية الفيض نظرية فاسدة في اساسها لا في تفاصيلها فقط .

النفس :

يرى اخوان الصفا ان في الانسان شيئين متميزين تماماً : الجسد الذي هو مجموع الاعضاء الظاهرة والباطنة المحسوسة من لحم وعصب ودم وما شاكلها ، ثم ذلك الجزء الناطق العاقل المحرك للجسد المدبر له والمظهر به ومنه افعالاً واقوالاً وعلوماً (٤ : ٢٣٨ — ٢٣٩ الخ) :

هذا الجزء هو «النفس» . ومن الغريب ان اخوان الصفـــا — من بين جميع الفلاسفة — يرون ان النفس والروح شيئا واحدا (٣ : ٥٩ ، ٢٧٩) ، وان كان يسبق الى الظن احياناً انهم يفرقون بينهما (٣ : ٢٧٧) .

وهم يعرفون النفس بانها « جوهرة روحانية بسيطة سماوية شفافة حية بذاتها علامة بالقوة فعالة بالطبع وانها باقية بعد مفارقة الجسد ، اما ملتـــذة مسرورة فرحانة واما مغتمة خاسرة (٤ : ٥٧ و ٢٣٩ الخ) . وجوهر النفس ألطف وأشد روحانية من جوهر النور والضياء ، والدليل على ذلك قبوله رسوم المحسوسات والمعقولات جميعها (٣ : ١٢٠) » .

اما « الانفس الجزئية » اي نفوس الاشخاص فانها اجزاء من النفس الكلية ، قالوا : « اعلم يا اخي ان نفسك هي احدى النفوس الجزئية ، وهي قوة من قوى النفس الكلية والفلكية و (لكن) لا هي بعينها ولا منفصلة منها (٢ : ١١١) . وذلك ان للنفس الكلية انواعا كثيرة من الافعال ، منها افعالها « الشخصية التي تظهر من اشخاص الحيوانات وما يجري على ايدي البشر من الصنائع (١ : ٢٢٤) » .

اين كانت النفس قبل ان تتصل بالجسد ؟

قالوا (٣ : ٣٣٢) : « قد أتى على النفس دهر طويل — قبل تعلقها بالجسد — كانت في عالمها الروحاني ومحلها النوراني ودارها الحيوانية [١] مقبلة على علتهـــا (التي هي) العقل الفعال تقبل منه الفيض والفضائـل والخيرات . وكانت منعمة ملتذة مستريحة مسرورة فرحانة . فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات ... أقبلت تطلب ما تفيض (هي) عليه تلك الخيرات والفضائل ... فاقبلت عـــلى الهيولى ... تفيض عليها ... فلما رأى الباري ذلك مكنها من الجسم وهيأه لهـا (٣ : ٣٣٢ راجع ١٠٢) » . ولكن اخوان الصفا يعدون لهو النفس عن عالم العقل واقبالها على التأمل في الهيولى « جناية » تستحق عليها الاخراج من الملأ الاعـلى

---

(١) الحيوانية نسبة الى الحيوان ، والحيوان مصدر بمعنى الحياة الحقيقية ، قال الله تعالى (٢٩ — العنكبوت : ٦٤) « وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

« عالم الالوهية » ، قالوا (٤ : ٢٣٢) : « ان النفس الجزئية لما أهبطت من عالمها الروحاني واسقطت من مرتبتها العالية للجناية ، غرقت في بحر الهيولى وغاصت في قعر امواج الاجسام .. فعرض لها (شيء كثير) من الدهشة والاهوال والمصائب ..

هذه النفس الجزئية تنزل الى الجسد ... يوم مسقط النطفة (١ : ١٦٩) .

الغاية من حياة النفس في الجسد

« النفس في الجسد كالجنين في الرحم » (١ : ١٦٩ و ٣ : ٢٥ ، ٢٦) ، فكما ان الجنين اذا تكامل خلقه في الرحم خرج منه الى الحياة الدنيا ، فكذلك النفس فانها تبقى في الجسد حتى تستكمل فضائلها وتتمكن من بلوغ الكمال بحسب طاقتها (راجع ٣ : ٥١) . فالنفس تحتاج الى الجسد حتى ترقى وتتهذب وتتعلم ، فاذا « كانت نفسك في الدنيا عمياء فهي بعد الممات في الآخرة اعمى واضل سبيلا » (٣ : ٢٩٦ ، ٢٤١ و ٤٢٠) . ولا ريب في ان جميع العلوم والمراتب الشريفة تنالها النفس قبل الموت (٤ : ١٤٣) .

ولكن هنا موضع ملاحظتين : ان النفوس ، وان تكن قد اهبطت كلها من الملأ الاعلى وحظيرة القدس ، فانها تختلف فيما بينها وتتفاضل . ثم ان هذا الجسد حبس للنفس مؤلم لها .

(أ) « في العالم الكبير نفوس كثيرة – بسيطة كلية وجزئية – مختلفات الحالات : فمنها نفوس علامة خيرة فاضلة ، ومنها نفوس علامة شريرة رذلة ، ومنها جاهلة شريرة ، ومنها جاهلة غير شريرة . فالنفوس العلامة الخيرة الفاضلة هي اجناس الملائكة [١] وصالحو المؤمنين والعلماء من الجن والانس . والعلامة الشريرة مردة الشياطين وسحرة الجن والفراعنة والدجالون من الناس . والجاهلة الشريرة انفس السباع الضاربة والجهال الاشرار من الناس . والجاهلة غير الشريرة انفس بعض الحيوانات السليمة كالحمام وغيرها من الحيوان (٣ : ٢١٥) » .

---

(١) الملائكة هنا : نفوس العلماء الصالحين الفاضلين .

فبماذا تتفاضل النفوس اذن فيما بينها ؟ قالوا (٣ : ٣٥) :

« ان النفوس الجزئية يفضل بعضها على بعض باحدى هذه الخصال الاربع : احداها معارفها التي استفادتها بكونها في الجسد ، والثانية اخلاقها التى عددناها (الاخلاق الحميدة والزهد الخ ، ٣ : ٢٢ وما بعدها) . والثالثة آراؤها (الدينية والفلسفية) التي اعتقدتها . والرابعة اعمالها التي اكتسبتها » .

وما دام العمر فسحة للنفس حتى تستكمل فضائلها فان للسن عندهم اهمية كبرى ، ذلك لأن كل مرحلة من مراحل العمر تمكن النفس من اكتساب فضائل مخصوصة . فالدور الاول يمتد من الولادة الى السنة الرابعة من العمر ، ويظهر ان قيمته قليلة . اما الدور الثاني فينتهي بتمام السنة الخامسة عشرة ، وفيه تشتد القوة الناطقة المعبرة عن اسماء المحسوسات . ثم يأتي الدور الثالث الذي ينتهي بتمام الثلاثين من العمر وفيه تظهر القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات . ثم يكون الدور الرابع المنتهي بالاربعين من العمر ، وفيه ترد القوة الحكمية المستبصرة لمعاني المعقولات . وفي الدور الخامس ، وهو يمتد الى تمام خمسين سنة ، يخضع الانسان للقوة الملكية المؤيدة . واخيراً ترد القوة الناموسية الممهدة للمعاد المفارقة للهيولى وتستأنف تدبيراً آخر الى آخر العمر . فان ... استكملت النفس قبل مفارقة الجسد (فضائلها) نزلت قوة المعراج فرقت بها الى الملأ الاعلى حيث تستأنف تدبير آخراً ... والا ردت الى اسفل سافلين ، ثم استؤنف بها التدبير من جديد كما قال الله تعالى [١] ، كما بدأنا اول خلق نعيده ، وعداً علينا انا كنا فاعلين (٣ : ١٩٦ - ١٩٧) .

اما مراتب النفوس كلها فخمس عشرة مرتبة : سبع مراتب فوق مرتبة الانسانية ، ثم مرتبة الانسانية ، ثم سبع مراتب اخرى دون مرتبه الانسانية . ولكنا لا نعلم من هذه المراتب جميعها الا خمساً . وسنمثل لك ذلك فيما يلي (١ : ٢٤٠ - ٢٤٣) :

الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة مجهولات .

السادسة : رتبة القدسية وهي رتبة النبوة والناموسية ، اي وضع الشرائع

---

١ — سورة ٢١ (الانبياء) : ١٠٤ .

والنواميس الالهية للبشر .

السابعة : مرتبة الحكمة ، وهي مرتبة نفوس المؤمنين العارفين والعلماء الراسخين .

الثامنة : مرتبة الانسانية ، وخصالها شهوة العلوم والمعارف وشهوة الصنائع والحذق فيها وشهوة العز والرفعة والشوق اليها واحتمال المذلة والمشقة في سبيلها والفرح والسرور عند الظفر بها .

التاسعة : مرتبة الحيوانية ، وخصالها شهوة التناسل والانتقام والرئاسة والشعور بالحواس والتخيل والاحتراس من العدو ..

العاشرة : مرتبة النباتية ، وخصالها شهوة الغذاء والشوق نحو المأكولات والمشروبات والشبع عند الاستكفاء منها والنفور من الضار منها . وبها القوه الجاذبة والماسكة والهاضمة والنامية الخ .

الحادية عشرة الى السادسة عشرة مجهولات .

(ب) ويرى « الاخوان » ان النفس تسكن الجسد كما يسكن الانسان الدار : ان الجسد وجد من اجل النفس (٢ : ٣٢٢ — ٣٢٣). ثم هو للنفس من جهة ثانية بمنزلة دكان الصانع للصانع (٢ : ٣٢٣ وما بعدها ، ٣ : ٦٢) . وذلك لان النفس وان لم تكن هي جسماً ، فان عملها لا يظهر الا في جسم (٤ : ١٥٨ س) . الا ان هذا الجسم انما هو على الحقيقة سجن للنفس (٣ : ٩٥ ، ٢١٦ الخ) لانه بما فيه من الهيولى الناقصة يحجبها عن كثير من المعارف والفضائل . ثم انه يعرضها للآلام والهموم . ومع « ان النفس بمجردها لا تلحقها الآلام والامراض والاسقام والجوع والعطش والحر والبرد والغموم والهموم والاحزان ونوائب الحدثان » فان هذه كلها « تعرض للنفس » حينما تتصل بالجسد (٢ : ١٨) .

وكما ان الامراض تعرض للاجساد ، فان للنفوس ايضاً امراضاً تعرض لها فتخرجها عن حد الاعتدال وتميل بها عن الهدى حتى لا تنتفع بالحياة الدنيا ولا تنال السعادة في الآخرة . وامراضها اربعة : الجهالات المتراكمة والاخلاق الرديئة والآراء الفاسده والاعمال السيئة » . واما علاج هذه الامراض فينال بالاقتداء بسنة صاحب

الناموس واجتناب المحارم ... ولزوم طلب المعارف والتخلق بالاخلاق الجميلة ... (٣ : ٣٠ — ٣٢) » .

موت النفس : الحشر الاول او الاصغر :

اخوان الصفا لا يخافون الموت بل يعتقدون ان ما بعد الموت خير مما قبله . فالموت عندهم ليس سوى مفارقة النفس للبدن لتتمكن النفس من نيل حياتها الثانية وحياتها الحقيقية (١ : ٢٢٧ ، ٢ : ٣٧٧ ، ٣ : ٥٦) ، والموت عندهم ايضاً يسمى القيامة (٢ : ٤٣) » .

والنفوس تخلد بعد الموت (١ : ٢٦٠ الخ) مفارقةً للجسد ، فان الجسد لا يصحب النفس بعد الموت . الا ان المعارف والاخلاق التي اكتسبتها النفس في اثناء حياتها في الجسد تصحبها (٢ : ٤٣) . فاذا كانت النفس في حياتها الاولى محسنة نالت على احسانها ثواباً (٣ : ١٠٥ — ١٠٦) ، « فعنـــد ذلك ترى تلك الصورة الروحانية وتعاين تلك الجواهر النورانية وتشاهد تلك الامور الخفية ... التي لا يمكن ادراكها بالحواس الجسمانية والمشاعر الجرمانية [١] .. فاذا عاينت تلك الامور تعلقت بها تعلق العاشق بالمعشوق والتزمتها التزام الحبيب المحبوب واتحدت بها اتحاد النور بالنور فتبقى معها ببقائها ... وتفرح برَوحها وريحانها .. (٣ : ٢٩) » . ولكن يظل لهذه النفوس صلة بالنفوس الناقصة المجسدة لتؤيدها وتعمل على رقيها وكمالها (٣ : ٣٤٧) .

فاذا لم تستكمل النفس معارفها وفضائلها في حياتها الدنيا فانها لا تنتفع بعد مفارقة الجسد بحياتها ولا تستقل بذاتها ولا تلتذ بالنعيم في الآخرة (٣ : ٥١ و ٤ : ٤٠) ولا يمكنها النهوض ان الملأ الاعلى ... ولا يعرج بها الى ملكوت السموات وتغلق دونها ابواب السماء ... وتبقى مربوطة محبوسة ... مقيدة في الهواء تهوى دون السماء وتجرها شياطينها التي تتعلق عليها من الشهوات الجسمانيـــة والآراء الفاسدة ... راجعة بها الى قعر الاجسام المدلهمة واسر الطبيعة الجسدانية ... (٣ :

---

١ — نسبة الى جرمان (بكسر الجيم) : جسم .

٣٦ - ٢٧ ، راجع ٩٣ - ٩٤) .

نفوس البهائم :

وحينما يتكلم اخوان الصفا احياناً عن الحيوانات (٣:٢١٥-٢١٦، ٣٥٢) يقصدون نفوس البهائم بلا ريب ، لانهم يذكرون بصراحة (٣ : ٣٧٠) « ان جنة نفس النباتية صورة الحيوانية ، وجنة نفس الحيوانية صورة الانسانية ، وجنة نفس صورة الانسانية صورة الملائكة ... » .

التناسخ والحبوس :

وهم فيما يظهر لا يؤمنون بالتناسخ ، وذلك ان النفس الواحدة تعود الى الحياة الدنيا في اجساد متعددة مختلفة « عقوبة » لها على ما سلف منها من الذنوب في الادوار السالفة (راجع ٣ : ٣٤٣) » . فان اهل السعادة لا تفارق نفوسهم اجسادها الا مرة واحدة ، واما الاشقياء فهم الذين « يتمنون » العود الى الدنيا والتعلق بالاجساد مرة اخرى ويذوقون الموت مرة اخرى ... اعاذك الله ايها الاخ من حال هذه الطائفة ... (١ : ١٦٩) » . كما ان الحيوانات لا تتألم ، لأن في ذلك « عقوبة لها وعذاباً ، كما ظن اهل التناسخ ، بل حتى تنفر من القتل او التلف الباكر (٣ : ٣٤٤ و ٣٤٦ س) . اما الرجوع الى الدنيا فانه غير ممكن (٤ : ٥٥) .

على ان لهم رأياً يدل على قبولهم « التقمص » في حال معينة حينما يتكلمون على حساب النفوس لمكافأتها او معاقبتها فيقولون (٣ : ٢١٨): « وكما ان يوم الحكم (في الدنيا) يقعد القضاة ويحضرون العدول ويدعى الشهود ويحشرون هم والخصوم وتخرج الصكوك ويفصل الحكم ، فهكذا يوم عرض « الحبوس » ، يوم يخرج الوالي ويحضر الاعوان ويخرجون المحبوسين وتتبين براءة قوم منهم فيطلقون وقوم تقام عليهم الحدود (العقاب) ويخلون (الى السعادة التي يستحقونها) ، وقوم يخلدون في الحبس الى يوم الفصل الثاني . وهكذا يوم عرض النفوس يخرج الوالي ويخرج الدواوين ويحضر الكتاب ويدعون المنيبين للعرض وتعطى ارزاق المستحقين ،

ويزاد قوم وقوم ينقصون ، ويثبت قوم وقوم يسقطون ... » ويحدث هـذا العرض للنفوس الجزئية والحكم عليها بمـا تستحقه مرة في كل سبعة آلاف سنة (راجع ٤ : ٤٠٩) .

وكلما حوسب قوم (بعد موتهم) ألحقت نفوسهم بنفوس من تقدمهم ممن هم من طبقتهم وعلى شاكلتهم (٤ : ٥٩) ، ذلك لان « اجساد بعض الحيوانات الكائنات الحية — هنا : البشر ، حبوس لنفوسها ومطامير لها ، وبعضها صراط يجوزون عليه ، وبعضها برزخ الى يوم يبعثون ، وبعضها أعراف ١ لها هم عليها واقفون » .

الحشر الاكبر :

ويبدو لنا ان النفوس الجزئية اذا هي كلها فارقت اجسامها ولم يبق في العالم الذي نحيا فيه حياة ، لم يبق هنالك ضرورة لبقاء النفس الكلية في العالم . حينئذ تعود هذه النفس الكلية — التي كانت النفوس الجزئية تتفرع منها — الى الله فيبطل هذا العالم ولا يبقى في الوجود الا شيء واحد هو الله . هذا هو الحشر الاكبر او القيامة الكبرى (٣ : ٣١٥ — ٣١٦) . ويظهر ان ذلك نهاية للعالم وخراب له ، فقد بين اخوان الصفا (٣ : ٣٢٠ و ٣٢١) كيفية بوار العالم وخراب الافلاك وطي السموات والارضين كطي السجل للكتب ٢ ، التي هي القيامة الكبرى .

كيف تحاسب النفوس :

اذا كانت النفوس ستحاسب فالمفروض ان لله تعالى صلة بهذه النفوس . فكيف يفهم اخوان الصفا هذه الصلة ؟

يرى اخوان الصفا « ان الله خلق الانسان في احسن تقويم ٣ ، وفضله على سائر الحيوان وملكه عليها وسخرها له وجعله خليفة في ارضه يتحكم على جميع ما

---

١ — الاعراف مكان في طرف الجنة مطل على جهنم — راجع سورة الاعراف « ٧ : ٤٦ وما بعدها » .

٢ — سورة ٢١ « الانبياء » : ١٠٤ .

٣ — سورة ٩٥ « التين » : ٤ .

فيها من النبات والحيوان ويتصرف فيها كيف يشاء ويحكم عليها بما يريد ، كل ذلك بتمييز عقله ... فلم يجز في حكمة الباري تعالى ان يتركه بلا وصية ... يبين له فيها ما ينبغي ان يفعل وما لا ينبغي ان يفعل . ولما اوصاه وامره ونهاه لم يجد في حكمته ان يتركه دائماً ولا يدعوه الى حضرته ويسأله عما فعل (٤ : ١٥٧ — ١٥٨) » . ثم ان شر الناس عندهم من لا يؤمن بيوم الحساب (٢ : ٣٠٩ الخ) .

على ان اخوان الصفا يفهمون ذلك على طريق الرمز ويقرون به مجازاً لا حقيقة ، ذلك لان الله تعالى يخاطب الناس ، حتى الانبياء منهم ، على سبيل الرمز (٢ : ٣٣٤) . وكل ما ورد في كتب الانبياء من مثل خلق آدم وعصيانه وسجود الملائكة لآدم وقصة ابليس والجان وشجرة الخلد واخبار القيامة والنفخ في الصور والجواز على الصراط ... رموز لا يجوز عندهم ان تفهم على ظاهرها (٣ : ٧٧ الخ) . وهم يتأولون كل كلمة في القرآن الكريم وفي غيره من كتب الانبياء (٣ : ١٥٤ ، ٢٨٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٣ — ٣٥٨ ، ٤ : ٧٧ ، ١٣٧ الخ الخ) .

الدنيا والآخرة :

ما الدنيا وما الآخرة اذن عند اخوان الصفا ؟ للدنيا عندهم معنيان : المعنى الطبيعي المادي ، وهو ان الدنيا دار سيلان (٤ : ١١٣) تتطور فيها الموجودات وتتبدل فيها المخلوقات وتفسد فيها الاجسام ثم تكون من جديد (٤ : ١٤ ، ٣١٢ — ٣١٧) . ثم ان لها معنى روحياً هو المقصود في بحوثهم الآلهية ، فان همّ اخوان الصفا الآخرة لا الدنيا (٤ : ٢١٥ س) .

والدنيا عندهم لا قيمة لها في نفسها ، ولكنها طريق الى الآخرة . « ان الله لما خلق الانسان جعل اقصى غرضه بلوغ الآخرة ... ولا يمكن (للانسان) ان يصل الى هناك الا بعد ان يمكث في الدنيا زمانا ... فلهذا كان الغرض من الكون في الدنيا ... تتميم صورة النفس وتكميل فضائلها (٤ : ٢٩ ، ٣٥ : ٥٩ الخ) » . فالدنيا على الحقيقة دار محنة وبلوى وتجربة . ولذلك سمى اخوان الصفا الدنيا « هاوية الاجسام » (اي حفرتها) (٤ : ١٣٨) . وجهنم ليست الا دنيانا هذه التي نعيش

فيها (راجع ٣ : ٢١٦) .

والدنيا ايضا « حبس » (سجن) للنفوس الناقصة التي ترد اليها ، ومع ذلك فقد يرد اصحاب النفوس الكاملة لا ليكونوا مسجونين بل ليخلصوا المسجونين (٣:٢١٦).

واخوان الصفا يقيمون النكير على من يجحد الآخرة (٤ : ٥٦ ، ١٠٧)، الا انهم يؤمنون بها على مقتضى نظرهم هم . ان المعرفة بالاخرة عندهم من اشرف المعارف والعلوم (٣:٢٨٦)، ولكن يجب الا نفهم ما يرد من وصف الآخرة على ظاهره (٣:٢١٨ الخ) . فالبعث الحقيقي (الذي يعرفه العامة على انه قيام الاجساد من التراب ورجوع الارواح اليها) انما هو « الانتباه من نوم الغفلة واليقظة من رقدة الجهالة والحياة بروح المعارف والخروج من ظلمات عالم الاجسام الطبيعية .. والترقي الى درجات عالم الارواح ورجوع النفس الى عالمها الروحاني ومحلها النوراني (٣ : ٢٨٩) . اما الحشر عندهم فهو « جمع النفوس الجزئية نحو النفس الكلية واتحاد بعضها ببعض، اذ الجزء احد افراد الكل، والكل مجمع الاجزاء المنفصلة منه ... والاتحاد امتزاج الجواهر الروحانية . و (اما) الحساب (فهو) موافقة النفس الكلية النفوس الجزئية بما عملت عند كونها في الاجساد . والصراط هو الطريق المستقيم القاصد الى الله تعالى (٣ : ٣٧٠ — ٣٧١) » . على ان التصريح بحقيقته الآخرة للعامة واشباههم لا يجوز (٣ : ٢٨٧) .

ونأتي الآن الى « الجنة » عند اخوان الصفا ، فان مكانها في عالم الافلاك وفسحة السموات ، عالم الدوام والبقاء والخلود في النعيم والسرور مع النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين ، (٣ : ٦٤) في اطباق السموات مع الملائكة (٤ : ١٠) .

والجنة كالنار «حال روحانية» ، فقط فان اخوان الصفا يرون من فساد الرأي وألم النفوس اعتقاد بعض الناس ان المرء يباشر (يتزوج) في الجنة ويلتذ ، وانه يشرب الشراب ويكون الله ساقياً له ، او يأكل طيوراً مشوية. وكذلك يأسفون لأن هنالك اناسا يعتقدون « ان رب العالمين الغفور الرحيم الودود البار المحسن الحنان المنان الجواد الكريم الجميل يأمر الملائكة بان يأخذوا الكفار والعصاة

ويرمون بهم في خندق من نار ، وكلما احترقت جلودهم وصاروا فحما ورماداً اعاد (الله) فيهم الرطوبة والحياة ليذوقوا العذاب (من جديد) ... وان في الجحيم تنانين وثعابين وافاعي ، يأكلون الفساق ... وما شا كل ذلك من الاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها . مع ان جميع ما نطق به الانبياء عليهم السلام من صفة الجنة ونعيم اهلها وعذاب النار والعقاب واحوال القيامة كلها حق وصدق لا مرية فيه ، ولكن ليس الامر كما يعتقد هؤلاء الظلمة الكفرة ... (٣ : ٨٧) » .

اما الانبياء فان غرضهم من وصف الجنان وصفا جسمانيا فأنما هو على سبيل التشبيه ليقربوا تصورها من فهم الناس عامة ، وليرغبوا عامة الناس بها ، فان عامة الناس لا يرغبون الا في ما يتحقق (٣ : ٩٠ وما بعدها) » .

اما النجاة في الآخرة فلا تكون بالعبادة والاخلاق الفاضلة فقط بل بالمعارف ايضا (٢ : ١٥٦ — ١٥٧ الخ) . والناجي الحقيقي في الآخرة من كان جامعا لفضائل الامم كلها والاديان جميعها (راجع ٢ : ٣١٦) .

الفصل الثامن

الايمان والاديان

الناحية العملية من الالهيات

أجملت في الفصل السابق رأي اخوان الصفا في الناحية النظرية من الالهيات — في الناحية التي لا ينتظر من الرجل العادي ان يفهم اسبابها ، بل عليها ان يؤمن بها فقط ، وعلى وجه معين نحو وجود الله وفيض العالم وخلود النفس وصفة الآخرة . ثم إني وصلت التي الناحية العملية التي تدخل في طبيعة التدين ويقوم المتدين فيها باعمال معينة كالصلاة والصيام والحج ، او يرجى من المتدين ان يكون له رأي شخصي فيها يدافع عنه ، لأنه يدخل في قيامه بالعبادات التي فرضها عليه دينه كالنبوة والكتب المنزلة والجن والملائكة — مما يدخل في باب الالهيات عند المتاخرين من الفلاسفة . حينئذ فضلت ان اجعل ذلك فصلا خاصاً . وشجعني على ذلك ان اخوان الصفا انفسهم فصلوا بين تينك الناحيتين : الايمان المطلق والتدين العملي ، فصلاً تاماً .

أ — الإيمان

الايمان عند اخوان الصفا هو التصديق للمخبر في ما قال ... فالانبياء يصدقون الملائكة ، كما ان سائر البشر يصدقون الانبياء . والايمان سابق على العلم ، فالانسان لا يستطيع ان يعلم شيئا قبل ان يصل اليه خبره عن طريق ما من الطرق . على ان الناس متفاوتون في الايمان لأنهم متفاوتون في المقدرة العقلية وفي المعارف وفي الحاجة ايضا (٤ : ١٣٦) . اما ماهية الايمان فهي « جمع الخيرات البشرية كلها وفضائل الملائكة » . واما عمدته فهي « الاتباع لاصحاب النواميس (واضعي

الشرائع) بالسمع منهم والطاعة لهم (٤ : ١٣٦ — ١٣٨ الخ) » . وللايمان شرائط منها الرضا بامر الله والتوكل على الله والصبر والاخلاص والزهد في الدنيا (٤ : ١٣٣ وما بعدها) .

على ان حقيقة الايمان خلاف ذلك كله ، فالايمان ظاهر وباطن . ولقد بلغت باخوان الصفا الجرأة ان قالوا على لسان رسول الله « ... كل آية (من القرآن) لها ظاهر وباطن » (٤ : ٢٦) . « فالايمان الظاهر هو الاقرار باللسان بخمسة أشياء : بالله ... والملائكة ... والانبياء ... والوحي ... والقيامة ... واما المؤمن في ظاهر هذا الامر فهو المقر بهذه الاشياء بلسانه المتميز من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والذين اشركوا . وبهذا الاقرار تجري احكام المسلمين من الصلاة والزكاة والحج والصوم وما شاكلها من مفروضات شريعة الاسلام وسنة المؤمنين » . واما الايمان الباطن فهو اضمار القلوب (فقط) على تحقيق هذه الاشياء المقر بها باللسان . فهذا هو حقيقة الايمان (٤ : ١٢٨ — ١٢٩ ، راجع ١٣٦) .

١ . الايمان بالله

اما الايمان بالله خاصة — فوق ما مر بك في الكلام على الالهيات — فيقتضي الاعتقاد بان الله رتب الموجودات وبث فيها القوانين ، ثم منع ان يدخل على هذه القوانين ما يبطلها او ان يبطلها هو بنفسه . وهم يسمون عدم فعل الله افعالا معينة « عجزاً من الهيولى » — اي عجزاً في المادة وفي الموجودات لا عجزاً من الله . ان الجمل [١] لا يدخل في سم الخياط (في ثقب الابرة) لا لأن الله عاجز عن ذلك ، بل لأن ذلك مخالف لطبيعة ثقب الابرة . وكذلك القول بان الله لا يستطيع اخراج ابليس من مملكته لا يجب ان يفهم على انه عجز من الله ، بل على انه « ليس ثمت وجود خارج ملك الله » . وعلى هذا يكون تفسير الآية الكريمة : « والله على كل شيء قدير » اقتدار (الله تعالى في ترتيب الموجودات ثم عمل القوانين الطبيعية في تلك الموجودات

---

(١) الجمل : حمل السفينة الغليظ ، ومنهم من يقول انه الحيوان المعروف بهذا الاسم .

(٣ : ٣٣٥ — ٣٣٦). وبكلمة اوضح : ان الله لا يباشر عملا ما بنفسه بل هو الذي خلق النفس الكلية (الطبيعة) ، والنفس الكلية هي التي تعمل جميع الاعمال الظاهرة في الوجود. إنها هي التي تجذب الطعام الى اعضاء الحيوان، وتلطف الدم وتجفف المادة، وتعمل في تركيب عظام الحيوان وتجعل الجروح تلتئم ، وهي التي تجعل العظام بيض الالوان واللحم احمر ، وهي التي تصور الجنين في الرحم . « وان قال قائل من الشرعيين (رجال الدين) ان هذه كلها (افعال) للخالق يفعل ما يشاء ويصور ما يريد فليعلم ان النفس من فعل الباري تبارك وتعالى ، وانما ذكرنا هذه الافعال ونسبناها الى النفس لأن الباري تعالى لا يباشر الافعال بذاته بل يصدر منه (ذلك) على سبيل الامر ... (٢ : ٣٣٢ وما قبلها) » .

و « العنايه الالهية » ايضاً من هذا الباب : ان علة خلق الاشياء على ما هي عليه فعلا انما كان « الغرض منها النفع الكلي والصلاح العمومي ... وكذلك غروب الشمس وطلوعها والامطار (انما) النفع منها عمومي والصلاح كلي ، وان كان يعرض لبعض الناس والحيوان والنبات من ذلك ضرر جزئي . وهكذا ايضاً قد ينال الانبياء والصالحين واتباعهم شدائد وجهد وآلام في اظهار الدين وافاضة سنن الشريعة في اول الامر ... ولما كان نزول الامر (الالهي والنبوي انما غايته) الصلاح العمومي والنفع الكلي ، كانت الشدائد والجهد والبلوى في جنبه امراً صغيراً جزئياً (٣ : ٣٤٣ — ٣٤٤) » .

وعلى هذا كان ترتيب العالم وتنظيمه على ما اقتضته السياسة الربانية والعناية الالهية (٣ : ٢١٤ وما قبلها). فجعلت مثلا « لكل كائن من الموجودات تحت فلك القمر مقداراً من الوجود والبقاء معلوماً » (٢ : ٣٦٢) . فجعلت سمك كرة النسيم عاليا ومركز السحاب مرتفعا بمقدار الحاجة اليه (٢ : ٦٦ و ٦٩) . وكذلك جميع المظاهر الطبيعية من الاثير والصيف والشتاء والمطر، نظر فيها الى قانون عام شامل لا يضطرب ولا يتبدل، والا فسد هذا العالم الذي نحيا فيه (راجع ٢ : ٧٢ — ٧٤).

وكذلك جعلت الحكمة الالهية والعناية الربانية اعضاء كل شخص من الحيوان مناسبا لجملة جسمه وجعلت له من الاعضاء والمفاصل والعروق والاعصاب والغشاوات

والاوعية بحسب حاجته اليها في جر المنفعة او دفع المضرة ... (٣:٢١ و٢:١٦٤). وهكذا ربطت الحكمة الالهيـــة اطراف الموجودات بعضها ببعض رباطا واحداً ونظمتها نظاما واحداً (٣ : ٢٦٧) » .

فالعناية الالهية اذن تتناول الامور العامة المطلقة « لا الامور الخاصة الجزئية ، ولذلك كان من سوء الرأي — في رأي اخوان الصفا — اعتقاد بعض الناس ان رب العالمين حقود حنق يغتاظ على الكفار والعصاة من خلقه ، او انه خلق خلقا (أي ابليس وجنوده) وناصبهم العداوة (٣ : ٨٦ — ٨٧ ، راجع ٧٧ و ٤ : ٦١) . على انهم يزعمون ان الله اذا وعد عباده (بخير) وفى بوعده لهم ، ولكنه اذا توعدهم (بشر) فانه لاينجز وعيده فيهم ، فعل الاب الشفيق اذا توعد ابنه (٤ : ٣٩) .

٢ . الايمان بالملائكة والجن والشياطين

واذا كان اخوان الصفا يتأولون كل ما ورد في الكتب المنزلة ، فلا يجب ان نستغرب اذا رأيناهم يتأولون وجود الكائنات الروحانية تأولا بعيداً عما عرفه البشر من الدين . جاء في رسائل « الاخوان » ما يلي :

« اعلم يا اخي ، ان الجن والشياطين والمردة موجودون في الامكنة اللائقة بهم التي ينبغي لهم ان يكونوا فيها ، وكذلك الملائكة ، ولكل منهم مقام معلوم. وان من بعض امكنة الجن والشياطين صدور المنافقين من الانس وانها حالّة فيهم للوسوسة والغواية ، ولهم قرناء من الجن يوحي بعضهم الى بعض . وان امكنة الملائكة صدور المؤمنين ومَن فوقهم من الأنبياء والمرسلين (٤ : ٤٤٦) » .

أ) يقول اخوان الصفا (٣ . ٢١٢) : « واذا قلنا الانفس البسيطة فانما نعني قوى النفس الكلية المحركة المدبرة لهذه الاجسام السارية فيها . وهذه القوى نسميها الملائكة الروحانيين في رسائلنا ». ويعتقدون ان الكتب الالهية ترمز بلفظ الملائكة الى قوى الطبيعة (٣ : ١٩٢—١٩٣) وخصوصا تلك القوى التي تسير الكواكب وسائر الاجرام السماوية (٣ : ١٩٢) او ان تلك الكواكب هي الملائكة (١ : ٩٨) .

ثم ان نفوس البشر اذا كانت خيرة ، كان فيها استعداد لان تصبح ملائكة لما

فيهم من الصلاح والخير ، ولما هم عليه من التشبه باعمال الملائكة ومن الاقتداء بالانبياء والرسل . فلا جرم ان هؤلاء « ملائكة بالقوة ، فاذا فارقت نفوسهم اجسادهم كانت (نفوسهم) ملائكة بالفعل » . ويمكن لكل نفس ، تنهج هذا النهج ، ان تصبح بعد مفارقة جسدها ملكا من الملائكة (١ : ٢٩٨ ، ٣٥٩ ، ٢٠٦٠ ، ٣ : ٩٤) .

ب) الشياطين = وكذلك النفوس الشريرة هي شياطين بالقوة (يعني فيها استعداد لتصير شياطين) ، فان فارقت اجسادها صارت شياطين فعلا (٣ : ٩٤). ومثل ذلك المردة وعفاريت الجن (١ : ٩٦) .

ج) ابليس خاصة = ابليس رئيس الشياطين ، والشياطين جنوده (٤ : ٦٢) وحقيقتهم انهم البشر الجاهلون لحقيقة الدين وحقيقة المعاد والثواب والعقاب ، احتجاجاً منهم بان هذه غائبة عن ابصارهم (٣ : ٢٧٦) .

ولكن يجب ان نعلم ان اقرار اخوان الصفا بالملائكة والجن والشياطين انما هو على سبيل الرمز والتأويل لا على ظاهر ما ذكر في الكتب الالهية .

٣ . الايمان بالانبياء

الانبياء عند اخوان الصفا « اطباء النفوس ومنجموها » (٣ : ٢١ و ٤ : ٢٥) فكما ان الجسد محتاج الى من يحفظ عليه صحته او يعيدها اليه اذا فقدها ، فهكذا النفوس محتاجة الى من يداويها ويهذبها . والانبياء هم الذين يفعلون ذلك . ولكن قبل ان نتوغل في الموضوع يجب ان نعرف من هم الانبياء عند اخوان الصفا .

اذا راجعنا خصال الانبياء (٤ : ٣١-٣٤) والصفات التي يتصف بها الانبياء وجدناها « الوحي ... ثم اظهار الدعوة في الامة ، ثم تدوين الكتاب المنزل ... ثم ايضاح معانيه ، ثم وضع السنن ومداواة النفوس وتهذيبها ، ثم معرفة سياسة النفوس الشريرة ، ثم اجراء السنة (الاحكام) في امور الدنيا جميعاً ، ثم التزهيد في الدنيا ، ثم تفصيل احكام الخاص والعام (من طبقات الناس) . وربما كان النبي ملكاً لان النبوة تنظر في امر الدين والدنيا معاً . ولكن ربما كان في الزمن الواحد صاحب نبوة ومعه صاحب ملك ، اذ الملك والدين اخوان توأمان لا قيام لاحدهما

الا بالآخر » .

من هنا ندرك ان الانبياء، عند اخوان الصفا ،ليسوا الافراد الذين نصت عليهم الاديان فقط، بل ان منهم من لم تنص عليه الاديان أو مَن نصت على رفضه. فالانبياء اذن هم :

أ) الذين نصت عليهم الكتب المنزلة كنوح وابراهيم وموسى وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم السلام (١ : ٩٧، ٤ : ٢٥ الخ).

ب) الحكماء القدماء الموحدون الربانيون ،وكذلك العلماء والفلاسفة . هؤلاء يمكن ان يعدوا في الانبياء وان يضعوا شرائع (راجع ٣ : ٣٥٩ ، ٤٢٣ ، ٤ : ١٨٨ — ١٨٩ ، ٢٢٨).وقد يتفق رأي الفلاسفة ورأي الانبياء (٤ : ٩١—٩٢). فالانبياء ليسوا سوى علماء ، ولكنهم ارقى منهم درجة واحدة ، وذلك لأن النبوة هي اعلى درجة وارفع رتبة ينتهي اليها حال البشر مما يلي رتبة الملائكة ... اما البشر فافضلهم العقلاء ، واخيار العقلاء هم العلماء ، وارفعهم منزلة هم الانبياء .ثم بعدهم في الرتبة الفلاسفة والحكماء . والفريقان — اعني الانبياء والفلاسفة — قد اجتمعا واتفقا على ان الاشياء كلها معلولة ، وان الباري هو علتها ... الخ (٤ : ١٧٨ وما بعدها) . ولذلك ترى اخوان الصفا يجمعون بين موسى وعيسى ومحمد وسقراط وزرادشت وعلي والحسين وبين انفسهم هم ايضا في طبقة واحدة (٤ : ٨٣—٨٦). فالمرء يجب ان يكون غير متعصب لمذهب على مذهب » . ثم ان الله وهب لهم (لاخوان الصفا) الهداية » وندبهم لهداية الناس (راجع ٣ : ٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣٥٢ ، راجع ٢١ و ٩٢) .

وهكذا يبدو لنا بوضوح ان النبوة لم تنقطع ، وان وصول البشر الى هذه المرتبة ممكن ابداً الى يوم القيامة (٤ : ١٨٨ الخ) ، وان ذلك ضروري ايضاً .

وكنت احب ان استعرض آراء اخوان الصفا في الانبياء واحداً واحداً ولكن لم اجد فائدة لذلك ما دام الانبياء كلهم واعمال الانبياء كلها ليست في رأيهم الا رموزاً اذا تأولها المرء تأولا صحيحاً كان حتما عليه ان يعمل بها . على انني سأطرفك ببعض الفقرات من هذا الموضوع (٤ : ٨٥ وما بعدها):

« اعلم ايها الاخ البار الرحيم ، ايدك الله وايانا بروح منه ، انا نحن اخوان الصفا كنا نياماً في كهف ابينا آدم حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق البلاد في مملكة صاحب الناموس الاكبر وشاهدنا مدينتنا الروحانية ... التي خرج (طرد) منها ابونا آدم وزوجته وذريتهما لما خدعهما عدوهما اللعين ابليس... فهل لك ان تبادر وتركب معنا سفينة النجاة التي بناها ابونا نوح فتنجو من طوفان الطبيعة ؟.. او هل تنظر معنا حتى تنظر ملكوت السموات التي رآها ابونا ابراهيم لما جن عليه الليل ؟.. او تجيء الى الميقات عند الجانب الايمن (من الطور) حيث قيل : يا موسى ، فيقضى اليك الامر فتكون من الشاهدين ؟ وهل لك ان تصنع ما صنع القوم فينفخ فيك الروح ... حتى تري الايسوع من ميمنة عرش الرب ... او هل لك ان تخرج من ظلمة أهْرِمَنْ حتى ترى اليزْدان قد اشرق منه النور في ساحة افريجون ؟ وهل لك ان تدخل هيكل عاديمون حتى ترى الافلاك التي يحيكها افلاطون ؟.. او هل لك الا ترقد من اول ليلة القدر حتى ترى المعراج ... حيث احمد المبعوث في مكانه المحمود ... وفقك ... الله لفهم هذه الاشارات والرموز ... ».

٤ . الايمان بالوحي

الانسان افضل المخلوقات (راجع ١ : ٢٤٣ الخ) وهو خليفة الله في ارضه (١ : ٢٣٦ الخ) ، وعلى هذا كان الوحي ضرورياً عند اخوان الصفا ، ولكن على مقتضى رأيهم هم . قالوا (٤ : ١٤٣ وما بعدها راجع ١٥٤) :

« واما اعلى رتبة ينالها الانسان من جهة نفسه واشرف درجة يبلغها بصفاء جوهرها فهو قبول الوحي الذي به يعلو الانسان على سائر ابناء جنسه وبه يغلبهم بما يدرك من المعارف الحقيقية بالقوة الناطقه ... والوحي هو إنباء عن امور غائبة عن الحواس يُقدح في نفس الانسان من غير قصد منه ولا تكلف ... على ثلاثة اوجه :

(آ) في المنام عند ترك النفس استعمال الحواس .

(ب) في اليقظة عند سكون الجوارح وهدوء الحواس .

(ج) باستماع صوت من غير رؤية شخص باشارات دائمة».

ويبني اخوان الصفا قبول الوحي عن الملائكة (العقل الفعال او نفوس الصالحين الذي ماتوا) على زكاء النفس وصفاء جوهرها. قالوا (٤ : ١٧١): «فعلى هذا القياس نقول في قبول الانسان الهام الملائكة والوحي. وذلك ان كل انسان[١] تكون نفسه اصفى جوهراً واذكى فهما ... كان قبول نفسه الهام الملائكة والوحي والانباء امكن[٢] وفهمه لمعانيها اسهل، مثل نفوس الانبياء، ثم بعدهم نفوس الصديقين، ثم بعدهم نفوس المؤمنين المصدقين الاخيار الفضلاء الابرار، ثم الامثل فالامثل والاقرب فالاقرب»[٣].

وهكذا نلاحظ ان اخوان الصفا

(١) جعلوا قبول الوحي من عمل النفس ونسبوه الى القوة المتخيلة (٤ : ١٤٤ وما بعدها).

(٢) جعلوا قبول الوحي في طاقة كل انسان ولكن على درجات متفاوتة.

٥. الايمان بالقيامة

ساترك الكلام على ذلك هنا، لأن الكلام على القيامتين الصغرى والكبرى وعلى الآخرة والحساب قد تقدم من قبل.

ب ـ الأديان (الناموس والشرائع)

يرى اخوان الصفا ان معنى الدين في لغة العرب هو الطاعة من جماعة لرئيس واحد (٤ : ٢٤) ... وان الله تعالى جعل الدين طريقاً من الدنيا الى الاخرة وجعل في قوام الدين صلاحاً للدنيا والاخرة جميعاً (٤ : ٢٩)». فالدين الحقيقي عندهم اذن ان ينقاد كل مرؤوس لطاعة رئيسه لا يعصيه فيما يأمره به وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع (٣ : ٤٢٤)، وهو ضروري في سياسة الناس (٤١ : ٣٢-٣٣).

---

١) لاحظ قولهم : كل انسان !

٢) «الهام» مفعول به من المصدر قبول. «امكن» خبر كان.

٣) اقرأ : الامثل فالاقل مثالة والاقرب فالاقل قربا.

ثم ان « كثيراً من الناس ايضاً كلهم مجبولون على التدين والورع ... وهم في دائم الاوقات يسألون الله الرحمة والمغفرة ويطلبون منه حسن التوفيق وخير الآخرة... (٤ : ١٩) ».

واخوان الصفا يحثون الانسان على ان يبحث عن دين بلا عيب ، ولا يعذرونه اذا تمسك بدينه ومذهبه اذا رأى ما هو خير منهما (٤ : ٣٧ - ٣٨) .

اما « الدين » عندهم فهو دين الاسلام (٤ : ٥٩) ، اذ « ملة الاسلام آكد الاسباب لأنه خير دين دان به المتألهون وافضل طريق يقصده الى الله القاصدون ، وهو القدوة بدين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعلم كتابه الذي جاء به مهيمنا على كتب الاولين ، وبسنة الشريعة التي هي اعدل سنة سنها المرسلون (٤ : ٢٤٢) ». وهكذا كان الاسلام افضل الاديان ، والمسلمون افضل الامم (٤ : ١٧٢) .

*

على ان الدين ظاهر وباطن ، واصل وفرع . فالاصل في الدين هو الاعتقاد في الضمير والسر ، ثم الفرع المبني عليه القول والعمل في الجهر والاعلان (٣ : ٤٢٢) .. ثم اعلم ، ايدك الله ، ان علم الدين وآدابه وما يتعلق به نوعان ، فمنها ظاهر جلي ، ومنها ما هو باطن خفي ، ومنها ما هو بين ذاك (٤ : ٤٦) ... فالظاهر هو اعمال الجوارح (اعضاء البدن : كالصوم والصلاة والزواج والبيع) ، والباطن هو اعتقاد الاسرار في الضمائر وهو الاصل (٤ : ٢٤) » .

ولقد لجأ اخوان الصفا الى جعل الدين ظاهراً وباطناً ، ثم ما هو بين بين ، لاعتقادهم ان شكل الدين يجب ان يكون موافقاً للطبقة التي تعتقده : « ثم اعلم ان الناس على طبقات كثيرة في احوالهم من الصنائع والاعمال والاخلاق والآراء والمذاهب والعلوم والمعارف لا يحصي عددها ، ولكن يحصرهم كلهم ثلاث طبقات :

آ - فمنهم العامة ، من النساء والصبيان والجهال ،

ب - ومنهم الخاصة ، من العلماء والحكماء والبالغين فيها ، والراسخين ،

ج - ومنهم متوسطون بين ذلك .

« ... وأولى ما يصلح للعامة من حكم الدين وآدابه ما كان ظاهراً جلياً مكشوفا مثل علم الصلاة والصوم والزكاة والصدقات والقراءة والتسبيح والتهليل وعلم العبادات، ومثل علم الاخبار والروايات والقصص وما شاكلها تعليما وتسليما وايمانا.

« واولى علوم الدين بالمتوسطين بين الخاصة والعامة هو التفقه في احكامها والبحث عن السيرة العادلة والنظر في معاني الالفاظ مثل التفسير والتنزيل والتأويل، والنظر في المحكمات والمتشابهات وطلب الحجة والبرهان، والا يرضى العاقل من الدين تقليداً اذا كان يمكنه الاجتهاد ودقة النظر.

« والذي يصلح للخواص البالغين في الحكمة الراسخين في العلوم، من علم الدين، ان يطلبوه ويليق بهم ان ينظروا فيه ويبحثوا عنه هو النظر في الامور الخفية واسرارها المكنونة ... وهي البحث عن مرامي اصحاب الناموس (اي الانبياء الذين وضعوا الشرائع) في رموزهم واشاراتهم اللطيفة المأخوذة عن الملائكة وما تأويلها وحقيقة معانيها الموجودة في التوراة والانجيل والزبور والفرقان وصحف الانبياء عليهم السلام من الاخبار عن بدء كون العالم وخلق السموات والارض في ستة ايام ... وخلق آدم الاول الترابي ... وما شجرة الخلد ... وما ينتظر في المستقبل ... كالبعث والقيامة ... والصراط ودخول الجنة... (٤:٤٦-٤٧) ». وعلى هذا الاساس وضع الانبياء شرائعهم حتى توافق طبقات اهل ازمانهم (٤:٢٢ وما بعدها، ٢٨٥، ثم ٣: ٤٢٣ وما بعدها).

ويرى اخوان الصفا ان ثمت اموراً تصلح للعوام والخواص على السواء هي القول بحدوث العالم ... وان له بارئا حكيما ... قد احكم امر عالمه واتقن امر خلقه على احسن النظام والترتيب ولم يترك فيه خللا ولا اعوجاجا البتة، فانه لا يجرى في عالمه امر ولا يحدث حدث صغير ولا كبير، دقيق ولا جليل، الا هو يعلمه قبل كونه ... الخ (٣: ٤٢٢ - ٤٢٣) ».

الدين والشريعة

يختلف الدين من الشريعة في نظر اخوان الصفا. فالدين امر الهي وهو اطمئنان

في الانسان واعتقاد بالله وباحوال الدنيا والآخرة ، ولذلك لا يجوز الاكراه في الدين، لأن الاكراه لايمكن ان يغير شيئا في عقيدة الناس الباطنة (راجع ٤ : ٤٧٦).

ثم ان الدين واحد عند جميع الانبياء. ولكن للدين شرائع متعددة بتعدد الانبياء، اوعلى الاصح - كما يرى اخوان الصفا - بتعدد البيئات التي يوجد فيها هؤلاء الانبياء. والشريعة او «شريعة الدين» امر وضعي دنيوي به يكون ثبات الدين ودوامه بين الناس ، ولذلك جاز اكراه الناس على اتباع الشريعة ولم يجز اكراههم على الاخذ بالدين . فالعمل بالشريعة اذن ليس شيئاً اكثر من العمل بظاهر الدين مجاراة للناس ، سواء أكان الانسان يعتقد بما يعمل ام لا يعتقد به (راجع ٤ : ٤٧٦) .

وللشريعة عندهم اسم آخر هو «الناموس» (٤ : ١٠٠، راجع ١٣٨ و١٦٨ و٣ : ٤٨) . والناموس (او الشريعة) عن وضع البشر (٤ : ١٨٦ وما بعدها). اما الغاية من وضع الناموس فذات شقين : شق ديني وشق دنيوي ، ولكنها (اي الغاية) على كل حال غامضة كما يقول اخوان الصفا (٤ : ١٣٧ وما بعدها) . الا انها بلا شك تنحو نحو «البلوغ الى الحق وحكم الصواب وعمل الخير وتجنب الزور والبهتان (٤ : ١٣٨)» .

اما اختلاف الشرائع فلا يضر بالدين (٤ : ٢٤ - ٢٩) لأن كل شريعة تكون بحسب بيئة اهلها المقصودين بها وبحسب زمانهم . والشريعة تكون لاتباعها بمثابة مدينة (دولة) روحانية ، يعيشون فيها عيشة روحية . وكلما كان عدد اتباع الشريعة اكثر كانوا هم اشد سروراً وفرحاً (٤ : ١٨٧) .

ولا يجوز لاحد ان يتهاون بامر الناموس (الشرائع) ، حتى الفلاسفة لا يجوز لهم ذلك (٤ : ١٧٩ - ١٩٠) . وكذلك لا يغفر لاحد ان يستغل امر الشريعة في سبيل الدنيا (٤ : ٢٩-٣٠) .

وقد ذكروا « ان صاحب الناموس يحتاج في وضعه الناموس وتتميمه الى نيف واربعين خصلة من الفضائل البشرية والملكية » (٤ : ٢٧) ، لم يعددوها ولكنهم ذكروا في مكان آخر (٤ : ١٨٢-١٨٦) انها اثنتا عشرة خصلة واثنا عشر رأيا . ثم إنهم يضيفون الى هذه كلها اشياء اخر قد يبلغ مجموعها كلها اربعين .

اما الخصال الاثنتا عشرة فيجب ان يكون صاحب الناموس مفطوراً عليها

فيكون : تام الاعضاء قويها – جيد الفهم – جيد الحفظ – فطنا ذكيا ذا رأي – حسن العبارة – محباً للعلم ذا جلد عليه – محباً للصدق وحسن المعاملة – غير شره في الطعام والشراب والنكاح – كبير النفس عالي الهمة – زاهداً في المال وامور الدنيا – محباً للعدل واهله مبغضاً للجور واهله – قوي العزيمة جسوراً.

واما الآراء العشرة التي يجب على صاحب الشريعة ان يعتقدها فهي : ان للعالم بارئاً حكيما قديماً ... ان ثمت موجودات عقلية مجردة من الهيولي : ملائكة – ان النفوس قد تكون متعلقة باجسادها او مفارقة لها – ان خروج النفس من الجسد لا يفسدها ولا يخرجها من قدرة الباري – ان كل موجود منفرد بذاته لا يصلحه او يفسده الا ما يتعلق به من سوء عمله او فساده – ان الباري اذا امر الناس امراً مكنهم منه ... فمنهم طائع لامره ومنهم راكب نهيه – ان للطاعات والمعاصي ثواباً وعقابا – ان هنالك معاداً (آخرة) – ان الدعاء الى الله (نشر الايمان) اجدر الاعمال بالثواب وارفعها درجة – الدعاة الى الله افضل الناس .

موقفهم من الشرائع والمذاهب :

اخوان الصفا لا ينكرون اختلاف الآراء الذي يتفرع منه اختلاف المذاهب . وليس من عيب في ان يكون بعض الناس مخالفاً لبعض في الرأي (الديني) ، فان للاختلاف عناصر كثيرة ، قال اخوان الصفا (٣ : ٣٧٣ – ٣٧٤ وما بعدها ، راجع ٤٠٦ ، ٤١٠) :

« اعلم ان الناس مختلفون في آرائهم ومذاهبهم كما هم مختلفون في صور ابدانهم واخلاق نفوسهم واعمالهم وصنائعهم ... ثم اعلم ان في اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب (٤ : ٢٨ – ٢٩) فوائد كثيرة » ... فان العقلاء اذا وضعوا مذاهب دعاهم ذلك الى طلب الحجة عند خصومهم وعذراً عند العقلاء انداده، فيكون ذلك سبباً لغوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة ... ووضع القياسات واستخراج النتائج واتساع المعارف وسبباً ليقظة النفوس. ثم ان ذلك يدعوهم الى بحث بعضهم عن عيوب بعض فيكون ذلك تنبيهاً للجميع على ترك الرذائل ... « من اجل

ذلك قيل : اختلاف العلماء رحمة . وخصلة اخرى من فوائد العلماء ، في الاختلاف في احكام الدين وشرائعها وفنون المذاهب ، هي الا يكون امر الدين ضيقاً حرجاً لا رخصة فيه ولا تأويل ... »

والعلماء (من البشر) هم الذين اصّلوا الآراء والمذاهب وفرعوا منها انواع المقالات والاحكام (٣ : ٣٧٤)، وسبب ذلك التفاوت بين العلماء في جودة القريحة وصفاء الذهن ودقة التمييز وحسن الحفظ . فالناس اذا اختلفت ادراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك (٣: ٣٧٦ – ٣٧٧ ، راجع ٣٩٢ و ٤ : ٤٥). ذلك لان المذاهب من وضع العقل الانساني (راجع ٣ : ٢٤١ و ٤٢٧) . اما موقفهم العملي من المذاهب فقد سبقت الاشارة اليه ، فهم يأمرون اخوانهم « ألا يعادوا علما من العلوم او يهجروا كتابا من الكتب والا يتعصبوا لمذهب على مذهب ، لأن رأيهم ومذهبهم يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها » (٤ : ١٠٥) . على انهم ينكرون على الناس ان يأخذوا بالآراء المتناقضة والعقائد الفاسدة .

أ) لا يرى اخوان الصفا حجراً على العاقل ان يعتقد من الآراء ما يستطيع نصرته والدفاع عن صحته . ورجحان عقل كل صاحب مذهب يتبين فيه ويعرف منه في نصرته لدينه بحجج متقنة ومساعدته لاهل مذهبه مما يتعلق به ، وفي حسن عشرته مع ابناء جنسه ، ما لم يكن معتقداً للرأيين المتناقضين ، فانه عند ذلك يكون مخالفاً لنفسه في مذهبه ، ومناقضاً لمذهبه باعتقاده ، وهذا من اكبر العيوب عند العقلاء ومن اشنع اعتقادهم عند العلماء . على انه ليس على العقلاء كبير عيب في مخالفة بعضهم بعضاً ، لأن ذلك من اجل تفاوت درجاتهم (٣ : ٣٩٩) » .

ب) ولكن يظهر بجلاء ان اخوان الصفا يعتقدون ان ثمت آراء فاسدة باطلاق . فلنقسم المذاهب قسمين : احدهما المذاهب غير الاسلامية (الاديان) وثانيهما المذاهب الاسلامية (الفرق الاسلامية) .

ان « الاخوان » ينكرون من المذاهب غير الاسلامية ما يعدونه من الآراء الفاسدة المؤلمة لنفوس معتقديها :

١) مذهب الدهرية الذين يعتقدون ان العالم قديم لا صانع له (٤ : ٥٤ ، ٣:

٤٢٥ - ٤٢٨) .

٢) مذهب المانوية والثنوية الذين زعموا ان للعالم صانعين احدهما خير فاضل ، والاخر شرير رذل ، وهما مجاوران مختلطان او متباينان متنازعان كل واحد منهما مخالف للآخر في شيء او اشياء (٤ : ٥٥ و ٣ : ٣٤٣) .

٣) مذهب اهل التناسخ الذي يقول برجوع النفس بعد الموت الى اجساد متعددة لتكفر في كل دور عن الذنوب التي سلفت منها في الادوار السابقة (٣:٣٤٣،).

٤) المجوس (٤: ١٢٩) .

٥) الصابئة (٤: ١٢٩) الذي ينسبون خلق العالم الى احكام النجوم (٣:٣٤٣).

٦) الذين اشركوا (٤:١٠٩)،اي اعتقدوا بالهين او ثلاثة او اكثر من ذلك.

٧) اليهود (٤:١٢٩) . وهم يفضلون المجوس على اليهود (١ : ٢٣٨) .

٨) النصارى (٤:١٢٩ ، راجع ١٤٧-١٤٨) لانهم اتخذوا اصناماً وتماثيل وصوراً للمسيح ومريم وجبرائيل (٤:٢١)وقالوا بصلب المسيح(٣: ٨٦،٤:٥٧)، مع ان اخوان الصفا انفسهم يتكلمون في القربان والصلب على ما قال النصارى (٤:١٣٤ راجع ٩٤-٩٧) ولكنهم يفعلون ذلك رمزاً على مقتضى طريقتهم .

واذا جاء اخوان الصفا الى الفرق الاسلامية انكروا عليها كثيراً مما تقول به وعادوا الفرق التالية :

٩) الحشوية، الذين يؤمنون بالاسرائيليات المدسوسة في الحديث (راجع ٣:١٠٩).

(١٠) الشيعة من الذين يعتقدون ان الامام مختف من خوف أعدائه (٣:٨٦ و ٤ : ٥٨) واخوان الصفا يتألمون مما جره الخلاف على الامامة (الخلافة) -بين الشيعة وغير الشيعة - من الحروب والبغضاء والفتن (٤:٣٠ وما بعدها) .

١١) اصحاب المذاهب الباطنة (٤:٥٨-٥٩) مع ان اخوان الصفا انفسهم يقولون بالباطن .

١٢) المتكلمين (٤ : ١٠١ ، ٣:٢٣٤) « اذ يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضا (٤:١٢٣)...يأتون بالشبهات ويجادلون بها...وينكرون من احكام شرائعهم وآيات كتبهم ما لا يفهمون ... ثم يعتقدون فيها آراء فاسدة ومذاهب مختلفة ،

ويضعون لها قياسات متفاوتة بعقولهم الناقصة ... ويحتجون بآيات من كتب الانبياء ويفسرون معانيها على ما يوافق مذاهبهم وآرائهم وقياساتهم ... وهم مع ذلك يتعاطون المعقولات ، وهم لا يعرفون حقائق المحسوسات ، ويتكلمون في العلوم والالهيات وهم لا يدرون ما الرياضيات ولا علم الفلسفة يعرفونها ولا احكام الشريعة يحققونها ... (٤:١٥٧ وما بعدها) . ولا يعرفون من الفلسفة الا اسمها (٤:١٠١).

(١٣) الاشعرية خاصة، والمشبهة منهم. يحمل اخوان الصفا على المشبهة «الجاهلين الذين يصفون الله بصفات المخلوقين (٣ : ٣٧٥) » حملة منكرة ، لانهم يفسرون القرآن على ظاهره فيفسرون الاستواء على العرش بالجلوس والتمكن ، ورؤية الله يوم القيامة بالنظر الى جسم (٣ : ٣٢٤) . ثم يتابعون الحملة عليهم فيقولون : ان في الناموس ... اقواماً من الشرعيين لا يعرفون من اسرار الشريعة الا رسومها يتصدون ويتكلمون فيها بما لا يحسنون ويتناظرون في ما لا يدرون فيناقضون تارة الفلسفة بالشريعة، وتارة الشريعة بالفلسفة فيقعون في الحيرة والشكوك فيَضلون ويُضلون (٤ : ١٠١) ».

وهم يحكمون على الاشعرية حكما قاسياً فيقولون عنهم (٤ : ٦٩) : « هذه الطائفة المجادلة المخاصمة الكفرة الفجرة الذين يخوضون في المعقولات وهم لا يعلمون في المحسوسات ، ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا يحسنون الرياضيات ، ويتكلمون في الالهيات وهم يجهلون الطبيعيات ، ويتصدرون في المجالس ويتجادلون في اشياء لا تفيد الدين علماً ولا تنتج في الحكمة فائدة مثل كلامهم في التعديل والتجوير[1] والجزء الذى لا يتجزأ ... ويدّعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام والحجاج في الجدل ... (٤ : ٦٩و١١٣) » .

ثم يعودون الى الحملة على الاشعرية فيقولون عنهم : « يخوضون في طغيانهم وجهالاتهم ويدعون فيها المحالات ، وربما يصعون في ابطالها المقالات المزخرفة

---

(١) في الاصل التجويز (؟) - والصواب التجوير : يرى المعتزلة ان الله اذا كتب على الانسان خطيئة ثم عذبه بها كان جائراً ظالماً . ولكن اذا كان الانسان حراً في اعماله ثم عاقبه الله على سيئاته كان الله عادلا .

ويعارضون بها الحكماء والعلماء ويشنعون بها عليهم ، مثل قولهم : ان علم الطب والنجوم باطل ... وان علم الهندسة لا حقيقة له ، وان علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة وان اهلها ملحدون ... ومع هذه البلية كلها يدّعون انهم بهذا الفعل ينصرون الاسلام ويُقرون الدين (٤ : ٦٩ — ٧١) ».

(١٤) الجبرية والقدرية — يقول الجبرية كل ما يفعله الانسان من خير او شر او حسن او قبيح قد كتبه الله عليه منذ الازل ، لا خيرة له في ترك القبيح ولا في عمل الجميل، اذ هو مسير لا مخير. اما القدرية فيعتقدون ان كل ما يفعله الانسان يفعله باختياره وقدرته : يفعل ما شاء خيراً او شراً ، ويترك ما شاء: خيراً اوشراً.

ان اخوان الصفا يذكرون ان هذه القضية «احدى مسائل الخلاف بين الناس»، ثم هم ينكرون رأي الفريقين في ذلك ولكنهم يقولون « بالجبر الطبيعي»[١] او الحتمية وهو ان الله قد وضع في الانسان قوة ، فالانسان يفعل ما يفعل او يترك ما يترك بتلك القوة التي وضعها الله فيه ، فالانسان لا يستطيع ان يخالف طبيعته ولا اسباب البيئة المحيطة به (راجع ٤ : ٣٥ - ٣٦)

وعلى كل فانهم يرون ان « الجدال » من حيث هو جدال لا نفع منه، فيقولون عن اهل الفرق المختلفة (٣ : ٤٠٩) : فلو تركوا جدالهم واشتغلوا بما ينفعهم من اعمالهم الصالحة والتخلق بالاخلاق الجميلة وطلبوا الآداب المحمودة لكان خيراً لهم من الجدال والخصومات والغضب والتعصب والعداوات » .

المعجزات

وبعد الكلام على « الجبر » يأتي الكلام على « المعجزات » . واخوان الصفا

---

(١) الجبر فكرة دينية تقول بان ما يفعله الانسان في هذه الدنيا مكتوب عليه منذ الازل ، ولا يمكن له ان يتحرر مما هو مكتوب عليه ولا ان يصرفه عنه . والحتمية فكرة فلسفية تقول بان في الانسان نفسه وفي بيئته عوامل طبيعية واجتماعية هي التي تقرر توجيهه في حياته الجسدية والاجتماعية والروحية . ثم ان كل ما يصيب الانسان انما هو موافقة اسباب من خارجه لاسباب في داخله . والارتباط بين هذه الاسباب الخارجية والداخلية هو ما يسميه ابن رشد بالقضاء والقدر (فلسفة ابن رشد : ثلاث رسائل لابن رشد — نشرها محمود علي صبيح ، صاحب ومدير المكتبة المحمودية التجارية ، ص ١٠٤ وما بعدها ، وخصوصاً ص ١٠٧ وما بعدها).

يؤمنون بالمعجزات على طريقتهم هم . كشأنهم في كل امر آخر ، انهم يقولون (٤ : ٣٦٢-٣٦٣) : « ومعجزات الانبياء وآيات الحكماء تنقسم على اقسام كثيرة مختلفة متباينة . . . كذلك ادوية الاطباء تختلف بحسب اختـــلاف العلل . ومن المعجزات ما يكون سخطاً ونقمة . . . فالنعمة والرحمة من ذلك ما ظهر من فضل النبي في ذلك الزمان الموجب لظهوره وما جاء به من الخيرات والبركات . . . كنزول النصر عليه من عند الله وقوة من استجاب اليه واتساع دوره وعلو ذكره . . . ومنفعة اهل ذلك الزمان به ، واجتماعهم على دينه . . . والمعجزات . . . علم الهي وتعليم رباني يتصل (بالانبياء) من الملائكة وحياً والهاما ، وليس هو تعليما ارضيا ولا علما جزئيا وانما هو تأييد كلي وفيض عقلي . واكثر معجزات الانبياء ما يجري مجرى الرحمة لا مجرى النقمة والعذاب ، لأن الرسل ارسلوا للاصلاح لا للفساد ، وللهدى لا للانتقام . ولكن « اذا لجت الامم الطاغية في العصيان . . . بعد ان وجبت عليهم الحجة . . . اتت الانبياء بالآيات واظهرت المعجزات وخرقت العادات فاحاطت بالذين كذبوهم البلايا . . . كذلك الطبيب اذا خالفه العليل اول امره صبر عليه وترفق به وداواه بالملاطفة وسهل عليـــه الامر . فاذا تمادى في الخلاف والخروج عن طاعته ومخالفته في ما يأمره به واستعمال ما ينهاه عنه خلاه (الطبيب) ومراده لنفسه ليهلك » .

لاحظ هنا امرين : « احدهما ان المعجزة — اذا كانت رحمة او نقمة — ليست نتيجة لرضى النبي او غضبه ، بل نتيجة لانقياد الناس الى ما يأمر به الانبياء من خير او ينهون عنه من شر . كما ان معجزة الطبيب في شفاء العليل لا تكون الا لأن العليل نفسه اتبع وصية الطبيب . اما هلاك العليل فنتيجة حتمية لمخالفة امر الطبيب فقط ، ولا صلة لها البتة برضى الطبيب او سخطه .

وثانيهما ان المعجزة خرق للعادة فقط (لا للطبيعة) .

الفصل التاسع

الفلسفة الاجتماعية

البيئة — الفلسفة السياسية — التربية والتعليم

كان جُل اهتمام اخوان الصفا بالالهيات . ولم يكن بحثهم في المنطق والرياضيات والطبيعيات وعلم الحياة — مع انهم عقدوا لها فصولا خاصة في رسائلهم — الا تمهيداً لهذا العلم . على انهم في اثناء ابحاثهم كلها تعرضوا هذا وهنالك للفلسفة الاجتماعية ، او هم — على الاصح — ابدوا بعض الآراء في المجتمع . ولقد حاولت ان اجمع انا هذه الآراء ثم استخرج منها نظاماً منطقياً قدر الامكان .

١ — البيئة والمجتمع

لم يأت اخوان الصفا بجديد حينما تكلموا على البيئة والمجتمع وعلى الصلة التي بينهما، فلقد سبقهم الى ذلك ارسطو ، وذكر ذلك الجاحظ قبل ان يظهر امر اخوان الصفا بقرن ونصف قرن .

يرى اخوان الصفا ان الاجرام السماوية عموماً والشمس خاصة تؤثر في الاقطار المختلفة تأثيراً مختلفا ، ثم ينتقل هذا التأثير الى سكان تلك الاقطار (١ : ٩٩ وما بعدها). لذلك يقولون بصراحة (٣ : ٣٥٢) ان اختلاف لغات الناس وألوانهم واخلاقهم وصورهم ... (راجع الى) اختلاف اماكن ابدانهم .. واختلاف تُرَبها وتغييرات اهويتها وطوالع البروج عليها ومسامتات الكواكب ... »

وكانوا يرون — مع قدماء الجغرافيين — ان الارض سبعة اقاليم او مناطق تتدرج في طبيعة مناخها من البرودة الشديدة في الشمال الى الحرارة الشديدة في الجنوب[1] وعلى

---

(١) يعتبر اخوان الصفا « الجنوب » جهة فوق و « الشمال » جهة تحت على خلاف ما اصطلحنا عليه نحن اليوم في المصورات الجغرافية . (راجع ١ : ١١٤ وما بعدها)

هذا كان الاقليم الرابع (الاوسط)-اي البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط - اقليم الانبياء والحكماء لأنه وسط لاقاليم ، ثلاثة منها جنوبية وثلاثة شمالية ... واهل هذا الاقليم اعدل الناس طباعاً واخلاقاً ... ، واكثر اهل (هذا الاقليم) الوانهم ما بين السمرة والبياض ». ويلي هذا الاقليم في الاعتدال الاقليمان المجاوران له شمالا وجنوباً (اي الثالث والخامس) . « اما الاقاليم الباقية (الثاني والاول في الشمال ثم السادس والسابع في الجنوب) فاهلها ناقصون عن طبيعة الافضل ، لأن صورهم سمجة واخلاقهم وحشية مثل الزنج والحبشة واكثر الامم الذين هم في الاقليم الاول والثاني ، وكذلك الامم الذين هم الاقليم السادس والسابع مثل يأجوج ومأجوج والبلغار والصقالبة (السلاف) وامثالهم (١:١٢٥) » .

طبقات البشر

والناس - عند اخوان الصفا - مختلفون من يوم الولادة ، بعضهم من اولاد الملوك والرؤساء ، وبعضهم من اولاد التجار والدهاقين ، وبعضهم من اولاد الفقراء والمساكين (١ : ١٠٢) . وطبقات الناس هذه لا تحصى لكثرتها ، ولكن اخوان الصفا يريدون ان يجمعوها - تسهيلا للفهم والحفظ - في عدد محدود من الطبقات احبوا ان يجعلوها مرة سبعاً (١ : ٢٤٨) ومرة تسعاً (٣ : ٣٩٦) ، ولكنهم عدوا في الحقيقة منها ثماني طبقات في كل مرة . الا انهم ذكروا طبقة في الجزء الاول لم يذكروها في الجزء الثالث فتمت لهم الطبقات تسعاً :

١ - اهل الدين والشرائع والنبوات واصحاب النواميس ومن دونهم من الموسومين بحفظ احكامها ومراعاة سننها والمعروفين بالتعبد فيها (الذين وضعوا الدين والشرائع) .

٢ - أهل العلم والحكماء والادباء واصحاب الرياضات الموسومين بالتعليم والتأديب والرياضات والمعارف (الذين يعلمون الشرائع) .

٣ - الملوك والسلاطين والامراء والرؤساء وارباب السياسات والمتعلقين بخدمتهم من الجنود والاعوان والكتاب والعمال والخزان والولاة وما شاكلهم

(الذين ينفذون الاحكام ويحملون الناس على التقيد بالشرائع) .

وفيما يلي سائر طبقات المجتمع وهم الذين يجب ان يتقيدوا بالشرائع ويخضعوا للطبقات الثلاث الآنفة الذكر (واضعي الدين والشرائع ومعلمي الشرائع ومنفذي احكام الشرائع) :

٤ ـ البنّاءون والزراع والاكرة (الفلاحون) والرعاة للشاة وساسة الدواب ورعاة الحيوان اجمع .

٥ ـ الصناع واصحاب الحرف والمصلحون للامتعة والحوائج .

٦ ـ التجار والباعة والمسافرون والجلابون للامتعة والحوائج من الآفاق .

٧ ـ المتعيشون الذين يعيشون في خدمة غيرهم وقضاء حوائجهم يوماً بيوم .

٨ ـ الضعفاء والسؤال والمكدون (الشحاذون) ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين .

٩ ـ ارباب البنايات والعمارات والاملاك .

ويلفت نظرنا ان اخوان الصفا قسموا طبقات المجتمع حسب « وسائل معيشتهم » ثم جعلوا عاداتهم واخلاقهم تختلف ايضا بحسب ذلك (١ : ٢٤٨ و ٣ : ٣٠٥-٣٠٦ ، ٤ : ٤٦ وما بعدها ، راجع ايضا ٤ : ٢٢ - ٢٣ ، ١١٥) .

ويرى « الاخوان » ان وجود هذه الطبقات انما هو لحكمة ، لأن هذه الخصال والمناقب لا يمكن ان تجتمع في شخص واحد ... ولا ان ينهض بها كلها انسان واحد (٣ : ٣٩٥) . حتى انهم جعلوا لطبقة الفقراء والمساكين فضائل كثيرة ، منها ان يوازن المرء بين حاله وحالهم فيحمد الله على ما خصه به دونهم . ومنها ان الفقراء اشد الناس يقيناً بالآخرة واسرع الناس اجابة للانبياء (٣ : ٣٩٨) .

الحاجة الى التعاون

من اجل ذلك كان البشر محتاجين الى التعاون فيما بينهم ، قال اخوان الصفا (١ : ٦٢) .

اعلم يا اخي ، ايدك الله وايانا بروح منه ، بأن الانسان الواحد لا يقدر ان

يعيش وحده الا عيشاً نكداً لأنه محتاج الى طيب العيش مع احكام صنائع شتى، ولا يمكن الانسان الواحد ان يبلغها كلها لأن العمر قصير والصنائع كثيرة . فمن اجل هذا اجتمع في كل مدينة او قرية اناس كثيرون لمعاونة بعضهم بعضاً . وقد اوجبت الحكمة الالهية والعناية الربانية بأن يشتغل جماعة منهم باحكام الصناعات وجماعة في التجارات وجماعة في تدبير السياسات ... الخ » .

العامة وخاصة العامة

وعلى هامش هذه الطبقات الافقية الضرورية في المجتمع طبقات اخرى عمودية : العامة وخاصة العامة والخاصة ، وقد مر معنا كلام مثل هذا من قبل .

الا ان اخوان الصفا يهاجمون العامة — كما هاجمهم الدين وهاجمهم الفلاسفة — ولكنهم يهاجمون خاصة العامة مهاجمة اشد . قالوا (٤ : ٢١ — ٢٢) :

« ... ان قوماً قد رزقوا من الفهم والتمييز قدراً ، فخرجوا بذلك من جملة العامة و (لكن) لم يحصلوا في جملة الخاصة . فهم لا يعرفون الله حق معرفته ، ولا يتحققونه بصفات وجدانيته ، ولا يعرفون الآخرة علماً واستبصاراً ، ولا يرضون الدين تقليداً وايماناً ، فهم مذبذبون بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فاحذر انت ، يا اخي ، ان تكون من جملتهم فانهم جنود ابليس واخوان الشياطين — يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً [١] ، — يعيبون الديانات ويزرون على اهلها ويهلكون انفسهم ولا يشعرون ... ثم اعلم انهم اسوأ حالا من عابدي الاصنام على كل حال ، لأن عابدي الاصنام يدينون بشيء ويتقربون الى الله ويخافونه ويرجونه . فاما هؤلاء فلا دين لهم ولا يعتقدون شيئا ولا يعبدون ولا يخافون ولا يرجون شيئا » .

ب — الدولة والفلسفة السياسية

يعتقد اخوان الصفا — كما يعتقد سائر الناس — « ان امور هذه الدنيا دول

(١) القرآن ٦ (الانعام) ١١٢ .

ونوب تدور بين اهلها قرنا بعد قرن ومن امة الى امة ومن بلد الى بلد . ثم ان كل دولة لها وقت مه تبتدىء وغاية (ذروة ،عنفوان) اليها ترتقي وحد اليه تنتهي . فاذا بلغت اقصى غايتها ... تسارع اليها الانحطاط والنقصان وبدا في اهلها الشؤم والخذلان واستأنف في الآخرين القوة والنشاط والظهور » . وكما ان الدولة قد تكون دولة اهل شر فانها قد تكون دولة اهل خير ايضا . وهم يشيرون الى انفسهم على انهم دولة اهل الخير (١ : ١٣٠ — ١٣١ راجع ٤ : ٢٣٤ — ٢٣٥) .

وهم يرون ان الدين والدولة لا يفترقان ، فالملك ليس عندهم سوى سنة الدين ، اي الناحية التنفيذية من الدين ، وذلك ان الدين « شريعة » تحتاج الى من يحمل الناس عليها وينفذ اوامرها ويعاقب من يتهاون فيها ، وقد قالوا هم (٢ : ٣٠٨) : « ان الدين والملك اخوان توأمان لا يفترقان ، ولا قوام لاحدهما الا باخيه . غير ان الدين هو الاخ المقدم ... ولا بد للملك من دين يدين به الناس ، ولا بد للدين من ملك يأمر الناس باقامة سنته طوعاً او كرها ... »

ثم ان الناس محتاجون في صلاح امرهم الى ملك ، وذلك لأن الانسان يحتاج في « لذة العيش وصلاح المعاش الى الجم الغفير من المتعاونين في المدن والقرى ... ولا بد لهم من سلطان يملكهم ويرأسهم ويحكم بينهم في ما يختلفون فيه ويتنازعون ويمنع الظالم القوي من التعدي على الضعيف المظلوم » وتأمن من خوفه السبل (٣ : ٢٩٥ ، راجع ١ : ٢٢٣ و ٤ : ٣٢ — ٣٤) .

وسياسة الملك امر دقيق (١ : ٩٩) وقد يكون الملك نفسه جائراً ، ومع ذلك فلا مندوحة عن القبول بحكمه (راجع ٣ : ٢٩٥) . ولكن عمر مثل هذا الملك يكون عادة قصيراً ، لأن الله قاصم كل جبار عنيد ومهلك كل ما رد معتد وهو منصف المظلوم من الظالم (٣ : ١٧٧) . فاذا قبلنا ذلك لم نستغرب ان يقول اخوان الصفا ان العقلاء لا يحتاجون الى رئيس (ملك) لأن عقلهم يقوم هم مقام الرئيس الامام (٤ : ١٨٩) .

انواع السياسات

يذكر اخوان الصفا ان معرفة سياسة الناس مذكورة في كتب السياسة

الفلسفية (١ : ٢٦١) . اما انواع هذه السياسة فخمسة (١: ٢٠٧س- ٢٠٩) :

١ - السياسة النبوية ، وهي وضع الشرائع وتهذيب النفوس .

٢ - السياسة الملوكية، وهي السهر على تنفيذ الشرائع والامر بالمعروف واقامة الحدود ورد المظالم وقمع الاعداء ... وهذه السياسة يختص بها خلفاء الانبياء والائمـــة المهديون .

وهذان النوعان يدخلان في السياسة الروحانية. اما اذا كانت السياسة خارجة عن هذين وكانت قائمة على الظلم والتجبر فيسمونها السياسة الجسمانية (٤: ١٨١-١٨٢).

٣ - السياسة العامية ، وهي الرئاسة على الجماعات كرئاسة الامراء على البلدان ورئاسة قادة الجيوش. وهذه تتلخص بأنها معرفة طبقات المرؤوسين وحالاتهم لمراعاة امورهم وتفقد اسبابهم وتأليف شملهم والتناصف بينهم واستخدامهم في ما يصلحون له من الامور .

٤ و٥ - السياسة الخاصية والسياسة الذاتية ، وسيأتي الكلام عليهما في باب السياسة المدنية خاصة .

جـ - اَلسِّيَاسَةُ اَلْمَدَنِيَّةُ خَاصَّةً

لم يتوسع اخوان الصفا في السياسة المدنية كما توسع فيها الفارابي وابن سينا (١) ، ولكنهم اشاروا اليها في سياق بسط آرائهم في تقسيم العلوم ، وفي اثناء الكلام على العلوم الناموسية الشرعية . وهم يقسمون السياسة المدنية قسمين :

(١) السياسة الخاصية - وهي « معرفة كل انسان كيفية تدبير منزله او امر معيشته ثم مراعاة امر خدمه وغلمانه واولاده ومماليكه واقربائه ، وعشرته مـــع جيرانه ، وصحبته مع اخوانه ... (١ : ٢٠٧) » . وهذا ما يسمى بالسياسة المدنية على وجه الحصر .

(٢) السياسة الذاتية - وهي « معرفة كل انسان نفسه واخلاقه وتفقد افعاله

---

(١) راجع الفارابيان للدكتور عمر فروخ ، الطبعة الثانية (ص ٣١ - ٣٤ و ٣ - ٦٠

واقاويله في حال شهواته وغضبه ورضاه والنظر في جميع اموره (١ : ٢٠٩) .
وهذه على الحقيقة قسمان : قسم يدخل فعلا في باب السياسة المدنية ما دام يتناول صلة الانسان بمن حوله للمعايشة والعشرة ، وقسم يتعلق بالاخلاق ما دام يتناول صدور الافعال عنه بالاضافة الى نفسه او الى مثل عليا معينة . ومتى استطاع الانسان ان يصلح نفسه استطاع بعد ذلك ان يروم اصلاح الآخرين (٤ : ٦٨) .

السياسة الجسمانية

الغاية من تدبير الجسم حفظ العافية عليه ومنع الاذى عنه ، وقوام ذلك شيئان : « الاغتذاء بالموجود غير الممتنع » (الاغتذاء في كل فصل بما ينبت في ذلك الفصل) ، ثم الاقتصاد في الطعام . فاذا دخل على جسمك مرض (مع اقتصادك في الطعام) فالجأ الى الطب واستعن به على استرداد صحتك . ويجب على المرء اذا مرض الا يغتم لأن الغم والتأسف يزيد مدة المرض وخطره من غير ان يفيد شيئاً . واذا علمت ان الغاية القصوى هي الخلاص من هذه الدار (الدنيا) هان عليك احتمال الامراض والعلل ، وهان عليك لقاء الموت اذا نزل . وذلك لأن اهتمامك يجب ان يتناول النفس وخلودها بعد الموت لا الجسد وحياته القصيرة في هذه الدنيا الفانية (٤ : ٢٩٤ - ٢٩٧) . وليست هذه السياسة الجسمانية تابعة لما ذكروه من قبل بهذا الاسم (راجع ٤ : ١٨١ -- ١٨٢) .

السياسة النفسانية

هي السياسة التي يحتاج المرء اليها في معاشرة الناس . وهنالك قسم منها يتناول سلوك الانسان المطلق سنتناوله في باب الاخلاق . اما ما بقي فمكانه هنا :

(أ) - صلة الانسان بالله - هنالك نوعان من العبادة : احدهما العبادة الشرعية الناموسية باتباع صاحب الناموس والانقياد له والقيام بالصلوات والصيام والحج الخ ، ثم العبادة الفلسفية وهي الاقرار بتوحيد الله . ولكن العبادة الشرعية يجب ان تسبق العبادة الفلسفية (٤ : ٣٠١ وما بعد) . ويقصد اخوان الصفا بالعبادة الفلسفية

الانصراف الى محاولة ادراك حقائق الوجود من طريق العلم والتفكير .

(ب) سياسة المرء زوجه — قال اخوان الصفا (٤ : ٢٩٨ — ٢٩٩) : «ان الاحب الينا والآثر عندنا الانفراد والوحدة (عدم الزواج) ، ولكن لا يكاد يتهيأ ذلك لجميع اخواننا ولا نأمرهم به ايضاً لئلا ينقطع الحرث والنسل » ... فاذا تزوجت فعليك بتفقد المرأة دائماً فانها تتلون مع الساعات . وراقبها من غير ان تشعر بك . ولا تغتر بها اذا بدا لك منها صلاح حقيقي ، فان تقلبها كثير وافسادها سهل الا من عصمها الله تعالى ، وقليل ما هم (ما هن !) .

(ج) سياســـة الرجل اخوته واولاده — « يجب عليك ان تسوسهم سياسة لا اختلاف فيها و (ان) تجريهم على عادة لا تعدل عنها الا بموانع واسباب قاطعة ... لئلا يتغيروا هم عليك اذا تغيرت سياستك اياهم .

(د) سياسة العبيد والخدم والحواشي — تجب سياسة هؤلاء على غرار سياسة الاخوة والاولاد ، ثم يجب على الانسان ان يقوم نحوهم بالواجب المفروض لهم عليه . بعدئذ ينصحك اخوان الصفا بقولهم : « اياك ان تظهر لهم فاقة ... فانه اذا ما ظهر لهم منك اختلال او نقص او حاجة نقصت منزلتك (عندهم) وقصر موضعك ، فلم يقم لك وزن (عندهم) ولا قامت لك هيبة (في قلوبهم) . و (اي) حاجة بك الى ان تكشف فاقتك الى من لا يزيد شكواك الا ذلا ومهانة ؟ بل ضع عذرك عند كل واحد منهم على وجه لا تنسب معه الى فاقة ... » (٤ : ٢٩٨ — ٢٩٩) .

(هـ) سياسة الرجل اصحابه — المرء محتاج لنجاته من شرور الدنيا الى اصدقاء فضلاء (١ : ٦٢ — ٦٣) روحانيين . وهو في غنى عن صحبة اصدقاء جسمانيين يريدونه لمعاونتهم على اصلاح احوال اجسامهم ، فان قصر عن معاونتهم ابغضوه وان انعم عليهم جحدوا فضله ، وان علت مرتبته بينهم حسدوه ... (٢ : ٤٣) .

ولكن يحسن بك في باب المعاشرة ان تحسن مجاورة جـــارك وتصفي مودة صديقك وتخلص المحبة لمحبك (٤ : ٢٩٨) . ويجب عليك ان تختبر جميع اصحابك حتى تستطيع سياستهم سياسة تتفق مع احوالهم . ولكن حاول الا يعرفوا هم شيئاً من اخبارك واسرارك . ولا تطمئن الى كل من يطلب صحبتك فقد يكون

من الذين يريدون ايقاعك في حبلهم . ثم ألق اليهم العلم او النصح بقدر ما يحتملون واحرص على الا يخالف مذهبك الشخصي ما تأمر الناس به ، ولا تقبل صداقة رجل او قرابته اذا كان مذهبه يخالف مذهبك . واذا فعل احد اقاربك او اصحابك ذلك فتبرأ منه واخرجه من جملتك وحاشيتك (٤ : ٢٩٩ — ٣٠٠) .

وليس اتخاذ الاصدقاء امراً سهلاً ، فان من الناس من يفني عمره في طلب صديق موافق فلا يجد. ثم ان من الناس من يحسن اتخاذ الاصدقاء ولكن لا يحسن حفظهم ومراعاتهم فينقلبون اعداء له . واذا ظفرت بصديق موافق ففضله على اقاربك واهلك واخيك ، ولكن اعلم ان الاصدقاء عرضة للتغير مع اختلاف احوالهم (٤ : ١١٠ — ١١١) .

د ـ المرأة

لم يفسح اخوان الصفا للمرأة في رسائلهم مكاناً خاصاً . ولكنهم ذكروها عرضاً في مناسبات مختلفة ، ولقد كان رأيهم فيها دائماً سيئاً .

رأينا في باب السياسة المدنية ان للمرأة عند اخوان الصفا قيمتين ايجابيتين : اولاهما النسل ، لأنهم لا يريدون ان ينقطع النسل من الارض عمداً عن طريق الانسان نفسه ، وثاني القيمتين ان يكنّ ازواجاً للذين لا يستطيعون التعفف. وتتلخص فلسفة اخوان الصفا في المرأة في ان « تطيع بعلها وتلزم منزلها وتتصون» (٣ : ٤٢٤) .

اما في الناحية العقلية فهم يعدونها مع الصبيان والجهال والخدم والحمقى ، ولذلك لا تصلح المرأة عندهم للنظر في العلوم ولا للتفكير في امر الدين . ولذلك قالوا عند الكلام على الاخذ بظاهر الدين (٣ : ٢٩٣) : « واعلم يا اخي ان هذا الرأي والاعتقاد جيد للنساء والصبيان والجهال والعوام ومن لا ينظر في حقائق العلوم ولا يعرفها » . وكذلك لما تكلموا على الجنة والنار الجسمانيتين قالوا (٤ : ٦٢) : « واعلم انه لا يليق بالعقلاء ان يعتقدوها فضلاً عن عقول الحكماء، بل النساء والجهال والصبيان جيد لهم ، فان هذا الرأي يليق بافهامهم ويصلح لهم ويقرب من عقولهم

ما وعدوا به ...» وامثال هذه الاحكام كثيرة في رسائل اخوان الصفا (راجع ايضا ١ : ٢٢٢ ، ٣ : ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٣٢٨ ، ٤٢٣ ، ثم ٤ : ٢٦ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٢٦٥ ، ٤٤٩) . ولا ننس ان النساء عندهم في احط طبقات الناس قالوا (٤ : ٤٦) : «ثم اعلم ان الناس على طبقات كثيرة ... فمنهم العامة من النساء والصبيان والجهال، ومنهم الخاصة من العلماء والحكماء البالغين فيها الراسخين ومنهم متوسطون بين ذلك» . على ان الرجال انفسهم قد يتعرضون لأن يكونوا، في المهانة واسترخاء الطبيعة وقلة الفهم ، في صف النساء (١ : ٢٢٢) .

هـ - التربية والتعليم

من غايات اخوان الصفا ان يبحثوا في التربية والتعليم لأن مذهبهم مذهب تعليمي ارادوا ان يبشروا به وينشروه ، ولذلك احتاجوا الى الوسائل التي يمكن نشره بها. وكان من ذلك التنشئة - اي التربية والتعليم .

ولا بأس هنا من ان نفصل بين التربية والتعليم ، وان كان اخوان الصفا يجعلونهما احياناً شيئاً واحداً ، الا انهم قد يفصلون هم بينهما ايضا . فالتربيـــة هي ابراز الاستعداد الشخصي وجلاؤه ، امـــا التعليم فهو «انتقال المعلومات والمعارف الى المتعلمين» . وسني التربية تنتهي قبل ان يبدأ عهد التعلم (راجع ٣ : ٣٨٥) .

التربيـــة

يكون الجنين في الرحم ولا يكون ثمت ما يؤثر فيه على الاطلاق ، وذلك ان النفس يوم ربطت بالجسد ... في الرحم كانت ساذجة لا علم لها من العلوم ولا خلق من الاخلاق ولا رأي ولا مذهب ولا تدبير ولا سياسة ولا رياضة في ادب ... (٣ : ٤٢٦) » . فاذا ولد الولد فانه يظل في النمو والزيادة والنشؤ اربع سنوات تامة «تسمى سني التربية» (٢ : ٣٧٩ - ٣٨٠) . في هـــذه السنوات الاربع يكون اكتمال التربية واشتداد القوة ، دور ادراك المحسوسات بالحواس وحصول الفهم والذهن والتمييز والتفكير والروية والمعرفة الغريزية (٢ : ١٢٩) .

ويرى اخوان الصفا ان سجايا النفس واخلاقها وخصالها – بعد السنة الرابعة – تبدأ في الظهور بالتدريج ، تلك السجايا والاخلاق والخصال او « القوى التي انعجنت وامتزجت وانغرست في جبلة الجنين في الرحم، كما يظهر زهر النبات وحبوبها ونور الشجر وثمارها وروائحها والوانها وطعومها عند بلوغها وتمامها وكمالها ونضجها بحسب ما في طباعها واشباحها » (٢ : ٣٦٠ – ٣٨١) . تلك هي عوامل الوراثة التي نعرفها في علم الحياة وفي التربية الحديثة . الا ان اخوان الصفا ينسبونهـــا الى اثر النجوم والكواكب في الجنين (٢ : ٣٧٨ – ٣٨٢) لا الى اثر الوالدين ومَن قبلهم في عمود النسب .

وتكون حواس الطفل متنبهة منذ ساعة الولادة فيحس بالقوة اللامسة الخشونةَ واللين ، وبالقوة الباصرة النور والضياء ، وبالقوة الذائقة طعم اللبن ، ثم يحس بالروائح ثم بالاصوات . بعدئذ يفرق بين الصوَر . ثم يميز على ممر الاوقـات بين نغمة الام ونغمة الأب والاخوة والاخوات والاقارب . . . وكذلك تتدرج قوى الفهم والمعرفة فيه عن طريق الحواس الى ان تتم سني التربية ويغلق باب الرضاع ويفتح الكلام والنطق (٣ : ٣٨٤) .

وللبيئة عندهم اثر عظيم في التربية ، ذلك لأن « العادات الجـــارية بالمداومة » تقوى الاخلاق والسجايا ، فان كثيراً من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان واصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا باخلاقهم وصاروا مثلهم . وهكذا ايضا كثير من الصبيان اذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم تطبعوا باخلاقهم ... ان لم يكن في كل الخلق ففي بعضه . وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الاخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر اما باخلاق الآباء والامهات او باخلاق الاخوة والاخوات والاتراب والاصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم في تصاريف احوالهم . وعلى هـذا القياس حكم المذاهب والديانات جميعها (١ : ٢٣٦) » .

ولا يغفل اخوان الصفا عن اثر البيئة من الناحية النفسية في التربية بل جعلوه عمدة في بحثهم فقالوا (١ : ٣٦٠) : « ان الانسان مطبوع على استعمال القياس

منذ الصبا كما هو مجبول على استعمال الحواس بلا فكر ولا روية ... ومن ذلك ان الصبيان يجعلون قوانين القياسات مختلفة كما يجعلون قياساتهم احوال انفسهم وآبائهم واخوانهم وتصرفهم في الامور ، وما يجدون في منازلهم من الاشياء ، اصولاً على سائر احوال الصبيان وتصرف آبائهم وما يكون في منازلهم وان لم يروهم ولم يشاهدوا احوالهم ، قياساً على ما عرفوا من احوال انفسهم » . اما الاشارة الى التقليد البسيط كقولهم : « الصبيان يحاكون الآباء والامهات ، والتلاميذ المتعلمون يحاكون ... افعال الاستاذين والمعلمين (١ : ١٥٣) فمتردد عندهم كثيراً (راجع ١ : ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ الخ و ٣ : ١٠٦ ، ١٠٧) .

ولا يبرز اثر البيئة في العلوم والمذاهب فقط بل في الميول الى العلوم والصنائع ايضاً ، انك اذا تأملت الامم « وجدت لكل امة من الناس الحاناً ونغمات واصواتاً يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يسر بها سواهم ، وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين امزجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والاخلاق . وهكذا يجري في اصحاب لغة واحدة : اقوام يستلذون الحاناً ونغمات واصواتاً لا يستلذها غيرهم من (اهل) لغتهم . وهكذا ربما تجد حكمهم في مأكولاتهم ومشروباتهم ومسموعاتهم وسائر الانواع من الملاذ والزينة ، كل ذلك بحسب تغيير امزجتهم واختلاف طباعهم وما جرت به من عاداتهم ... (٣ : ١٤٧ - ١٤٨) » .

لهذا كله اعتقد اخوان الصفا ان الاولاد اكثر استعداداً لاتقان الصنائع التي زاولها آباؤهم ، قالوا (١ : ٢٢٣) : « واعلم يا اخي بان صناعة الآباء والاجداد انجع في الاولاد من صناعة الغرباء ... ويكونون فيها احذق وانجب . ومن اجل هذا اوجبوا في سياسة ازدشير بن بابكان على اهل كل طبقة من الناس لزوم صناعة آبائهم واجدادهم قطعاً والا يتجاوزها (اهل طبقتها الى غيرها) [١] . وزعموا ان ذلك فرض من الله عز وجل في كتاب زرادشت » . ويظهر ان السبب الحقيقي لذلك منع من ليس من اهل الملك ان يتطلع الى الملك فيبقى الملك في اسرة واحدة

---

(١) لا يزال نظام الطبقات موجوداً الى اليوم في الهند .

وتقل في سبيله المنازعات .

التعليم

« العلم صورة المعلوم في نفس العالم (١ : ١٩٨ ، ٣١٧) ». والتعليم هو انتقال المعلومات والمعارف او نقلها الى الآخرين . والعلم قنية النفس (٣ : ٣٣) وحدها، اي لا صلة له عندهم بالبدن ، اذ النفس هي التي تتعلم ، والعلم غذاء لها (٣ : ٣٨) . وبالعلم تحيا النفوس من موت الجهالة (١ : ٣١٧) .

اما غاية التعليم فهي اصلاح جواهر النفوس وتهذيب اخلاقها واعدادها للخلود في الآخرة (١ : ١٩٥) ، وكل علم لا يؤدي الى الآخرة فلا فائدة منه (١ : ٢٧٣) .

وكل نفس علامة بالقوة (١ : ١٩٨ ، راجع ١ : ٢١١ ، ٣١٧ ، ٢ : ٣٥٢ ، ٣ : ٤٢٦)، اي ان فيها استعداداً ما لأن تتعلم ، ولكن الآباء والاستاذين هم الذين يجعلونها علامة بالفعل (٣ : ٣٤٧ — ٣٤٨) اي ينقلون اليها العلم ويجعلونها عالمة فعلاً . ان العلم لا يكون إلا بعد التعليم او التعلم (١ : ٢١١) ، ولا بد للبشر العاديين من اساتذة يتعلمون منهم العلوم والمعارف والمذاهب والآراء بالتلقين او بالتقليد (راجع ١ : ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٤ : ١٨) . والمعلومات المختلفة والآراء تنتقل من الآباء والامهات والمعلمين والاخوة والجيران وغيرهم (٤ : ٦٧).

ولبعض الناس فقط ميل الى العلم عامة ، ثم ان منهم من يميل الى علم دون علم (٤ : ٦٧) . واخوان الصفا يعتقدون ان للكواكب اثراً في هذا الميل (١ : ٣٢٢). على ان العلوم نفسها انواع ودرجات لا تليق كلها بكل انسان ، ولا يستطيع انسان ما ان يتعلمها كلها . فعلى المرء ان يبدأ اولاً بتعلم ما لا يجوز جهله ، ثم ليختر ما يوافق طبعه واستعداده (٤ : ٤٦) . ان من العلوم ما يصلح للخاص دون العام ، ومنه ما يصلح للعام دون الخاص (٤ : ٤٦ راجع ١ : ٢٢١ — ٢٢٢ ، ٢٢٥) . اما مجموع البشر فهم فيما يتعلق بقبول العلم — في حال وسط بين البهائم الخاملة المهملة وبين الملائكة الراسخين في العلم (٣ : ٤٠) .

وسن التعليم يأتي بعد تمام السنة الشمسية الرابعة من عمر الصبي — لأن البنات

يجب الا يتعلمن . فاذا اتم الصبي السنة الرابعة اسلم الى المكتب ليتعلم ما لم يكن يعلم من القراءة والكتابة والآداب والرياضيات وحساب الدواوين والكيل والموازين . « ومن سعادة المتعلم ان يتفق له معلم ذكي جيد الطبع حسن الخلق صافي الذهن محب للحق غير متعصب لرأي من المذاهب » . وذلك لأن المعلم او الاستاذ اب لنفسك وسبب لنشوئها وعلة لحياتها (٤ : ١١٣ و ١١٤) . من اجل ذلك يجب عليك ان تثق باساتذتك وتقلدهم في اول الامر وان تطيعهم فيما فيه صلاح لك ، فاذا اشتد ساعدك في العلم فاخلع التقليد وخذ نفسك بالبحث والكشف عن حقائق الامور بالبراهين . (٣ : ٩٠ ، ٤٢٣ — ٤٢٤ ، ٤ : ١٢٧ الخ .)

انواع العلم

هنالك اشياء لا يستطيع الانسان ادراكها ولا تعلمها كالامور التي حدثت في الماضي البعيد قبل آدم . وكذلك لا يستطيع الانسان ان يعرف ما سيجري في المستقبل البعيد ايضاً . وهو ايضاً لا يدرك الاشياء المتناهية في العظم كصورة العالم بكليته ، ولا المتناهية في الصغر كالجزء الذي لا يتجزأ . ولا هو بقادر ايضاً على ان يدرك الصور مجردة من المادة ولا علل الموجودات . ان الانسان العادي لا يستطيع ان يعلم الا الاشياء التي وقعت أوستقع قريبا من زمانه ، والا الاشياء المدركة مباشرة بالحس . اما الحكماء والانبياء فيعرفون اشياء ادق من تلك الاشياء او اجل منها او ابعد في الزمن الماضي او الآتي (٣ ٣٨ - ٤٤) .

اما ما يمكن الانسان معرفته فنوعان (٣ : ٣٨) :

أ — نوع طبيعي غريزي كالاشياء التي تدرك بالحواس او الامور المدركة باوائل العقول (بالبديهة) .

ب — نوع تعليمي مكتسب مثل الرياضيات والآداب وما يأتي به اصحاب الناموس (اي الذين يضعون الشرائع) .

طرق التعليم

ينال العلم من ثلاث طرق (٣ : ٣٢ — ٣٥) :

آ - بالفكر الذي تدرك النفس به الموجودات المعقولات (اسماء المعاني، والمعاني المفارقة للمادة ، وما يقع وراء الحس وحقائق الامور والوجود). ومن هذه الطريق اخذت الانبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة . وهذه هي ايضاً طريق الحكماء والفلاسفة الذين يستخرجون الصنائع بحكمتهم . ثم ان المعارف المأخوذة من هذه الطريق هي اشرف المعارف واحكم العلوم (٤ : ٤٢٦) .

ب - بالسمع الذي تقبل به النفس معاني اللغات وما تدل عليه الاصوات من الاخبار الغائبة (اي من طريق اللغة ، فقد اعتبر اخوان الصفا الكلمات حوامل للمعاني ، والمصدق بذلك يعتمد على ما يخبره به غيره - وهذه ، في ما ارى، طريق العامة الذين لا يستطيعون التفكير لأنفسهم) .

ج - بالنظر (بالبصر والرأي العقلي) ، الذي تشاهد به النفوس الموجودات الحاضرة (ان النفس تستطيع ، حتى بعد غياب المحسوسات ، ان توازن بين ما رأت او سمعت او لمست ... وان تستخرج منها كلها آراء واحكاما ، وان تدرك حقائقها. وهذه طريق الخاصة الذين هم دون الحكماء والانبياء») .

والنفوس ليست سواء في قبول انواع العلوم ولا في التصديق، وذلك راجع الى اختلاف طبائع تلك النفوس والى ما يعرض لها - في اثناء حياتها - من الاعراض (٣ : ٤٩) . ولذلك وجب ان تعامل كل نفس بما يتفق مع حالها واستعدادها. «فمن الناس من لا يقبل من العلم الا ما يتصور بنفسه او يقوم عليه برهان هندسي او منطقي ، ومنهم طائفة لا تقبل الا ما يدل عليه قول الشاعر ، وطائفة لا تقبل الا بالاحتجاج والجدل . ومنهم من يقبل بالتقليد (وحده) ويرضى بذلك (٣ : ٣٨) .

من اجل ذلك كله رتب اخوان الصفا رسائلهم بحسب ما تقتضيه درجات المتعلمين ومراتب الطالبين المستفيدين . فكما أن العلم لا ينبغي ان يبذل لمن ليس من اهله او لا يعرف فضله ، فكذلك لا يجوز ان يمنع منه مستحقه . ثم ينبغي الا يرفع المتعلم الى درجة الا بعد ان يكون قد اتم معرفة ما قبلها (٤ : ٣٢٠) . والحكمة (الفلسفة) خاصة ، لا يجوز التصريح بها لمتعلم الا بعد ان يرتاض بعلوم مختلفة (٤ : ٨٠ ، راجع ٣٢٠ وما بعدها) .

وبعد ان يتناول الانسان العلم من احدى هذه الطرق يجب عليه ان ينتقل الى مجالس اهل العلم والفضل في المساجد والصلوات والمشاهد والاعياد والى الاسواق والصنائع والاسعار ليشاهد هذا العالم بما فيه من الجبال والبراري والبحار والقرى والانهار ، وليعاين فيه اصناف الخلائق من الحيوان والنبات والمعادن ، وليعرف تصاريف احوالها من الحر والبرد والليل والشتاء والصيف .... ومن دوران الافلاك ... وحوادث الايام ... كل ذلك كيما تنتبه نفسك من نوم الغفلة وتستيقظ من رقدة الجهالة و (كيما) تفكر في ما شاهدتْ وتعتبر بما رأت من احوال هذه الدنيا (٢:١٢٩) .

شروط العلم وفضائله

اخوان الصفا يطلبون العلم للآخرة لا للدنيا ، ويطلبونه لصحة الايمان بالله ولمعرفة امور الدين في الدرجة الاولى . وطلب العلم يعدل عندهم فروض الدين ، فانظر في ما قالوه هم . قالوا (١:٢٧١) : « ليس من فريضة في جميع مفروضات الشريعة ... اوجبَ ولا افضل ولا اشرف ولا انفع ... — بعد الاقرار بالله والتصديق لانبيائه ورسله ... — من العلم وطلبه وتعليمه ... لأن العلم حياة القلب من الجهل ... يبلغ به العبد منازل الاحرار ومجالس الملوك والدرجات العلى في الدنيا والآخرة . و (ان) الفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام (في الليل للعبادة ؟) . به يُطاع الله وبه يعلم الخير وبه يؤجر (العبد) ... وبه يعرف الحلال والحرام . واعلم ان العلم امام العمل ، و (ان) العمل تابعه » .

وطالب العلم عندهم يحتاج الى سبع خصال — وهي في الحقيقة ثمان — (١:٢٧٢) : « السؤال والصمت ثم الاستماع ثم التفكر ، ثم العمل بالعلم ثم طلب الصدق من نفسه (نفس المتعلم) ثم كثرة الذكر بانه (اي العلم) من نعم الله ، ثم ترك الاعجاب بما يحسنه » المتعلم . على ان المتعلم يجب الا يدعي معرفة شيء « من العلوم الا بعد الاحكام له والمعرفة به والتمهر فيه والتجربة له ... فان كثيراً من الجهال يدّعون ما ليس لهم ان يدعوه ، فاذا وقع بهم الامتحان افتُضحوا ... ونُسبوا الى الكذب

حتى انه ربما يكون معهم حق ولا يقبل منهم ولا يؤخذ عنهم (٤ : ٤٢٦) .

وكذلك للعلم فضائل يكتسبها المتعلم كالشرف والغنى والقوة والحياء والسلامة... ولكنّ « للعلماء » مع كثرة « فضائل العلم » آفاتٍ وعيوباً واخلاقاً ردية منها الكِبْر والخلاف والمنازعة في سبيل الرئاسة والترخيص في الشبهات (التساهل في المعاصي) والرغبة في الدنيا (١ : ٢٧٢ - ٢٧٣) .

الناحية النفسية من التعليم

تنتقل المحسوسات والمعارف عن طريق الحواس الظاهرة الى القوة المتخيلة «التي مسكنها مقدم الدماغ» ، ثم تنتقل الى القوة المفكرة «التي مسكنها وسط الدماغ»... وعمل القوة المفكرة تأمّل المحسوسات واحدة واحدة لتعرف معانيها وكمياتها وكيفياتها ومنافعها ومضارها . فاذا حصل العلم بهذه المعاني اودعت النفس المفكرة تلك المحسوسات في القوة الحافظة - التي مركزها مؤخر الدماغ - الى وقت التذكار (لخزنها هنالك الى حين الحاجة اليها) . ويرى اخوان الصفا ان المعلومات يمكن ان تتزاحم في الدماغ . ومعنى ذلك ان الدماغ مستعد لان « يخزن » معلومات مختلفة ومتناقضة في مكان واحد ، ذلك لأن المعلومات صور روحانية . ويفسرون ذلك بالموازنة بين « مطاوعة » الدماغ لقبول تزاحم الصور الروحانية وبين « عدم مطاوعة » المادة لقبول تزاحم الصور الهيولانية . ان قطعة الخشب الواحدة لا يمكن ان تقبل شكلاً مستديراً وشكلاً مربعاً في وقت واحد . اما الدماغ فيقبل جميع انواع الصور الممكنة والمعارف المختلفة والمعلومات المتناقضة ، لا في امكنة مختلفة بل في « نقطة واحدة » (راجع ٣ : ٢٣٦ و وما بعدها) .

ويرى اخوان الصفا ان النفس بعد الولادة تكون كالورقة البيضاء ، اذا ثبت فيها شيء - صحيح او فاسد - صعبت ازالته فيما بعد (٤ : ١١٤ الخ) : فالمعارف والمعلومات المتزاحمة لا يمحو بعضها بعضاً ، وان كانت المعلومات نفسها تنسى شيئاً فشيئاً مع الزمن ويقل وضوحها في الذاكرة .

الفاحشة والتعليم

ولاخوان الصفا رأي غريب جداً ما كنت اود ان اذكره لو لا انني رأيت اشارة تعزو مثله الى كبار فلاسفة اليونان — عملياً على الاقل — ولو لا ان في ذكره دفاعاً عن العرب ايضاً .

جرت عادة نفر من الغربيين — الذين احترفوا التبشير الديني والاستعماري — ان ينسبوا « الفاحشة » (الصلة الجنسية بين الذكور) الى العرب وان يعيبوهم بها ويحملوا عليهم من اجلها . ولقد سبق لي ان ذكرت شيئاً من ذلك بالتفصيل عند الكلام على الغزل المذكر عند ابى نواس[١] ، ولن اعيد هنا ما ذكرته هناك. وذلك لان الغاية ان اورد في هذه الدراسة هـذا الرأي الغريب لاخوان الصفا مع انهم يحملون على من يأتون الفاحشة حملة شديدة . ولكنهم مع الاسف الشديد يقولون بالصلة بين الفاحشة وبين التعليم (٣ : ٢٦٧ - ٢٦٨) :

« ثم اعلم ان الاطفال والصبيان اذا استغنوا عن تربية الآباء والامهات فهم محتاجون بعدُ الى تعليم الاستاذين لهم العلومَ والصنائع ليبلغوا بهم الى التمام والكمال. فمن اجل هذا يوجد في الرجال البالغين رغبة في الصبيان ومحبة للغلمان ليكون ذلك داعياً لهم الى تأديبهم وتهذيبهم وتكميلهم للبلوغ الى الغايات المقصودة بهم . وهذا موجود في جبلة اكثر الامم التي لها شغف في تعلم العلم والصنائع الادب والرياضيات، مثل اهل فارس واهل العراق واهل الشام والروم وغيرها من الامم . واما الامم التي لا تتعاطى العلوم والصنائع والادب مثل الاكراد والاعراب والزنج والترك ، فانه قل ما يوجد فيهم ولا في طباعهم الرغبة في (ذلك) » .

والغريب ان ما قاله اخوان الصفا وضربوا له مثلا الرومَ (اليونان) يصدق في الواقع ، وان كان فاسداً من حيث المبدأ . ولعل اخوان الصفا لم يضربوا هذا المثل لو لم يجدوه عند اليونان ، ولو لم يجدوه ايضاً بين المتعلمين والمفكرين منهم .

تُعرف « الفاحشة » في التاريخ الاوروبي بأسم « الحب اليوناني » . ولقد كانت

---

(١) ابو نواس للدكتور عمر فروخ (الطبعة الثالثة) ١ : ٨٤ — ٨٦ .

في العصر الذي سبق ظهور هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد « ميزة من ميزات اليونان القومية » . ولم يكن ارتكابها يثير في المجتمع اليوناني استنكاراً ما ، بل كان الامر على عكس ذلك تماماً ، فان اغيسيلاوس (الثاني ملك سباوطة — ؟) لما كبح جماح عاطفته واعرض عن تقبيل غلام فارسي جميل تعرض له ، كان عمله هذا نادراً جداً وعزيز الوقوع بين اليونانيين ، حتى ان المؤرخين نوهوا بذكره في كتبهم واعتبروه اعجوبة من الاعاجيب .

وكان القيّم على رياضة الفتيان في سبارطة لا يجيز فتى في « الفتوة والقوة » الا بعد ان يمتحنه باقتساره ويرى مبلغ مدافعته عن نفسه . اما في سائر اليونان وخصوصا في ائينا وطيبة وأليس وفي جزيرة كريد فقد كان لابراز هذه العاطفة من الاحوال والالوان والدرجات ما يزيد في عدده وتنوعه على ما تعرفه المتزينات للرجال في العصر الحاضر .

ولم تكن الفاحشة اقل شيوعاً بين الخاصة منها بين العامة . والذين يريدون ان يردوا التهمة عن سقراط لا يستطيعون ان يقولوا اكثر من ان هذا كان دأب سقراط في مطلع حياته ، واما فيما بعد فانه كان « يتملّح » (فقط؟) بالتحبب الى الشبان . على انهم قالوا ايضاً ان سقراط لم يستطع ان يخفف من حدة هذه النزعة بين اتباعه[1] . واذا علمت ان اتباعه كانوا زهرة العبقرية اليونانية — ولا نعد منهم الا افلاطون — ادركت لماذا ذكر اخوان الصفا الفاحشة بين موضوعات التربية والتعليم .

ولكن اخوان الصفا مخطئون . ان الفاحشة شائبة مخزية ، وانتشارها بين فلاسفة اليونان لا يدل على اكثر من ان بعض فلاسفة اليونان كانوا من النـــاحية الخلقية الشخصية شاذّين . اما « الفلسفة والعلم » فلا صلة لهما البتة بتلك النقيصة .

والعجب من اخوان الصفا يصفون المنهمك في الملذات باقبح النعوت ويرمون من يتصف بالفاحشة بانه شيطان ، ويشبهونه بالكلاب والسنانير والحمير (٤ : ١٧٠) ولكنهم يدافعون عنها في التربية والتعليم ، لانها كانت تنسب الى بعض فلاسفة اليونان!

(1) Enc. of Religion and Eth. VIII 175, 172, Larousse du XX siècte V 444.

الفصل العاشر

الفلسفة الاخلاقية

يظهر لمتصفح رسائل اخوان الصفا باقل تأمل ان الاخلاق عندهم عقلية وليست دينية . فالانسان عندهم لا يفعل ما يفعل لأن ذلك مكتوب عليه منذ الازل ، ولا هو ايضاً حر في اتيان كل ما يريد ، بل ان هنالك عوامل تدفعه الى نواح معينة في سلوكه . على ان اهم ما في فلسفتهم انهم لا يجعلون اساس الاخلاق ما امرت به الاديان والشرائع من غير ان يكون للتفكير في ذلك سهم وافر ، بل هم يرون ان الاخلاق ليس شيئاً اكثر من الاعمال الطبيعية الصادرة عن المخلوقات (راجع ٤ : ٣٣٣ - ٣٣٥) . ان من الاخلاق والقوى ما هو منسوب الى النفس النباتية الشهوانية ، ومنها ما هو منسوب الى الحيوانية الغضبية ، ومنها ما هو منسوب الى النفس العاقلة الحكيمة ... (١ : ٢٤١ وما بعد) .

ومدار الاخلاق عند اخوان الصفا « السعادة » في الدنيا او في الآخرة . الا ن سعادة الآخرة مفضلة عندهم ، اذ ان سعادة الدنيا نفسها ليست شيئاً اكثر من الاستعداد لبلوغ السعادة الاخروية (راجع ١ : ٢٥٧-٢٥٨ ، ٢ : ١٥٦ ، ١٥٧ الخ) .

الاخلاق نوعان

يقسم اخوان الصفا الاخلاق قسمين : قسما يجعلونه مركوزاً في النفس ، وقسماً يدعونه مكتسباً : انثمت اخلاقاً تولد مع الشخص واخلاقاً يكتسبها الشخص نفسه في ادوار حياته المختلفة .

الاخلاق المركوزة

ويظهر بجلاء ان الاساس الاول للاخلاق ، عند اخوان الصفا ، هو الطبيعة ،

فان الاخلاق تنطبع في جبلة الجنين وهو لا يزال في الرحم وتصبح مركوزة في طبيعته شهراً بعد شهر حتى يستوفي تسعة اشهر ويحين خروجه طفلاً الى الحياة الدنيا (١ : ٢٢٧) . ولا يكاد اخوان الصفا ينقطعون - في اثناء كلامهم على الخصال والاخلاق - عن الكلام في الاخلاق المركوزة والجبلّة (راجع ١ : ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠ ، الخ و ٤ : ١٥ ، ٤٥ ، الخ الخ) .

وهنا يظهر من اخوان الصفا بعض التناقض عند الكلام على الاخلاق المركوزة، فبينما هم يقولون (٤ : ٣٧٢) : ... اذ كان اصل الخلقة خيراً كله (و) جوداً كله لا تفاوت في خلقه (اي خلق الله) النوراني وفيضه الروحاني ، تراهم يقولون (١ : ٢٥٨ - ٢٥٩) : « اعلم ، ايدك الله وايانا بروح منه ، بان اخلاق بني الدنيا هي التي ركزتها الطبيعة في الجبلة من غير كسب منهم ولا اختيار ولا فكرة ولا روية ولا اجتهاد ولا كلفة ، فهم يسعون فيها ويعملون عليها مثل البهائم في طلب منافع الاجساد ودفع المضرة عنها كما قال تعالى ذكره : يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم » . ثم يقولون ايضا (١ : ٢٦٠) : « واخلاق بني الدنيا وسجاياهم انما جعلت طبيعة مركوزة في الجبلة لأنهم وردوا الى الدنيا جاهلين غير مستعدين لها . »

اما ما يقرر الاخلاق المركوزة في الطبيعة فاحكام النجوم في الدرجة الاولى ، يعني تأثير الكواكب في الجنين قبل الولادة في اثناء الحمل . وقد ردد اخوان الصفا هذا العنصر مراراً وتكراراً في رسائلهم (١ : ٢٣٤ الخ) . وهنالك امر ثان هو « اخلاط الاجساد ومزاج تلك الاخلاط فيها » ، يعنون بذلك ان لتركيب الجسد الطبيعي وامتزاج العناصر الاربعة فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة تأثيراً كبيراً على نوع السلوك في النـــاس . فمن غلبت الحرارة على طباعهم كانوا شجعاناً اسخياء متهورين شديدي الغضب اذكياء . . . ومن غلبت على طباعهم اليبوسة كانوا صابرين في الاعمال ثابتي الرأي . . . يغلب عليهم الصبر والحقد والبخل . . . (١ : ٢٢٩ - ٢٣٠) . وثمت عنصر طبيعي ثالث في تكوين الاخلاق ، هو تأثير الاقليم (البيئة الطبيعية) . فاخلاق البشر تختلف باختلاف مساكنهم من مشرق الارض او مغربها ومن شمالها او جنوبها ومن جبالها وسهولها واوديتها وشواطئ

الانهار والبحار فيها ، ومن بواديها وغاباتها ... فان الذين يولدون مثلا في البلاد الحارة ويتربون هناك وينشأون على ذلك الهواء فان باطن امزجة ابدانهم البرودة، والدليل على ما قلنا ان مزاج اهل البلدان الجنوبية من الحبشة والزنج والنوبة واهل السند والهند ، لما كان الغالب على اهوية بلادهم الحرارة... احترقت ظواهر ابدانهم واسودت جلودهم ... وبردت بواطن اجسادهم وابيضت عظامهم واسنانهم ... وبالعكس في هذا حال اهل البلدان الشمالية ... غلب على اهويتهم البرد فابيضت لذلك جلودهم وترطبت ابدانهم... وكثرت الشجاعة والفروسية فيهم... واستجنت الحرارة في باطن ابدانهم » (١ : ٢٣٣-٢٣٤ ، الخ) .

وان من الناس عادة « من هو مطبوع على خلق واحد او عدة من اخـــلاق محمودة او مذمومة (٤ : ١٠٧) » .

*

ويعلن اخوان الصفا رأيهم بجرأة حينما يعلنون ان ما تطلبه الاديان مخالف لما ركز في الطبيعة البشرية ، قالوا (١ : ٢٥٩) : « واعلم يا اخي ايدك الله وايانا بروح منه ، بانك اذا انعمت النظر بعقلك وفكرت برويتك وتأملت اوامر الناموس ونواهيه واحكامه وحدوده وترغيبه وترهيبه ... عرفت ان اكـــثر اوامره هي بخلاف ما في طباع الناس ، و (ان اكثر) نواهيه عما في الجبلة مركوز مثـــل تركب (؟) الشهوات او طلب الراحة والنعيم والتلذذ ... وذلك انه امر بالصيام وترك الاكل والشرب عند شدة الجوع والعطش ، وبالتعفف عند هيجان الشهوة ، وبالحلم عند سورة الغضب ... وبالزهد في الدنيا عند التمكن منها، وما شاكل هذه الافعال والاعمال والاخلاق والسجايا التي في الجبلة خلافها وفي الطباع مركوز غيرها » . فترى اذن ان هذا يخالف قولهم الاول بان الاصل في الخلقة الخير ! .

الاخلاق المكتسبة

وبعد الولادة ينضاف ، الى الاخلاق التي ركزت في طبيعة الجنين قبل الولادة، اخلاق جديدة مكتسبة ، ثم يستمر اكتساب الاخلاق الى يوم الممات ، وقد جعل

الله تعالى في الانسان العناصر الاربعة والمزاجات التسعة ليكون بها الانسان متهيئاً وقابلا لاظهار جميع اخلاق الحيوانات وخواص طباعها (١ : ٢٢٨ - ٢٣٠) .

فالانسان اذن قابل لأن يتعلم جميع الخصال والاخلاق محمودها ومذمومها . اما الله فقد خلق في الانسان « استطاعة » لعمل الخير ... ولكن الانسان يقدر ايضاً بتلك الاستطاعة نفسها ان يعمل الشر (٣ : ٤٢١ - ٤٢٢) .

وبينما نرى الاخلاق المركوزة على وجه العموم ثابتة في طباع اصحابها نجد الاخلاق المكتسبة تختلف بتقلب الاحوال على الناس ، ذلك لأن اعمال الناس في ظاهر امورهم تكون بحسب اخلاقهم التي طبعوا عليها وبحسب عاداتهم التي نشأوا عليها وبحسب الآراء التي اعتقدوها (٤ : ١٠٩) ، وبحسب « نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم واستاذيهم ومن يربيهم ويؤدبهم » (١ : ٢٢٩ الخ) .

واذا نشأت الاخلاق المكتسبة بعناصر البيئة الاولى فانها لا تثبت على ما هي عليه طويلا ، لأن « الانسان كثير التلون قليل الثبات على حال واحدة . وذلك انه قل من الناس من تحدث له حال من احوال الدنيا او امر من امورها من غنى الى فقر ، او من فقر الى غنى ، ... او من عزوبة الى تزويج ، او من ذل الى عز ، ... او من رفعة الى ضعة ، او من مذهب الى مذهب ، او من شباب الى شيخوخة ، او من صحة الى مرض ، الا يحدث له خلق جديد وسجية اخرى ... (٤ : ١١١) » .

فعلى هذا يمكن ان نقول ان الانسان يستطيع ان ينتقل من خلق الى آخر : من خلق مذموم الى خلق ممدوح او من خلق ممدوح الى خلق مذموم . ويبدو لنا من كلام اخوان الصفا ان هذا الانتقال يتناول الاخلاق المكتسبة في الدرجة الاولى ، ويتناول ايضا الاخلاق المركزة في الطبيعة احيانا . ولكن مما لا ريب فيه ، ان الاخلاق - المكتسبة والمركوزة - كلما طال الزمن عليها صعب الانتقال عنها . وذلك لان ما يتعوده المجموع - في الازمنة المتطاولة - يصبح كأنه طبع مركوز في النفس ، « والعادة توأم الطبيعة » وانتزاع الطبيعة امر صعب (٣ : ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ٣٩٥) .

ولكن الاخلاق تحتاج حينئذ في تبديلها الى قمع وكسر وقهر ، قال اخوان الصفا (٤ : ٣٤٢): « ومما تكسر به الاخلاق الرديئة والافعال القبيحة (ان تقاوم) باضدادها من الافعال الجميلة ، كمن يقهر الحدة التي هي من قوى النفس الغضبية... بالحلم ، ويقهر العجلة بالاناة ، والشهوة بالعفة » . وقد ذكروا ايضا ان النفس الناطقة (العاقلة) تستطيع ان تؤثر في النفس الشهوانية بواسطة النفس الحيوانية التي تسمى الغضبية » ، وذلك بان تقهرها وتقمعها حتى تنقاد لها وتذللها وتقمعها على الاعتدال في سائر احوالها ، كيلا تخرج عن العدل (الاعتدال) وعما توجبه السياسة الفلسفية والاوامر والنواهي الشرعية ..

على انه ليس من السهل ان يترك الانسان — في الاغلب — خلقا الى غيره من غير ان يقتنع بصواب ما يعمل ، ذلك لأن « الانسان مطبوع على ألا يترك النفع الحاضر العاجل ويزهد فيه ليطلب الغائب الآجل ويرغب فيه الا بعد ما يتبين له فضل الآجل على العاجل (٤ : ١٤١) » .

الاخلاق معروفة بالعقل

ما الخير وما الشر ؟ ما الخلق الجميل وما الخلق القبيح ؟ .

يخبرنا الدين ان ما امر الله به فهو خير ، وان عمله هو الخلق الجميل ، وما نهى الله عنه فهو شر ، واتيانه خلق قبيح . اما عقل الانسان فمعزول عن ان يعرف ذلك.

على ان اخوان الصفا يعتقدون انه من الممكن ان يكون لبعض الناس « عقل يعرف به القبيح وينزجر عنه ، ويعرف الجميل ويأمر به » . وهكذا يفعل « الحكماء والفلاسفة ، اذا استخرجوا علما من العلوم... او دبروا سياسة نسبوا ذلك الى قوة انفسهم واجتهادهم وجودة رأيهم وفحصهم وبحثهم . وهذا خلاف ما يفعله واضع الشريعة اذ ينسب الخصال التي يضعها لاتباعه الى الملائكة الذين نزلوا عليه بها من ربه . وهو لا ينسب ذلك الى نفسه مطلقا (٤ : ١٨٨ — ١٨٩) .

فعل الخير للخير

ونظر اخوان الصفا الى الاخلاق نظرة مجردة من كل نفع عاجل او آجل يمكن ان يصيب فاعل الخير : قالوا (٤ : ١٤١ — ١٤٢) : « اما الاخيار فهم

الذين يعملون ما رسم لهم في النواميس الالهية ، ويفعلون ما اوجبته العقول السليمة ولا يطلبون على ذلك عوضا من جر منفعة الي اجسادهم او دفع مضرة عنها ، فعند ذلك يقال لهم اخيار على الاطلاق ، وانهم من ابناء الآخرة » . من اجل ذلك ينصحك اخوان الصفا بقولهم (٤ : ٢٩٧ — ٢٩٨) :

« ... فتكون اخلاقك رضية وعاداتك جميلة وافعالك مستقيمة : تؤدي الامانة الى اهلها ، كائنا من كان من ولي او عدو ، وتأخذ نفسك بحفظها وترعى حق من استرعاك حقها وتحسن مجاورة جارك ... مع قلة الطمع ... ثم تريد للغير ما تريد لنفسك .

« وسبيلك ان تعود نفسك عمل الخير لأنه خير ، لا تريد بفعلك عوضا ، ولا يحملك على فعله خوف . فمتى فعلت لطلب المكافأة (اي وانت تفكر بها) لم يكن عملك خيراً ، وان لم تطلب المكافأة (فعلا) » . وكذلك اذا اردت من عمل الخير الذكر والاسم (الشهرة) كنت منافقا ، ولم يكن عملك خيراً . والمنافق لا يستأهل ان يكون في جوار الروحانيين » .

ويصر اخوان الصفا على ان يكون عمل الاخيار مطابقا لعلمهم ، وإلا لم يكن لعلمهم نفع ولما جاز ان يطلق عليهم اسم « الاخيار » . قالوا (٤ : ١١٨) « انا نجد اقواما علماء متفلسفين يصنفون الكتب في تحسين الاخلاق ويأمرون الناس بها وهم اسوأ الناس خلقا . ونجد اقواما ليس لهم علم كثير وهم مهذبو الاخلاق » .

الفضائل توسط بين متضادين

يعتقد اخوان الصفا — مع افلاطون — ان الفضائل كلها «عدل» اي اعتدال ، يعني توسط بين طرفين متناقضين ، قالوا (٣ : ١٣٠ — ١٣١) :

« ثم اعلم ان جميع هذه المعاني (الخبر والاستخبار والامر والنهي) وما يتعاقبها من مدح او ذم ، وكل مسمى باسم فيه مدح من سائر المعاني فهو واقع بين اثنين متضادين : عدل بين حاستي جور . فالعلم واقع بين امرين ... علم ما لا يجب وجهل ما يجب ، فصار (العلم بهذه الواسطة) العدل بين حاستي افراط وتفريط .

وعلى هذا المثال ايضا الفهم... ثم اللب ، ثم العزم وهو بين التهور والجبن . والجود عدل بين التقتير والتبذير ، والشجاعة عدل بين الاقدام والاحجام ... وكذلك الحياء طرفاه الفتور والقحة . فمن طلب العدل في جميع الصفات وجده متوسطا بين ضدين احدهما يتطرق دونه (تحته) الى بخس ونقصان ، والآخر يتطرق فوقه الي افراط وعدوان » .

الفضائل فيض الهي

« حسن الخلق من مواهب الله، وهو من اخلاق الملائكة » (٤ : ١١٨-١١٩). اما كيف تتصل الفضائل بالنفس الانسانية فيذكره اخوان الصفا كما يلي (٣ : ٢٧٥).

« اعلم ان تلك المحاسن والفضائل كلها انما هي من فيض الله واشراق نوره على العقل الكلي ، (ثم) من العقل الكلي على النفس الكلية ، (ثم) من النفس الكلية على الهيولي وهي الصورة التي تُتري الانفس الجزئية في عـــالم الاجسام على ظواهر الاشخاص والاجرام (كذا) ... » (راجع ٤ : ١٨) .

فمصدر الفضائل عندهم عُلوي عام ، ولكن الاجسام تتقبل من تلك الفضائل ما تساعده هيولاها (مادتها) على قبوله . ان المرآة المجلوة مثلاً تعكس خيال ما يترآى فيها خيراً مما تعكسه المرآة الرديئة ، مع ان الشيء الذي يترآى في المرآتين واحد.

*

وهكذا نجد ان اخوان الصفا مثاليون في فلسفتهم الاخلاقية ، وهم يجعلون للارادة والرياضة قسطاً كبيراً في نيل الفضائل مع انهم يؤكدون قيمة البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية في نشوء اخلاق الفرد . ولكنهم لا ينسون ان يعلنوا ان اوامر الدين ونواهيه مخالفة لطبيعة البشر (لأنها مخالفة لما تهواه الطبيعة البشرية كما تقول الاديان)

والعقل عندهم حكم بين الخير والشر .

ويحل اخوان الصفا الوازع الاجتماعي محلا لائقاً به، فهم يحملون على « من يعتقد الترخيص في الشبهات والاباحة في المحظورات ، فان صاحب هذا الرأي يكسبه اعتقاده جرأة على الله وتعديا لحدوده وارتكابا لمحارمه ، ويكون صاحبه في السر مخالفاً لابناء جنسه ومنافقاً مرائياً لا يصدق في معاملته ولا يفي بعهده ولا ينصح في امانته . وفي مثل هذه الخصال فساد الدين والدنيا جميعاً » (٤ : ٦١) . فالاخلاق اذن ليست امراً شخصياً فحسب ، بل هي ذات صلة وثيقة « بصلاح المجتمع » .

الفصل الحادي عشر

الفلسفة العملية

بحوث هذا الفصل ليست من باب الفلسفة على الحصر . ان التصوف والزهد والكلام على فضل الفقراء ، والكلام على تعبير الرؤيا (تفسير المنامات) والسحر او على نشأة اللغة ليست فلسفة . ولكن اخوان الصفا ابدوا في هذه كلها آراء رأيت ان الصورة الكاملة لهم لا تتم الا باستعراضها ولو بايجاز .

الزهد التصوف

يبدأ اخوان الصفا رسائلهم كلها بقولهم (١ : ١) :

« هذه فهرست رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا واهل العدل وابناء الحمد .. وهي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم ... وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفية ، صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد » .

هذا المقطع يدل على امرين : احترام الصوفية ، وعلى انهم يقصدون بقولهم « حيث كانوا من البلاد » انفسهم .

ويذكر اخوان الصفا بعض صفات الصوفية الاولى ، التي هي في الحقيقة زهد . ان اخوان الصفا لم يعرفوا التصوف الذي اخذ به عمر بن الفارض ومحيي الدين بن عربي انفسهما . ان التصوف عندهم كان زهداً . وقد جعلوا هذا الزهد من شرائط الايمان وخصال المؤمنين .

الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة من شرائط الايمان وخصال المؤمنين الذين زهدوا – مع الحكماء والانبياء – في الدنيا لما تبين لهم حقيقة الآخرة وعرفوا فضل نعيمها على نعيم الدنيا « وشاهدوها بعيون قلوبهم » ونور عقولهم كما شاهد ابناء الدنيا

امور الدنيا بحواسهم (٤ : ١٤١) .

وثاني خصال المؤمن عندهم التوكل على الله وحده . ان الناس كلهم متوكلون، ولكن اكثر توكلهم على غير الله . اما المتوكلون على الله وحده فهم الانبياء وصالحو المؤمنين ... لانهم يوقنون بان الله يكفيهم ما يحتاجون اليه في طاعته اذا اشتغلوا بخدمته . فالانسان لا يخلو في حياته من حالتي الشدة او الرخاء ، فالمؤمن من اتكل فيهما كليهما على الله وحده وتبرأ مما حوله (٤ : ١٢٩ - ١٣١ ، ١٤٠) .

ومن خصال المؤمن ايضاً « الاخلاص » لله تعالى في كل عمل من غير ان يطلب على ما يعمل جزاء من احد خلق الله ولا شكوراً . حتى ان الذي يعبد الله ويطيعه خوفاً من النار او طلبا للجنة فانما هو عبد سوء . من اجل ذلك وجب ان نثق بالله غير فزعين ولا قلقين ، بل هادئين مطمئنين (٤ : ١٣١ - ١٣٢) .

وكذلك من خصال الايمان عند اخوان الصفا وخصال المتصوفين معا «الصبر»، على ان يكون بالله ولله . ان الله رتب هذا العالم احسن ترتيب ، ولذلك كان في كل ما يصيب الانسان - خيراً او شراً - منفعة وحكمة ، وان كنا نحن لا نعرفها عاجلا (٤ : ١٣٢ - ١٣٣). فاذا كان ما يجري على البشر من هذا القبيل، فالواجب عليهم ان يتلقوه بالرضا لانه قضاء وقدر من الله تعالى لما يرجونه من الخيرات في المنقلب (الآخرة) وما ينالونه من السعادة بعد المفارقة (الموت) . حتى القتل ، وجب ان يتقبله هادئا مطمئن البال طيب النفس كما اتفق لسقراط لما سقي السم ، وللرسول يوم احد اذ جرح ، وللحسين في كربلاء اذ قتل (٤ : ١٣٣ - ١٣٦) .

ولا ريب في ان « علم التجريد » (الذي) تعرف به النفس ذاتها وتشرف بعد تجردها على مستقرها » (٤ : ٣٢٣ - ٣٢٤) يقصد به عند اخوان الصفا التصوف . اضف الى ذلك ان اخوان الصفا ينفرون من الدنيا ويحببون الموت الى الانسان لفضل الآخرة على الدنيا (٣ : ٥٧ وما بعدها ، ٢٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٧٠) .

*

اللغة والخط

يفضل الانسان الحيوان بالنطق ، فالحيوان لا يشرك الانسان في النطـــق والكلام . ان الله انطق آدم وعلمه الكلام بالسريانية او النبطية (الآرامية) فيما قيل.

اما الغرض من الكلام فهو تأدية المعاني ، فان كل كلام لا معنى له لا فائدة منه للسامع وللمتكلم . وكل حيوان ناطق (انسان) لا يحسن ان يعبر عما في نفسه من المعاني فهو كالعدم الزائل والجماد الصامت .

ويشير اخوان الصفا بصراحة الى ان الكلام يساعد على تخيل المعني ، لأن كل معنى لا يمكن ان يعبر عنه بلفظ ما في لغة ما فلا سبيل الى معرفته .

وبعد ان علم الله آدم الكلام علمه آدم لاولاده . ولا غرابة في كل ذلك فان اخوان الصفا يجعلون بدء اللغة « وضعا شرعيا » لا تطوراً اجتماعيا .

على ان اللغة الواحدة اصبحت فيما بعد لغات مختلفة : لما كثر اولاد بني آدم وانتشروا في جهات الارض ونزلت كل طائفة منهم اقليما من اقاليمها وقطراً من اقطارها جرى فيهم تأثير الكواكب المختلفة . ثم ان نزولهم في الاقاليم المختلفة اثر في اجهزة الصوت فيهم فاختلفت مخارج حروفهم سعة وضيقا وقوة وضعفا فاختلفت مع الايام لغاتهم .

ومع ان العرب يخالف بعضهم بعضا في اللغة (٣ : ١٧١) فان اللغة العربية خير اللغات وافضلها وخاتمتها (راجع ٣: ١٢٠–١٢٩، ١٥٠–١٥٢، ١٥٧–١٥٨).

وكذلك يتكلم اخوان الصفا ايضا على البلاغة والبيان والشعر والعروض (٣ : ١٢٩ – ١٣١ ، ١٥٥) .

الخط والكتابة

ولم يكن آدم ولا اهل بيته في حاجة الى الكتابة فلم يعلمهم الله الخط . فلما تفرق البشر في الارض احتاجوا الى الكتابة لتدوين الاخبار وضبط الروايات ، فاوجبت الحكمة الالهية حينئذ اظهار صناعة الكتابة . ويظهر ان احرف الهجاء كانت قليلة في اول الامر ثم ما زالت تزيد حتى تمت ثمانية وعشرين حرفا في اللغة

العربية تجمع – في رأي اخوان الصفا – جميع اصوات الامم وحروفهم . وقد أفراد اخوان الصفا فصلا للرسم ، يعنى لاصول كتابة الحروف (راجع ٣ : ١٤٩– ١٥٥ ، ١٥٧ – ١٥٨) .

النوم الرؤيا

النوم ترك النفس استعمال الحواس . والرؤيا تصور النفس رسوم المحسوسات في ذاتها ، وتخيلها الامور الكائنة قبل كونها بقوتها الفكرية في حال النوم وسكون الحواس » . والرؤيا هي احد الاوجه التي يصل الوحي بها الى الانسان كما جاء في الحديث : الرؤيا الصادقة جزء من اجزاء النبوة . أما الذين ينكرون المنامات فهم الذين يجهلون حقيقة النفس وانها لاتنام بنوم الجسد ولاتموت بموته (٤ : ١٤٤ ، ١٤٨) .

والمنامات انواع ستة (٤ : ١٧١ – ١٧٧) :

أ . احاديث النفس او اضغاث الاحلام – هذه هي الاحلام التي يراها كل انسان اذا قضى نهاره مفكراً في امر ، او اذا اصابته مصيبة شغلت باله ، او كأن يرى انه يتم عملا لم يتمه في يقظته . ان الفلاح يرى في نومه زرعاً ناميا او ذاويا ، والذي يربي الماشية يرى في منامه الماشية .

ب . (الكابوس) – ومن الناس من يكون في جسده اضطراب هضمي او غددي فيرى في منامه اشياء مزعجة كالدخان والقاذورات والاحزان والوحل والحريق ...

ج . المنامات العادية – يرى اخوان الصفا ان الناس يختلفون في منامهم باختلاف مواليدهم ، ويجعلون ذلك وحده الاصل في المنامات وكل ما سواه فروعا . وهذه هي المنامات التي يمكن (تفسيرها) . فاما ان يستقيم تفسير المنام ، كمن يرى في منامه انه سافر الى بلد ما ثم يتفق له ان يسافر اليه . واما ان ينعكس ، كمن يرى انه يبكي فيتفق له ما يسره . ومنها ما هو اشارة (ولكنه ليس تفسيراً ؟) كمن يرى انه طار فيسافر ، او يرى انه اكل لحم انسان فاغتابه .

د . وساوس الشيطان – هي المنامات التي يرى فيها صاحبها الشهوات واسباب

الدنيا واسباب العداوات .

هـ . الهام الملائكة – الملائكة هم نفوس المؤمنين التي فارقت اجسادها. هذه النفوس تظل على اتصال بالنفوس التي لم تفارق اجسادها بعدُ وتحاول ان تصلحها وتزكيها . ولكن يظهر ان نفوس المؤمنين التي اصبحت ملائكة لا تتصل بنفوس الجاهلين مباشرة ، بل تتصل بنفوس المؤمنين التي لم تفارق اجسادها بعد وتوحي اليها ما يجب على اصحاب النفوس الجاهلة ان يفعلوه ، ذلك « لأن الملائكة لا تسلم الا على ابناء جنسها ولا تخاطب الا من شاكلها ».

« ثم ان هذه النفوس الناجية اذا فارقت اجسادها وحصلت لها الكرامة حنّت عند ذلك الى مخلفيها من الاولاد وقراباتها واهل دينها ومذهبها الصـــالحين منهم وعطفت عليهم ، وتمنت لهم ما وجدت هي من الكرامات والراحة والسرور حتى انها ربما نزلت لهم في منامهم ووعظتهم واذكرتهم المعاد، او وصفت لهم ما صارت اليه وامرتهم بلزوم طريق التقوى وعمل الخير وطلب النجاة ... »

السحر والعزائم

يريد اخوان الصفا ان يعتقدوا بالسحر لأنه ذكر في كتب الفلاسفة وفي كتب الانبياء وكتب الشرائع وفي القرآن . ويبدو مما ذكروا ان السحر والعزائم انما هي « تأثير روحاني في الاجسام المادية ».

والسحر يمكن ان يُستعان به ، عندهم ، على الضرر بالانفس (٤ : ٣٢٧) ولذلك يجب ان يُصان عمن لا يستحقه ويمنع عمن ليس هو اهلا لاستعماله (٤ : ٣٤٠).

ولقد ادرك اخوان الصفا ان الرُقي والعزائم « اثر لطيف يبدر من نفس فيعمل في نفس اخرى ... فيحكى عن قوم من اهل الهند يؤثرون في غيرهم باوهامهم اشياء عجيبة ينكرها اكثر الناس ». ويلفت من نظرك ان اخوان الصفا قد ادركوا ايضا ان اصحاب المخاريق الكذابين قد يقومون باعمال مثل هذه في ظاهرها (٤ : ٣٤٤ – ٣٤٥).

من هنا يتضح لنا بجلاء – مما لا ينكره علم النفس الحديث – ان التاثير يقع

من اثر العنصر الشخصي والايحاء لا بالاعمال الظاهرة التي يقوم بها الساحر او الراقي او المشعوذ .

ومع ان اخوان الصفا قد ضمنوا الفصل الذي تكلموا فيه على السحر اشياء هي الخرافة فانهم تكلموا فيه باشياء معقولة ايضاً. وهم يعرفون السحر بقولهم (٤:٣٤٨): « هو كل ما سُحرت به العقول وانقادت اليه النفوس من جميع الاقوال والاعمال بمعنى التعجب والانقياد والاصغاء والاستماع والاستحسان والطاعة والقبول ».

وعلى هذا يطلق السحر على براعة في شخص يعجز عنها آخرون . فالبيان البالغ والشعر البارع الجميل والخطب المثيرة سحر . والكشف عن حقيقة الشيء واظهاره بسرعة العمل واحكامه سحر ايضاً ، فان الرجل الذي ينجز عملا متقنـــا في بضع دقائق ، بينما لا يستطيع غيره ان ينجزه في اقل من ساعة ، ساحر . وكذلك الكهانة والاخبار بما يكون قبل وقوعه – من باب الاستنتاج ايضا – وما شابهه سحر . وخرق العادات سحر ، والتمثيلات الخيالية والشعبذة سحر (٤ : ٣٤٧).

ولا ريب عندهم – وعندنا ايضا ، اذا قبلنا تحديدهم للسحر – ان هنالك سحراً حلالا (نافعا) وسحراً حراما (مضراً). فالسحر الحلال هو الدعاء (للدعوة) الى الله سبحانه بالحق وقول الصدق . اما السحر الحرام فهو ادخال الشكوك والشبه على المستضعفين من الرجال والنساء ليصدوهم عن سبيل الله . . . وليسحروا عقولهم بالباطل . الا ان السحر الحرام الباطل لا ثبات له (٤ : ٣٤٩).

وحين قسم اخوان الصفا السحر انواعاً ، فجعلوا منه سحراً علمياً وسحراً عمليا وسحراً عقليا وسحراً حراما وسحراً حلالا ، لم يتحوبوا ان يطلقوا لفظ « السحر الحلال المبين ، والسحر العقلي » على كل علم صدر وكل فعل ظهر من الانبياء والمرسلين واتباعهم واهل بيتهم . وكذلك سموا كل ما ظهر من الحكماء او الفلاسفة والعلماء من الاعمال والصنـــائع والحرف والمهن والعلوم الرياضية ... سحراً نفسانيا (٤ : ٤٠٥ ، ٤٣١) .

ولذلك لا تستغرب اذا علمت انهم يسمون العقل الكلي الذي فـاض عن الله

يرتب الموجودات ويعطيها خواصها وليحفظ القوانين التي تسيطر عليها « الساحر الاعظم »؛ وبكلمة اخرى ان خلق هذا العالم سحر عظيم .

*

رسالة الحيوان

في رسائل اخوان الصفا الصفا رسالة طويلة جداً (٢: ١٥٢ – ٣١٧) موضوعها « في كيفية تكوين الحيوانات واصنافها » . ان قسما من هذه الرسالة (٢ : ١٥٢ – ١٧٣) يتعلق فعلا بعلم الحيوان . واما القسم الاعظم الباقي (١) فهو قصة رمزية كان الغرض منها بلا ريب نزع كل فضل للعرب على سائر الامم. ان اخوان الصفا يرمزون الى العرب بقولهم (البشر او الانس) ويرمزون الى سائر الامم بانواع الحيوانات المختلفة . وهم يحاولون بكل ما كتبوا الا يروا فضلا للبشر على الحيوانات (وبالتالي للعرب على سائر الامم) بل يرون ان الكثير من انواع الحيوان يفضل البشر انفسهم حتى في العقل (٤: ١٨١–١٨٢). «فقال زعيم البهائم.. ايها الانسي .. اما ما ذكرته من جودة حواسكم ودقة تمييزكم وافتخرتم به علينا فليس ذلك لكم خاصة دون غيركم من الحيوانات ،لأن فيها ما هو اجود حاسة منكم وادق تمييزاً . فمن ذلك الجمل فانه ... يبصر موضع قدميه في الطرقات الوعرة والمسالك الصعبة في ظلم الليل ما لا يرى احدكم الا بسراج مشعل ... واما الذي ذكرته من رجحان العقول فلسنا نرى له اثراً او علامة ، لأنه لو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتم علينا بشيء ليس هو من افعالكم ولا اكتساب منكم ، بل هي مواهب من الله ... وانما العقلاء يفتخرون باشاء هي افعالهم من الصنائع المحكمة والآراء الصحيحة والعلوم الحقيقية والمذاهب المرضية والسنن العادلة والطرق المستقيمة . ولسنا نراكم تفتخرون بشيء منها غير دعوى بلا حجة وخصومة بلا بينة » .

---

(١) ٢: ١٧٣ — ٣١٧ ، هذا القسم مطبوع باسم « الحيوان والانسان » وهو خاتمة وزبدة رسائل اخوان الصفا ، مطبعة دار الترقي بشارع عبد العزيز بمصر ، ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠ م .

وبعد جدال طويل وانكار لكل فضل للبشر على الحيوانات يقوم « الخطيب الحجازي المكي المدني » (رمز الى العرب المسلمين بلا ريب) فيفتخر على معاشر الحيوانات كلها (٤ : ٣١٤-٣١٥) بالاسلام وبالخلود في الجنان وبشفاعة محمد عليه السلام ، فتقر الحيوانات للبشر حينئذ بالزعامة وتعطيهم الطاعة (اشارة الى الاعتراف بفضل العرب المسلمين على المسلمين من غير العرب) .

لا سبيل الى تحليل هذه الرسالة لأنها تنطوي على اكثر فلسفة اخوان الصفا باسلوب رمزي . ولكن يجب ان نذكر انها مظهر من مظاهر « الشعوبية » لانكار فضل العرب كعرب والاعتراف بفضلهم كمسلمين. ولم تكن الشعوبية في يوم من الايام اكثر من هذا ، اللهم الا ما كان من شأن الغلاة الدينيين والسياسيين الذين لا شأن لنا بامرهم الآن .

نُصوصٌ مُختارَةٌ
من رَسائِلِ إخوانِ الصفا

في هذه الدراسة نماذج كثيرة جداً من اقوال اخوان الصفا وآرائهم مختارة من جميع اقسام هذه الرسائل . على ان المذكور من هذه الاقوال هو موضع الشاهد فقط ، وان كان يطول احيانا فيبلغ بضعة اسطر . اما في هذه النصوص المختارة فالغاية ان تكون النماذج طوالا لتدل على اسلوب اخوان الصفا وعلى اتجاههم في بسط آرائهم وحججهم وجدالهم . ولقد اخترت هذه النصوص من الرسائل التي تتناول الكلام على هبوط النفس ومفارقتها للجسد وخلودها او على تهذيب النفس ووضع الشرائع او على دولة اهل الخير ودولة اهل الشر . ان هذه الموضوعات هي الموضوعات المقصودة من رسائل اخوان الصفا .

من الجزء الاول : الرسالة الرابعة، من القسم الرياضي.

من الرسالة الرابعة : في الجغرافية يعني صورة الارض والاقاليم :

١ : ١٣٠ — ١٣١ اعمار الدول : دولة اهل الخير ودولة اهل الشر :

... واعلم ، يا اخي ،بأن امور هذه الدنيا دُول ونُوب (١) تدور بين اهلها قرنا بعد قرن ومن امة الى امة .

فصل* واعلم بان كل دولة لها وقت منه تبتدىء،وغاية اليها ترتقي،وحدّ اليه تنتهي. فاذا بلغت الى اقصى غاياتها ومدى نهاياتها تسارع اليها الانحطاط والنقصان وبدا في اهلها الشؤم والخذلان . واستأنف في الآخرين من (٢) القوة والنشاط والظهور

---

(١) دول : جمع دولة ، ونوب : جمع نوبة ، وكلتاهما بمعنى مجيء الامر مرة بعد مرة . والدولة ايضاً الجماعة المنظمة تنظيماً سياسياً .

(٢) شيء من القوة والنشاط ..

والانبساط، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد ويضعف ذلك وينقص الى ان يضمحل الاول المقدم ويستمكن الآتي المتأخر. والمثال في ذلك مجاري احكام الزمان وذلك ان الزمان كله نصفان نصفه نهار مضيء ونصفه ليل مظلم. وايضا نصفه صيف حار ونصفه شتاء بارد وهما يتداولان مجيئهما وذهابهما كلما ذهب هذا رجع هذا، وتارة يزيد هذا وينقص هذا، وكلما نقص من احدهما زاد في الآخر بذلك المقدار حتى اذا تناهيا الى غايتهما في الزيادة والنقصان ابتدأ النقص في الذي تناهى في الزيادة وبدأت الزيادة في الذي تناهى في النقصان. فلا يزالان هكذا الى ان يتساويا في مقداريهما ثم يتجاوزان على حالتيهما الى ان يتناهيا في غايتيهما من الزيادة والنقصان. وكلما تناهى احدهما في الزيادة ظهرت قوته وكثرت افعاله في العالم وخفيت قوة ضده وقلت افعاله.

فهكذا حكم الزمان في دولة اهل الخير ودولة اهل الشر، تارة تكون الدولة[١] والقوة وظهور الافعال في العالم لاهل الخير وتارة الدولة والقوة وظهور الافعال في العالم لاهل الشر كما ذكر الله عز وجل وقال[٢]: « وتلك الايام نداولها بين الناس ». « وما يعقلها الا العالمون »[٣].

فصل * وقد نرى، ايها الاخ البار الرحيم ايدك الله وايانا بروح منه، انه قد تناهت دولة اهل الشر وظهرت قوتهم وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان. وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان. واعلم بان الدولة والملك ينتقلان في كل دهر وزمان ودور وقران[٤] من امة الى امة ومن اهل بيت الى اهل بيت ومن بلد الى بلد.

واعلم، يا اخي، ان دولة اهل الخير اولها من قوم علماء وحكماء وخيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد ويتفقون على دين واحد ويعقدون بينهم عهداً وميثاقا

---

(١) الدوله هنا: النوبة، حصول الامر مرة بعد مرة.

(٢) القرآن الكريم، سورة آل عمران (٣: ١٤٠).

(٣) القرآن الكريم، سورة العنكبوت (٢٩: ٤٣).

(٤) القران تعبير فلكي: التقاء كوكبين في خط نظر واحد. والسنوات التي تحدث فيها القرانات تكون (في رأي المنجمين) سنوات ذات حوادث مهمة.

الا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا ويكونون كرجل واحد في جميع امورهم وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم في ما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة لا يبتغون سوى وجه الله ورضوانه جزاء وشكوراً .

فهل لك ، ايها الاخ البار الحكيم ايدك الله وايانا بروح ،منه بان ترغب في صحبة اخوان لك نصحاء واصدقاء لك اخيار فضلاء هذه صفتهم بأن تقصد مقصدهم وتتخلق باخلاقهم وتنظر في علومهم لتعرف مناهجهم وتكون معهم وتنجو بفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون .

وفقك الله ، ايها الاخ وجميع اخواننا ، الى الصواب بفضله ومَنِّهِ . وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ، والحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله .

من الجزء الثاني : الرسالة الثانية من الجسمانيات الطبيعيات — الموسومة بالسماء والعالم في اصلاح النفس وتهذيب الاخلاق :

٢ : ٤٢ * القيامة وخلود النفس (مفارقة النفس للجسد) :

واعلم ، يا اخي ، ان الاجسام الفلكية محفوظ نظامها وباقية اشخاصها ما دامت ثابتة على دورانها . فاذا وقفت عن دورانها سكنت حركاتها ، فولّد السكون البرودة (وولدت البرودة الرطوبة) وولّدت الرطوبة التفشي والتبدد ، والتفشي والتبدد يفسدان النظام. ومن فساد النظام يكون البوار والبطلان .

فصل * انما يدوم دوران الفلك مـــا دامت النفس الكلية مربوطة معه ، فاذا فارقته قامت القيامة الكبرى ، لأن معنى القيامة مشتق من القيام . فاذا فارقت النفس قامت قيامتها،قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله « من مات فقد قامت قيامته ». وانما اراد قيام النفس لا الجسد ، لأن الجسد لا يقوم من الموت بل يقع وقوعاً لا يقوم بعده الى ان ترد النفس اليه ثانية . فانتبه ، يا اخي ، من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتزوّد للرحلة واستعد للقيامة قبل ان تقوم قيامتك بأن يؤخذ منك

هذا الهيكل المبني مملوءاً من آثار الحكمة قهراً وانت كاره فتبقى نفسك بلا سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق ولا لمس فارغة خاوية تهوي في هاوية البرزخ الى يوم القيامة الى يوم يبعثون . فبادر وشمر واجتهد بان تكتسب بتوسط هذا الهيكل الجسماني هيكلا روحانياً وبتوسط هذه الحواس الجسدانية حواس عقلية ليكون(١) بعد حين فترجع نفسك من عالم الاجسام الى عالم الارواح بربح لا بخسران .

واعلم بان النفس اذا فارقت هذا الهيكل فلا يبقى معها ولا يصحبها من آثار هذا الجسد الا ما استفادته من المعارف الربانية والاخلاق الجميلة الملكية (٢) والآراء الصحيحة المنجية والاعمال الصالحة الزكية المرضية المربحة وذلك ان تبقى هذه الاشياء في النفس مصورة في ذاتها اذا كانت معتادة لها صورة روحانية نيرة بهية كلما لاحظت النفس ذاتها ورأت تلك الصورة فرحت بها وامتلأت سروراً في ذاتها وفرحاً ولذة، وذلك ثوابها ونعيمها بما اسلفت في الايام الخالية . واما اذا كانت اخلاقها رديئة سيئة بشعة وآراؤها فاسدة واعمالها موبقة وجهالاتها متراكمة بقيت عمياء عن رؤية الحقائق وتبقى هذه الاشياء في ذاتها مصورة صورة قبيحة سمجة فكلما لاحظت ذاتها ونظرت الى جوهرها رأت ما يسوءها وتريد الفرار منه واين لها الفرار من ذاتها .

فاعتبر ، يا اخي ، ما ذكرت لك ولا تغتر بما انت فيه من رغد العيش وصحة البدن وعشرة اخوان لك جسدانيين واصدقاء جسمانيين يريدونك لمعاونتهم على اصلاح احوال اجسامهم : فان قصرت عن معاونتهم ابغضوك وان تجلدت(؟) عليهم جحدوك وان علوتهم حسدوك وان قصر حالك شمتوا بك ولا يريدونك الا لصلاح ونجاح امورهم وحوائجهم . فهلم ، يا اخي ، الى صحبة اخوان لك نفسانيين واقران لك روحانيين يريدونك ولا يأخذون منك ويخلصونك مما وقعت فيه بأن تدخل في صحبتهم وتسمع اقاويلهم لتفهم مذاهبهم وتنظر في كتبهم وتعرف طريقتهم وعلومهم وتعمل بسنتهم وتسير بسيرتهم لعلك تنجو بصحبتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون .

---

(١) يظهر ان هنا موضع كلمات ساقطة في الطبع.

(٢) نسبة الى ملك (بفتح اللام) : واحد الملائكة .

من الجزء الثاني : الرسالة الثالثة من الجسمانيات الطبيعيات - في بيان الكون والفساد.

٢ : ٥١ - ٥٣ * فضل الآخرة وفضل معرفتها .

واعلم ، يا اخي، ان جسدك الذي تختص به نفسك احد(١) الكائنات الفاسدات وما هو بالنسبة الى نفسك الا كدار سكنت او كلباً البس (٢). فلا تكونن كل همتك واكثر عنايتك بتزويق هذه الدار وتطرية هذا اللباس فانك تعلم بان كل مسكن يخرب وكل لباس لا بد ان يبلى . ولكن اجعل بعض اوقاتك للنظر في امر نفسك وطلب معرفة جوهرها ومبدأها ومعادها فانهـــا جوهرة خالدة ابدية الوجود ولكن تنتقل من حال الى حال كما قيل :

اجهد(٣) على النفس واستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان .

كما روي في الخبر ان ابن ابي طالب صلوات الله عليه قال في خطبة له انما خلقتم للابد ولكن من دار الى دار تنقلون من الاصلاب الى الارحام ومن الارحام الى الدنيا ومن الدنيا الى البرزخ ومن البرزخ الى الجنة او الى النار .

فصل * واعلم ، يا اخي ، بان الجنة انما هي عالم الارواح وكله صورة روحانية لا هيولى جرمانية (٤) بل حياة محضة وراحة ولذة وسرور وغبطة لا يعرض لها الكون والفساد ولا التغيير والبلى لأنها هي دار الحيوان (٥) لو كانوا يعلمون . فاذا كانت الدار هي الحيوان فما ظنك ، يا اخي ، باهل الدار كيف حالهم فانه يقصر الوصف عنهم الا باختصار كما ذكر الله تعالى في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقال: « فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها خالدون»٦ .

---

(١) هو احد الكائنات .
(٢) كذا : البس : وضع عليه لباس (او كلباس ؟)
(٣) المشهور: اقبل على النفس . والبيت لابي الفتح البستي (ت في بخارى ٤٠١ هـ-١٠١٠م).
(٤) الجرم والجرمان (بالكسر) : الجسم .
(٥) الحيوان : الحياة (الخالدة) .
(٦) القرآن الكريم ، سورة الزخرف (٤٣ : ٧١)

واعلم ، يا اخي ، ان النار وجهنم هي عالم الاجسام التي تحت فلك القمر الذي هو دائم في الكون والفساد والتغيير والاستحالة والبلى ، وان اهلها كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب (١) . فازهد ، يا اخي ، في غرور هذه الدنيا كما زهد انبياء الله عز وجل وأولياؤه والفلاسفة الحكماء فقد علمت انها ليست بدار المقام فاستعد للرحلة والانتقال باختيار منك لا مكرها ولا مجبراً قبل فناء العمر وتقارب الاجل .

واعلم انه لا يستوي لك هذا الا بعد ان تعرف فضل الاخرة على الدنيا معرفة صحيحة بلا شك ولا تقليد لأن جبلة الانسان ان لا يزهد في الحاضر العاجل ولا يرغب في الغائب الآجل الا بعد معرفة فضل الآجل الغائب على العاجل الحاضر .

واجتهد ، يا اخي ، في معرفة طلب ما اشار اليه انبياء الله تعالى في الكتب المنزلة على السنتهم المأخوذة عن الملائكة معانيها في وصف نعيم الجنان وسعادة اهلها وصفة النيران وشقاوة اهلها وما اشار اليه ايضاً الفلاسفة والحكماء في رموزهم من وصف عالم الارواح ومدح اهلها وذمهم عالم الاجسام وسوء ثنائهم على اهلها . ولعلك تتصور بعقلك ما تصوروا وتشاهد بصفاء جوهر نفسك ما شاهدوا بصفاء جوهر نفوسهم فتنتبه نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة وتعيش عيش السعداء العلماء وترتقي في المعارف وتعلو همتك نحو ملكوت السموات وتكون في الاخرة من السعداء . وفقك الله ، ايها الاخ وايانا وجميع اخواننا حيث كانوا في البلاد ، للرشاد . انه رؤوف بالعباد .

الجزء الاول من الرسائل الجامعة .

الرسالة الاولى من الرسائل الجسمانية الطبيعية : في الهيولى والصورة وماهيتها والزمان والمكان والحركة ...

١ : ٣٨٢-٣٨٦ فصل في الهبوط (هبوط النفس) .

---

(١) راجع القرآن الكريم: سورة النساء (٥ : ٥٦).

اعلم ، ارشدك الله ، ان النفوس اول ما بدت وسرت لما اهبطت الى الاجسام من اعلى سطح المحيط الى نحو مركز الارض مرت اولا بالكواكب والاجرام ثم بلغت الى آخر مركز الارض الذي هو اقصى مدى غاياتها في هبوطها ومنتهى نهاياتها في حضيضها . فمنها ما ثابت (١) وانابت (٢) وتذكرت ورجعت من قريب فاتحدت بالكواكب النيرة والاجرام الصافية ، ولذلك قيل لها النفس المطمئنة (٣) الراجعة من قريب . ولم يطل بها الامد في جهالتها وطغيانها . ثم كانت كذلك تتفرق وتتحد الشيء (٤) بعد الشيء على قدر الصفاء والرجوع الى الاقرار والاعتراف بالخطأ الى ان بلغت الى فلك القمر آخر ابواب العالم العلوي . ثم هبطت المتخلفة عن الاجابة نحو المركز واتحدت بعالم الامهات وسرت قواها في المعادن والنبات والحيوان (٥) ، وعطفت عليها النفوس الناجية المتحـــدة بالكواكب وحنت عليها ورحمتها .

وكذلك اخبر الله سبحانه عن اهل السموات والحافين من حول العرش (٦) انهم يستغفرون لمن في الارض . فقد صح بالبرهان الصادق ان كل شيء يحن على جنسه ، فدارت الافلاك وسارت الكواكب النيرات وترتبت الامهات وظهرت الاشخاص من المعادن والنبات والحيوان (٧) وبرزت صورة الانسان ، وامتلأ العالم من الاشخاص ، ونزلت النفس القدسية بالروح من امر ربها على من يشاء من عباده بالدعاء اليه والدلالة عليه . فمن أجاب واناب لحق بعالمه ، ومن أبى واستكبر وخالف نزل في هوته . فانظر الآن ، يا اخي ، كيف يكون انصرافك ورواحك من هذا العالم الى هناك ، فان نفسك هي احدى تلك القوى الهابطة المنبثة من الكلية

---

(١) رجعت (عن ذنبها واساءاتها) .
(٢) تاب ، رجع الى الحق .
(٣) راجع القرآن الكريم ، سورة الفجر (٨٩ : ٢٧-٢٨) .
(٤) كذا بالاصل : شيئاً بعد شيء ، شيئاً فشيئاً ..
(٥) الحيوان لها في كتابات الفلاسفة مداولان ، الحيوان بمعنى البهيم ، ثم الحيوان بمعنى كل ذي حياة : النبات والبهيم والانسان معاً .
(٦) راجع القرآن الكريم ، سورة الزمر (٣٩ : ٧٥) .

السارية في العالم . وانك (الآن) قد بلغت الى المركز وانصرفت ونجوت من الكون في المعادن والنبات والحيوان وجاوزت الصراط المنكوس والصراط المعوج ، وانت الآن على صراط مستقيم منتصب بين الجنة والنار . وهـــذه هي صورة الانسانية ، فان جاوزته (١) وسلمت من هذه دخلت الجنة من احد ابوابها ، وهي الصورة الملكية التي تكتسبها باعمالك الصالحة ومتاجرك الرابحة واخلاقك الجميلة وآرائك الصحيحة ومعارفك الحقيقية .

فاجتهد يا اخي ، قبل فوت الامل وحلول الاجل ؛ واركب مع اخوانك في سفينة النجاة كما ركبوا تصل الى حيث وصلوا وتنزل حيث نزلوا . ولا تكن من المغرقين (٢) الذين هم اخوان الشياطين ، ولا تأو الى جبل يعصمك من المـاء فانه لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم (٣) .

الجزء الاول من الرسالة الجامعة :

الرسالة الرابعة عشرة من الرسائل الجسمانية الطبيعية :

١ : ٦٦٩ - ٦٧٣ * في بيان طاقة الانسان في المعارف الى اي حد هي ومبلغه من العلوم الى اي حد ينتهي فيها ، والى اي شرف يرتقي منها ، والغرض المقصود اليه من هذه الرسالة هو معرفة ما ينتهي اليه الانسان في العلوم ويقف عنـــده من الحكم وهي ثلاثة اقسام :

فصل * اعلم ، يا اخي ايدك الله وايانا بروح منه ، ان علوم الناس كلها لاتخرج عن ثلاثة اقسام ، هي اصولها وجوامع اختلاف فروعها ، وهي : علم الشريعة ، والصناعة ، والملك وما يتفرع منها من المقولات عليها . وهي مثل الانبياء الثلاثة المرسلين : آدم ونوح وابراهيم عليهم السلام ، فهم الآباء ، ومنهم تفرعت العلوم والحكمة . وهم اصل موضوعات الشرائع ، والصناعة والملك .

---

(١) جاوزت الصراط المنكوس او الصراط المعوج .

(٢و٣) راجع القرآن الكريم ، سورة هود (١١ : ٤٣) .

فنهاية علم الانسان بالعلوم الشرعية والنواميس الالهية هي ان يتهيأ له ، بصفاء جوهره وسلامة طبيعته واستتمام آلة بلوغه الى حد كماله ، ان يكون نبياً ناطقاً معلماً لاهل زمانه ، يقبل الوحي والتأييد ، فهذا نهاية ما يرقى اليه ويطلع عليه من العلوم الشرعية والمعارف الدينية ؛ ومن (١) يتبعه من بعده ، ممن يقوم مقامه وينوب منابه ، من اهل بيته واصحابه . واما علم المملكة فهو ان يعلم الانسان السياسة الخاصة والعامة ، والجزئية والكلية . فأما الخاصة فما يجب له وعليه من امر نفسه ومن يقرب منه من اهله ، ثم العامة من جميع من بعُدَ عن داره وساسهم كسياسة من قرُبَ اليه ، مع الاحاطة بعلم تدبير المملكة وما ينبغي لها ، ومن يصلح ان يُعينه عليها ويوصله بحسن الملاطفة اليها . فلا يزال كذلك يرقى حالا بعد حال حتى يبلغ سرير المملكة ، فاذا بلغه وناله وقف عنده وانتهى الى رأسه .

ثم انه يطلب الارتقاء في علم الملة الشرعية والحكمة الناموسية ، فاذا بلغ اعلاها وارتقى الى منتهاها ، تهيأ له ان يكون نبياً رسولا ناطقاً فيجتمع له الملك والنبوة . ثم يرجع الى ما يعود نفعه على اهل زمانه في معيشة الدنيا ، فينظر في علم الصنائع الجليلة ، من علم ما يكون بمنافع الاجسام ويحرس بنيتها ويصونها من المصائب والآلام والاسقام ، وما يحتاج اليه من ذلك مما يكون لها به القوام التام ، وصلاح الانفس وسلامتها من الآفات ، فيبلغ من ذلك الى حد هو غايتها وتمام نهايتها . فيكون حينئذ هذا الانسان مستقيم الطريقة في المعارف ، فيبلغ الى نهايتها (٢) ويصل الى معالي درجاتها ورفيع غاياتها ، وتنبثّ منه (٣) في العالم فيكون هو الغاية والنهاية واوسع اهل زمانه طاقة واعظمهم استطاعة ، فيكون كالفلك المحيط بما دونه ويكون ملكاً نبياً حكيما. ثم ينبث ذلك منه فيمن يليه من اهله وعشيرته واصحابه ومن يلزمه امره ، حتى تنتشر بركته وتَعُمّ اهله ، وينتفع به جميع اهل زمانه . وبمعرفة هذا الشخص المجتمعة فيه هذه الفضائل تكون معرفة الله عز وجل

---

(١) كذا بالاصل. المقصود : ويطلع على من يتبعه: سيأتي من بعده.
(٢) نهاية المعارف .
(٣) تنبث منه تلك المعارف في العالم .

والقصد نحوه . وهو يكون الدليل لاهل زمانه الى ربهم فيسوقهم الى رحمتـــه ، ويدلهم على طاعتـه ويعرفهم بدينه ، ويجمعهم على توحيده، ويعلمهم الاتكال عليه والرجوع بالكلية اليه . وهذه منزلة الرئيس السابع المؤيد بوسع الطاقة في المعارف، وهو الغاية ، وبه تكون النهاية وقيام الساعة .

الجزء الثاني من الرسالة الجامعة :

الرسالة التاسعة من الرسائل النفسية العقلية .

٣ : ٢٩٥ – ٣٠٢ * فصل * في معرفة العلل والمعلولات التي هو اصـــول ، وتقدم بعضها على بعض كتقدم الواحد على العدد :

اعلم ، يا اخي ، ايدك الله وايانا بروح منه ، ان الباري سبحانه متقدم الوجود على العقل ، وهو خالقه ومبدعه ، كتقدم الواحـــد على الاثنين . والعقل متقدم الوجود على النفس ، ومن كانت له ، وعنه بدت ، كتقدم الاثنين على الثلاثة . والنفس متقدمة الوجود على الهيولى الاولى كتقدم الثلاثة على الاربعة . وكلها منبسطة عن الباري سبحانه ، دفعة واحدة ، بلا زمان ولا مكان . وشرف بعضها على بعض بقرب النسبة اليه والقرب منه .

فالباري سبحانه علة العقل ؛ والعقل علة النفس ؛ والنفس علة الهيولى ؛ والهيولى فيها تركب الصور المجردة ؛ والطبيعة قوة منفعلة عن النفس .

فصل * اعلم ، يا اخي ، ان الافلاك متقدمة الوجود على الاركان التي تحتها بالازمان والادوار والقرانات . وعالم الارواح اللطيفة ، والانفس الشريفة ، متقدم الوجود على عالم الافلاك بالدهور الطوال الموجودة في القوى النفسانية ، وبالدورات المتوهمة البعيدة عن الدخول تحت الاحاطة والانحصار كالاحاطة بأيام الأدوار والأعصار الموجودة لظلمة الليل وضوء النهار .

والزمان بدء حركة الفلك . والدهر بدء حركة النفس الكلية بتحريك العقل لها الى منافعها ، ودورانها بالشوق الى الاستفادة منه . والزمان لا يبلغ درك الدهر ، والدهر متقدم الوجود على الزمان .

واعلم ، يا اخي ، ان النفس قد أتى عليها دهر طويل في قبضة العقـــل ، قبل تعلقها بالجسم ، وذلك انها تحركت حركة طويلة غير متوهمة كتوهم الحركات المحسوسة الكائنة في الزمان الفلكي. ولقد كانت في عالمها الروحاني ومحلها النوراني، ومركزها العقلي ، ودارها الحيواني (١). مقبلة على علتها : العقل الفعال ، تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات ، وتتراءى فيهـــا المثالات (٢) العقلية انواراً روحانية ذاتية ؛ واشباحاً نورانيـــة ملكية (٣) كلها (٤) حركتها بالتسبيح والتقديس والتهليل والتكبير بأصوات مرتفعة وانوار ساطعة لامعة باشراق العقل، وتأييد الرب تسمع كلامه . وكانت النفس هنالك منعمة ملتذة مستريحة مسرورة فرحانة . فلما اقامت على ذلك في تلك الحركة الفاضلة والنعمة الشاملة والبركة الكاملة ، التي لا يوصل الى تصويرها بالوهم والتخيل الحسي، امتلأت من تلك الفضائل والخيرات . فأرادت التشبه بعلتها ، وان تكون مفيدة وان تكون ذات منه وجود (٥). فلما رأى الباري سبحانه ذلك منهـــا ، مكنها من الجسم ، وهيأه لها وخلق من ذلك الجسم عالم الافلاك واطباق السموات ، من لدن الفلك المحيط الى منتهى مركز الارض ، وركب الافلاك بعضهـا فوق بعض ، فتحركت النفس الكلية فيها حركة اختيار . فحينئذ وجدت النفس في الاشياء المخلوقة منهـا قوة لقبول آثارها ، فصورت فيها صورة ما في ذاتها ، وجعلتها مثالات ونقشتها وصبغتها وأكسبتها الحركة. فكانت الاشياء لذلك كثيفة بالجسم ، لطيفة بالنفس ، متحركة بالقوة الباعثة لها من العدم الى الوجود ، بالعناية الربانية والافاضة العقلية والادارة النفسانية .

فلما سرت القوى الفاضلة والحركات الكاملة في عالم الافلاك ، جعلتهـا انواراً

---

(١) نسبة الى حيوان (مصدر) بمعنى الحياة .
(٢) المثالات : المثل الافلاطونية (بضم الميم والثاء)
(٣) نسبة الى ملك واحد الملائكة.
(٤) كذا بالاصل ، كلها تتحرك ، حركتها كلها .
(٥) المقصود : ان تكون ذاتا يصدر منها وجود آخر .

شفافة ، ذات اجرام لطيفة ، خفيفة ، ونقشت عليها امثال الصور المجردة المعرّاة من من الاجرام التي فيها . فصارت الملائكة ، الذين هم اجرام اهل الافلاك ، مثالات لمن فوقهم من الملائكة المقربين ، ثم كذلك اهل كل سماء ، من لدن الفلك المحيط الى فلك القمر . فقام امر النفس جارياً على هذه الحال مدة ما شاء الله عز وجل ، على احسن النظام واكمل التمام ، الى ان كان من آدم ما كان فأهبطت النفوس الجزئية الى مركز الارض ، واتحدت بالاجسام السفلية . وفارق الاجرام العلوية من استحق منها العذاب لما كان منه (١) من النسيان والخطيئة ، وتقطعت ثلاث فرق: فرقة اتحدت بجوهرية المعـــادن ، وفرقة اتحدت بجوهرية النبات ، وفرقة اتحدت بجوهرية الحيوان (٢) الذي افضله عالم الانسان . ثم عطفت النفس الكلية ، بعد ذلك ، راجعة الى قبول الفيض العقلي بالتوبة والانابة والاستغفار لمن في الارض ، وطلب الرضوان لهم من ربهم ، كما قال عز وجل: «ويستغفرون لمن في الارض (٣)» ، « ربنا وسعت كل شي رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك (٤) ». وبعث الله النبيين والمرسلين والمبلغين رسالات ربهم (٥) ، وهو عالم الكون والفساد ، وامتلأت جهنم من الجن والانس ، وقالت : « هل من مزيد (٦) » ممن اساء واخطأ. فمن تذكر واعتبر واتبع المرسلين فاز ونجا ، ومن تخلف هلك وغوى. والدليل على ذلك قول الله عز وجل : «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً (٧)» اي لم تكن النفس متحدة بجسم طبيعي تحتاج ان يذكر بما منه بدأت ، « انا خلقنا الانسان» — يعني الجزئي — «من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، انا هديناه

---

(١) من آدم ؟ ولعلها : منها : من النفوس الجزئية ، وهو اصوب .
(٢) الحيوان : كل ذي حياة : النبات ، البهيم ، الانسان .
(٣) القرآن الكريم ، سورة الشورى (٤٢ : ٥).
(٤) القرآن الكريم ، سورة المؤمن (٤٠ : ٧٠).
(٥) ينقص بعد كلمة « ربهم » كلمات ، لعلها « الى ما دون فلك القمر » ، اي الارض .
(٦) القرآن الكريم ، سورة ق (٥٠ : ٣٠)
(٧) القرآن الكريم ، سورة الدهر او الانسان (٧٦ : ١).

السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » (١) ، يعني هداه السبيل الى جنته والطريق الى رحمته ، فاما شاكراً لأنعمه ، إذ هداه وارشده ، وإما كفوراً منهمكا في رقدته تائها في ضلالته . « إنا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالاً وسعيراً » (٢) ، يعني عالم الكون والفساد .

ولا تزال الاشياء موجودة على ما هي ، من اجتماع اللطيف بالكثيف ، ما دامت النفوس الجزئية متحركة بالنشوء والبلى والكون والفساد والترقي من الحال الادنى الى الحال الاعلى ، حتى ترقى كلها وتتصاعد باجمعها ، كما تتصاعد المياه من البخارات وتصير في الغمام ، ولا تبقى في الاواني إلا تفالاتها (٣) ، فيُرمى بها ، اذ لا حاجة اليها .

واعلم ، يا اخي ايدك الله وايانا بروح منه ، انه سترجع النفوس الجزئية ، الى النفس الكلية باجمعها ، وتصير في عالمها الروحاني ومحلها النوراني وحالها الاول ووقتها الدهري الأبدي السرمدي ، الذي لا نهاية لطوله والذي كانت فيه قبل تعلقها بالجسم ، كما قال عز وجل : « كما بدأنا اول خلق نعيده » (٤) ، ولكن بعد مضي الدهور والأزمنة والأكوار والأدوار . وسيخرب العالم الارضي والمركز السفلي ، اذا فارقته النفس وسكن الفلك عن الدوران ، والكواكب عن السير ، والاركان عن الاختلاط والامتزاج ، وبلي النبات والحيوان والمعادن ولحقت بعلتها .

وتخلع النفس الصور والاشكال والنقوش ، ويبقى الجسم فارغا كما كان بدنا (٥) إذا اعرضت عن النفس ، واقبلت نحو عالمها ولحقت بعلتها وصارت عنده واتحدت

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الدهر او الانسان (٧٦ : ٢ وما بعدها)
(٢) القرآن الكريم ، سورة الدهر او الانسان (٧٦ : ٢)
(٣) كذا بالاصل ، والاصل بالثاء ، ثفال : ما ركد في قعر الاناء من القذر وشبهه (على ان الصواب : ثفل بضم الثاء وسكون الفاء).
(٤) القرآن الكريم ، سورة الانبياء (٢١ : ١٠٤).
(٥) كذا بالاصل ، ولعلها : بدياً (بتشديد الياء) : كما كان في البدء .

به ، كاقبال التلميذ على معلمه واستاذه المتعلم الحكمةَ منه والآخذ لها عنه ، بعدان كان مشغولا بصبوته ، منهمكا في تناول لذته ، مقبلاً على بلوغ شهوته ؛ فلما كبر وعقل واعتبر وتذكر واقبل على صحبة مفيده ومعلمه صار مثاله . كذلك النفس اذا لحقت بالعقل واقبلت عليه ، دُفعة واحدة ، تخلت عن الجسم دفعة واحدة .

فعند ذلك تبطل الحركة الدنياوية . فأفهم ، يا اخي ، هذا القول وتدبر هـــذا المعنى وقف على هذا السر . وفقك الله واعانك وايانا وجميع اخواننا بمنه ويمنه .

الفهرست

الكلمة الثانية : صلة اخوان الصفا بالاسماعيلية وبالسياسة ٣ — ٥

الكلمة الاولى : بين يدي اخوان الصفا : الاشارات الخارجية — فحوى الرسائل ٦ — ١٠

المصادر والمراجع : ١١

تمهيد — جماعة اخوان الصفا ورسائلهم : جماعتهم ، مكانهم وزمانهم ، اسمهم ، صفتهم ، غايتهم ، مذهبهم ، عقيدتهم الدينية ، حقيقة امرهم ، هل كان لهم مذهب سياسي ؟ سبيل دعوتهم . مجالسهم ومراتبهم . رسائلهم : تأليفها ، عدد الرسائل ، اسلوب الرسائل ، آراؤهم ، تقسيم العلوم عندهم ، مجمل آرائهم ١٣ — ٣٧

الفصل الاول — المنطق وسبل المعرفه : المنطق ، نظرية المعرفة ٣٨ — ٤١

الفصل الثاني — مبادىء علم الوجود : المكان ، الخلاء ، الزمان ، الهيولي والصورة ، الحركة ، العلل والاسباب ٤٢ — ٤٧

الفصل الثالث — الرياضيات ونظرية العدد : العلوم العددية ، نظرية العدد ، الهندسة ، صورة العالم ، العالم انسان كبير والانسان عالم صغير ، علم الفلك ، التنجيم ، الارض ، الجغرافية ٤٨ — ٥٨

الفصل الرابع — الفلسفة الطبيعية : الطبيعة ، الاركان الاربعة ، نظرية الزئبق والكبريت ، البغض والمحبة والمغنطيس ، الكون والفساد ، الاجسام (الجواهر

والاعراض ، الحرارة ، الضوء والالوان ، الصوت ، الكيمياء والصنعة ، الصحة والطب والعلاج ٥٩ — ٦٥

الفصل الخامس — قوى النفس : القلب والدماغ ، الحواس الخمس ، الادرك بالعرض ، اللذة والالم ، العادة تضعف الادراك ، عملية التفكير . ٦٦ — ٧٢

الفصل السادس — علم الحياة : النبات ، الحيوان (البهيم) ، نشوء الحياة وتطور الحيوان ، السيلان ، النشوء المرتجل . ٧٣ — ٨٧

الفصل السابع — الالهيات : الله ، الدليل الوجداني ، الذات والصفات العالم ، فيض العالم ، النفس ، اين كانت .. الغاية من حياة النفس في الجسد ، بماذا تتفاضل النفوس ، موت النفس (الحشر الاصغر) ، نفوس البهائم ، التناسخ ، الحشر الاكبر ، كيف تحاسب النفوس ، الدنيا والآخرة ٨٨ — ٩٦

الفصل الثامن — الايمان والاديان ـ الايمان : بالله ، بالملائكة والجن والشياطين ، بالانبياء ، بالوحي . الاديان (الناموس والشرائع) : الدين والشريعة ، موقف اخوان من الشرائع والمذاهب . المعجزات . ٩٧ - ١١٣

الفصل التاسع — الفلسفة الاجتماعية : البيئة والمجتمع ، طبقات البشر ، التعاون ، العامة وخاصة العامة ، الدولة والفلسفة السياسية ، انواع السياسات ، السياسة المدنية ، السياسة الجسمانية ، السياسة النفسانيه .. المرآة . التربيه والتعليم : التربية ، انواع العلم ، طرق التعليم ،

شروط العلم وفضائله ،الناحية النفسية من التعليم ، الفاحشة والتعليم . ١١٤-١٣٢

الفصل العاشر — الفلسفة الاخلاقية : الاخلاق نوعان ، الاخلاق المركوزة ، الاخلاق المكتسبة، الاخلاق معروفة بالعقل ، فعل الخير للخير ، الفضائل توسط بين متضادين ، الفضائل فيض الهي . ١٣٣-١٤٠

الفصل الحادي عشر — الفلسفة العملية: الزهد والتصوف، اللغة والخط، الخط والكتابة ، النوم والرؤيـــة ، السحر والعزائم ، رسالة الحيوان ١٤١-١٤٨

نصوص مختارة ١٤٩-١٦٢

نخبة من دراسات وكتب

للدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١ ـ الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ ـ عمر ابن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ ـ عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ ـ الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ ـ ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ ـ احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	٦٠
٧ ـ ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	٥٠
٨ ـ اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية .	(الطبعة الثانية)	٧٥
٩ ـ شعراء البلاط الاموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ ـ الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ ـ اربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٢ ـ خمسة شعراء جامليون	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٣ ـ بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ ـ نهج البلاغة	(الطبعة الثانية)	٥٠

١٥ – اخوان الصفا	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٦ – ابن باجه	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٧ – ابن طفيل		١٢٥
١٨ – التصوف في الاسلام		٢٠٠
١٩ – الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب		١٥٠
٢٠ – موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية		١٠٠

دراسات أخر

ابو نواس : دراسة ونقد	(الطبعة الثالثة)	١٥٠
ابو نواس : مختارات		٥٠
ابو تمام		١٠٠
حكيم المعرة	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة	(الطبعة الثانية)	٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الثالثة)	١٥٠
نحو التعاون العربي		١٠٠
دفاعاً عن العلم		(نفد)
دفاعاً عن الوطن		٥٠
الاسرة في الشرع الاسلامي		٤٠٠

600 — Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis Zum Tode Umars, I - 3 d. H. (622-644 n .Ch.) Leipzig 1937.

الاسئلة الثلاثة (مشهد شعري تمثيلي للمدارس الابتدائية)	٢٥
الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	١٠٠
سفينة الحيوانات (مغناة تمثيلية للاطفال)	نفدت

●

يمكن الحصول على هذه الدراسات من :

السيد محمد الخوجة

١٥ نهج باب المنارة – تونس

ARTHUR PROBSTHAIN
Oriental Bookseller
41 Gt. Russell Street
LONDON, W.C. 1

IN ARABIC

IKHWAN US-SAFA

(**Brethren of Purity**)

An analytical and critical study of the epistles of Ikhwân Us-Safa

BY

DR. PHIL. OMAR A. FARRUKH
Member of the Arab Academy, Damascus;
Member of the Islamic Research Association, Bombay.

Second Edition
BEIRUT 1953

مطابع الاستقلال - بيروت

DUE DATE

FEB 15 1991

DEC 7 RECD

201-6503

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0021917604

893.7991
Ik435

Φ733995Φ

BOUND
SEP 9 1955

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58848371
893.7991 Ik435 Ikhwan al-safa : dar

893.7991-Ik435